الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ناهد فرّان

زوايا النسيان

زوايا
النسيان

زوايا النسيان

رواية

ناهد فرّان

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى:

1437 هـ – 2016 م

ردمك 978-614-01-1931-4

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

صورة الغلاف: **بيت الطيور في مدينة صور – عزيزة قهوجي**

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (+9611)

الإهداء

لأجلكما ينبض هذا القلب، وشعلة الحياة
في داخلي تتقد...
يزهو الحب بكما ويكبر، وأمامكما أسير،
سلاحي أمومتي، لأقتلع شوك هذا الدرب...
لأفرد جناحيكما وسع المدى في فضاء الإرادة
والأمل الرحب...
(آلاء) و(سارة)... إليكما... يا أغلى ما أملك...
وكل ما أحب.

ناهد

يلازمني الحزن كظلي، يسير معي على الطريق، يتولى قيادة سيارتي، يرتقي درجات السلم أمامي، يشرب فنجان القهوة، يأكل ويتابع الأخبار معي... رحيلــك ألبســني الحزن ثوباً دائماً كثياب العزاء الســود الــتي لا يــتغير لونها... البارحة، أيقظني هذا المتعب على حروفك الغاضبة وهي تنتفض بقسوة أمامي (بس لازم تفهمي نحنا علاقتنــا انتهت) سمعت صوتك صارخاً في وجهي (انتهت علاقتنا انتهت)... وجدت نفسي في السرير أتعرّق وأصــم أذني بقوة كي لا أسمعك وأردد بصوت مرتجف (بعرف)... نعم أعلم وأفهم وأتفهــم موقفــك ولا يمكــنني رفضــه أو انتقاده... لا حق لي عليك وحياتك ملكك لتقــرر مــن يدخل ومن يخرج منها... هواجسك محقة وأحلامــك لا وجود لي فيها فلِمَ الاستمرار إذاً في علاقــة لا مســتقبل لها... أردد ذلك بيني وبين نفسي ويجيبني الحــزن: هــذا كلام المنطق الذي تحتاجين إلى تصديقه وكأنك لا تعلمين

باعتقاده أن للعلاقات مدة وتنتهي، للأحاسيس فترة تشدد تزول مع الوقت، لربما ملّ وتعب فأراد تبرير انسحابه... فمن يحب يا صديقتي لا يرحل ولا يفارق حبيبه، فالحب لا عقل له ولا منطق يحكمه. وجنون المشاعر وحدها قانونه وعلينا أن نطيعها...

هذا هو حالي... حبك أحالني شبحاً، ريشةً في مهب العشق، أمشي حائرة، تائهة، وكأن قدميّ لا تطالان الأرض وأفكّر طوال الوقت: لماذا أعيش؟ لَمَ أنا هنا على قيد العذاب؟ وما همني من هذه الحياة كلها إن كان لا شيء قادراً على محو ذكراك من القلب والجسد..

لذا دعني اليوم أكتب عنا، دع العالم يقرأ كم تمنيتك، كم أحببتك، كم عشت الغرام بين ذراعيك، كم اشتقت إلى عينيك وكم عذبتني في هواها. دعني أكتب عن ضعفي أمامك واشتعالي معك، عن الموت الحاكم روحي في غيابك... علني أسلو عنك لأستقبل نسيانك...

أنت... يا أجمل ما صادفني يوماً، يا عشقاً أتاني دون موعد، وافتتاناً أحالني بركاناً متفجراً من المشاعر والإثارة... يا حالي التي عرفتها متأخرة وأحاسيسي التي امتلكتها على يديك... أحقاً أجدني اليوم قادرة على كتابة قصتنا... على البوح بأدق تفاصيلها وأعمق أسرارها وبموضوعية دون تحيز مني لنفسي ودون أن أظلمك... ولم

السؤال وأنا العالمة أنك مالك هذا القلب رغم رحيلــك وساحر الخيال... ساكن العقل رغم قسوتك على قلبـــي وقلبك... ونقطة الضعف التي تلازمني أينما كنت حــتى وأنا تحت سقف غيرك...

أنت... ويا للجنون الذي مسني لحظة التقيتــك... يا هياماً أحببته وعذاباً ارتضيته... يا قلبـــي السائر علــى قدمين أدعو لك اليوم وكل يوم... وأردّد... تمهّلْ... كنْ حذراً... رفقاً بـــي.. فأنا لن أحيا من دونك.

-1-

ودخلت غرفته، عينها على سريره، وسؤال حارق تكاد تنطقه: ترى كم امرأة مرت عليه قبلها؟ كم امرأة تاه عقلها على ملاءاته؟ أتراه قبّلهن كما بدأ بتقبيلها؟... لامس برقة أجسادهن؟... فك بيد خبيرة حمالات صدورهن... نام عاري الصدر فوقهن... أتراهن شعرن بما تشعر وهي هائمة بين ذراعيه؟ أتراهن خائنات مثلها؟ أهي خائنة؟ أهكذا تكون الخيانة؟ هل الحب خيانة؟ أن تحب وتشعر بمن تحب خيانة؟ وخيانة لمن؟ للقيود؟ للمجتمع؟ لمن... أليس هذا ما تمنته وحلمت به... أليست هي من قاومت وحاولت مراراً قتل ما ولد في قلبها... أليست هي من دخلت هذه الغرفة منذ أشهر وخرجت منها مرتجفة خوفاً من شدة الإحساس، من كبر الحب الذي انتابها... وما الذي تغير الآن... ولَمَ عادت والحال ما زال على حاله... لا وعود بينها وبينه ولا التزام... عالم من الأسئلة، من التساؤلات، من الحيرة، من القلق، من الخوف... من الغيرة مما حدث داخل هذه

المساحة الضيقة المسماة غرفة نومه ولا مكان للنوم فيها، من الحزن مما سيحدث بعد رحيلها وهي تفكر بأنها مجرد لحظات نزوة يمر بها مع امرأة حاصرت عالمه منذ أشهر لتنال حبه، وكلما اقتربت من الهدف أدركت استحالة مطلبها ورفضه التام لأي علاقة معها... مع امرأة منتهية الصلاحية للحياة... للحب كما حاول يوماً ولا يزال أن يفهمها وكيف لا وهي الزوجة رغم وقف التنفيذ المتكرر والأم لثلاثة أولاد والصديقة للمئات من الصديقات وسيدة الأعمال التي تدير بنجاح مع أخيها مشاريعهما الخاصة... سنوات مرت وهي على حالها... ظاهرها يضج بالنشاط والحيوية وداخلها إنسان يحيا على هامش المشاعر، لا حب، لا غيرة، لا كره، لا حقد، لا رغبة، لا إحساس ولِمَ الإحساس؟ ولمن؟ وما المفيد منه؟

إلى أن التقت بعقله... كانت بصدد التحضير لمجموعة جديدة، من الصور لآخر مشروع قامت به، بناء على طلب مجلة الديكور التي تعرض لها تصاميمها كل شهر، عندما اخبروها في الشركة عنه وعن مدى حرفية صوره وجمالها... اعترضت لأنها لا تعرفه فدعاها أخوها لدخول صفحة أعماله على أحد مواقع التواصل الاجتماعي قبل اتخاذ قرارها.

في البدء رأت صورته؛ شاب حنطي البشرة، في أوائل الثلاثينات من عمره، ذو نظرة حادة عسلية هي أول ما لفتها

في وجهه... ثم انتقلت إلى أعماله للتمعّن بها فبـــهرها مـــا شاهدته... بعد ذلك قرأت له فانتابها الفضول أكثر تجاهه... هذا الإنسان الغريب عن كل محيطها، الواثـــق ممـــا يقولـــه والشجاع في مخالفة السائد من الآراء بدأ يعجبها فقـــررت متابعته وبات إلقاء النظرة يومياً علـــى مـــا يطرحـــه مـــن إشكاليات ويبديه من آراء من واجباتها المحببة التي اختارتهـــا بإرادتها.

أحست بمشاعر غريبة تزحف نحوهـــا... شـــيء مـــا يتحرك بداخلها... فرح مبهم كلما رأت اسمـــه أمامهـــا، فأعلنت موافقتها على العمل معه. طلبت الاتصال به وتحديد موعد للقاء الذي تم في مكتبها بوجـــود معاونهـــا الخـــاص واقتصر على التعارف الرسمي... سلام بارد باليد، نظـــرات فضولية من قبلها، خفقات قلب لم تفهم ســـببها، وجديـــة ودخول مباشر في صلب الموضوع من قبله... ساعة مضت قبل أن يتم الاتفاق فيما بينهما على التعاون.

مر الوقت وهي على حالها... إعجـــاب متزايـــد... تعليقات على مواقع التواصل وأحاديث مختصرة... أســـباب واهية للسلام عليه بين الحين والآخر... اتصالات متبادلـــة ورسائل لا أهمية لمضمونها ولكنها كانت تضج بالاهتمام... إلى أن بدأت في إحدى الليالي برواية قصتها له... بسرد كل ما مرّ عليها قبله من دون تفكير إن كـــان ينبغـــي البـــوح

بأسرارها لذلك الغريب أم لا... توقفت بعدها بأيام لشعورها بأنها أكثرت من الكلام وهي التي اعتادت التقشف في حديثها مع أي رجل تلقاه، وطرد أي معجب مفترض، ومنع أي شخص من الاقتراب من خفايا حياتها... فكّرت في أنه ربما استغرب كل هذه الثقة التي تمنحها إياه... لربما هي بالنسبة إليه مجرد عميل لا أكثر... ولكن لهفته لأحاديثهما أزالت شكوكها... كان يلتقيها كل ليلة وكأنهما على موعد دائم... موعد وعدهما الأيام به... حلم يتحقق...

أرادت بشدة، خلال تلك الفترة، أن تُعلمه بأنه الإنسان الذي انتظرته طويلاً كطفل حزين في يومه الدراسي الأول، يجلس في زاوية الصف وينتظر قدوم أهله لانتشاله مما هو فيه... تمنت مراراً أن تلقي برأسها على كتفه وتقول له إنها متعبة وإنه راحتها... إنها تحب عقله وضميره والصدق في حديثه حين بدأ بدوره يقص عليها ما مر عليه خلال طفولته، وعن أهله والفتيات اللواتي أحبهن وعن زوجته السابقة وعدم تفهمها له... قال ما لا يعترف به رجل... عرّى روحه أمامها عن طيب خاطر لدرجة أنه راسلها مرة ليعلن بأنه ليس أفضل من زوجها وبأنه قد أخطأ مراراً بحق زوجته وبأنها أيضاً لم تفهمه... أخبرها عن السبب المباشر لانفصاله عنها... وغير المباشر وهو كونه لم يحبها... فالحب

سفينة نجاة لحياتنا.. الحب هو ما يجعلنا نتحمل الآخر ونبرر له أفعاله ونتغاضى عن كل سيئ فيه، بل على العكس، نحب حتى ما ظننا أننا نكرهه ونحب كل ما يتعلق به مهما يكن.

تواصل يومي بدأ... شوق متبادل نما... راحة لا ريب فيها ولا مثيل لها شعر بها كل منهما تجاه الآخر... فسألت نفسها: أهذا هو الحب؟ هل تحبه؟ أمراهقة هي لتحب بهذه الطريقة إنساناً التقته مرة واحدة لمجرد ساعة، وما عدا ذلك اتصالات هاتفية ورسائل؟ أمجنونة لتحب رجلاً يصغرها بثلاثة أعوام؟ أين عقلها؟ كيف سمحت لكل ذلك بالحدوث معها؟ وهل للحب عمر؟ هل لأعوامنا التي عشناها من دونه أهمية؟ وما ذنب هذا القلب إن تسارعت دقاته وقرر الثورة عليها... إن كانت قد أغلقت بوجهه كل الأبواب طوال حياتها؟ ما ذنب هذا القلب إن كان هنالك إنسان قادر على كسر كل الحواجز والمستحيلات التي حصّنته بها؟ ما ذنبه إن قرر يوماً أن يحيا وينبض كبقية القلوب من حولها؟ إن أراد أن يعيد لها إنسانيتها التي لا تكتمل سوى بوجوده.

-2-

ما أذكره من طفولتي هو نومنا في العراء على شاطئ صور بأوامر من الإسرائيلي الذي أنذرنا بإخلاء منازلنا والتوجّه بحراً... مدينة بأكملها، بشيوخها ونسائها ورجالها وأطفالها، تلتحف الذل والجوع والعطش والقهر... العدو من خلفها والبحر من أمامها...

ما أذكره من طفولتي هو الفقر... المياه المقطوعة... الكهرباء التي لم نكن نراها إلا في ما ندر... الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982 والتي استطاعت خلاله القوات الإسرائيلية الاستيلاء على مدينتي في غضون ساعات، لتقوم بعدها بحصار بيروت لأسابيع قاصفة بشكل عشوائي غرب المدينة بحجة التخلص من الفدائيين التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية، فإذ بها تقتل كل شيء حتى المدنيين القابعين في منازلهم.

علت الصرخة... فتم التوصل لاتفاق يقضي بخروج المنظمة من لبنان تحت إشراف قوات أميركية وفرنسية

وإيطالية... في تلك الأجواء كانت حياتنا تسير: ملاحقة للقمة العيش خلال النهار واستماع لأخبار البلد الكارثية ليلاً... وتدهور الليرة وهي تعاني وتحتضر أمام الدولار... الذي كانت قيمته تعادل بضعة منها فإذ بها تتخطى الثلاثة آلاف ليرة كاملة... وبالتالي تدهور معاش أبي الموظف الحكومي إلى الحضيض.

ما أذكره خلال تلك الفترة أحاديث من حولي وجدالهم العميق حول منظمة التحرير الفلسطينية وكيف أنها سبب البلاء في بلادنا... منهم من كان يدافع عنها وعن حق الشعب الفلسطيني، الذي طرد من أرضه وشرد بقوة السلاح في جميع بقاع العالم، بالمقاومة، وتنظيم نفسه عسكرياً لاستعاده حقه المغتصب واسترجاع ما تبعثر من وطنه... ومنهم من كان ينتظر من يخلصه من هيمنتها - وإن كان الإسرائيلي - لأن العمليات التي كانت تشنها من أراضينا فتحت، على حد قولهم، باب جهنم علينا ولأن زعماء التنظيم باتوا زعماء في مدننا ونحن الضيوف عندهم ولأن أهالي بعض القرى قاموا برش الأرز على المحتل عله يخلّصهم من محتل آخر... سألت مرة: أَوَليس الإسرائيلي هو العدو؟! فكانت الإجابة إنهم جميعهم أعداء وإن النساء خلعن سابقاً الحلي التي تزينّ بها للتبرع للمنظمة الفلسطينية. وما الذي حدث... بتنا متاريس

بشرية لما سُمّي بحروب الآخرين على أرضنا (كما قال غسان تويني يوماً).

ما أذكره هو انتخاب بشير الجميل رئيساً للبنان واغتياله قبل تسلمه للرئاسة...

وما أذكره جيداً مجزرة صبرا وشاتيلا وقسوتها والصور المرعبة التي كانت تصلنا وتُروى أمامنا عن البشر الذين ذبحوا كالنعاج ونُكّل بهم وعلى يد من؟ إسرائيليين؟ لبنانيين؟ عرب؟ على يد من؟ ولمصلحة من؟ لم أكن أفهم ولا زلت حتى الآن... تلك الأحاديث المرعبة التي كنت أستمع إليها وأنا ابنة السابعة حرمتني النوم لفترة بعدها.

لاحقاً قام الرئيس المنتخب خلفاً لشقيقه، أمين الجميل باتفاقية 17 أيار التي نصت على انسحاب الإسرائيليين والسوريين من لبنان إلا أن ما حدث هو انسحاب الإسرائيليين من جبل الشوف ما أدى إلى المواجهة بين الدروز والمسيحيين وإلى معارك كان الخاسر الأكبر فيها لبنان وأبناءه وإلى بقاءِ القوات السورية على أراضينا والتي بدأت المشاركة في تسليح المقاومة الشيعية (حركة أمل) التي كانت تقوم بعملياتها ضد المحتل في الجنوب جنباً إلى جنب مع الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري بالإضافة إلى دخول إيران للبلد عبر إنشاء وزرع ودعم حزب إسلامي شيعي مقاوم ليكون (حزب الله). ولأسباب أجهل أبعادها

اقتتلا فيما بينهما ما أدى إلى شرخ في بيوتنـــا وعائلاتنـــا. كيف لا ونحن نقتل بعضنا بعضاً والعالم يـــدعم ويشـــجع ويشجب ويندد وأيضاً يساعد على ذلك.

ما أذكره من طفولتي هو محاولاتنا المميتة لشفط الهواء من نباريج المياه لاستحضارها بالقوة... هو بيع أمي لآخـــر قطعة ذهب لديها لشراء موتور صغير للكهرباء والســـبب: حضور فوازير رمضان لشريهان التي كنا نعشقها ولا يحلـــو لنا رمضان إلا لأجلها.

ما أذكره هو دمعة أبـــي التي كان يكابر كي لا أراها في عينيه وهو يفكر بمصاريف يومنا وبضآلة معاشه الذي لا يسد رمق فرد واحد، فكيف بعائلة مكونة من سبعة أفراد... ومن ذكرياتي التي لا تمحى محلات البالة (الثياب المستعملة) تلك التي شكّلت (مولات) ذلك الزمن وكانـــت الراعـــي الرسمي والخيار الأوحد لخطوط الموضة التي اعتدنا اتباعها في جميع المواسم باستثناء الأعياد (بالعيد لازم الـــولاد يلبســـوا جديد) كما كانت تجزم أمي وهي جالســـة وراء ماكينـــة الخياطة مقلدة الثياب التي كنا نراها في واجهات المحـــلات الفاخرة، والتي كنت أتباهى بها أمام صديقاتي لجمالها وبراعة صانعتها ورقي ذوقها، هي التي تربت في بيت يملؤه العـــز، وفي كنف أسرة علمتها التأنق والإسراف علـــى ترتيـــب مظهرها...

ما أذكره أننا كنا ننتظر خروجنا للسباحة والتنزه على الشاطئ لمرات معدودة خلال الصيف كنزهة عظيمة تكلفتها يمكن تحمّلها رغم سكننا في مدينة يحاصر البحر ثلاثة أرباعها...

ما أذكره هو كبرياء أمي التي علمتنا أن لا نتذمّر أمام الآخرين ونشكو حالنا، وأن الفقر ليس عيباً، وأن الأحوال ستكون يوماً ما أفضل، وأننا كنا سنعيش في رفاهية لولا الحرب الملعونة التي دمرت وهجرت وأتت على كل ما لدينا... ولكن ما أذكره أيضاً هو انهيارها مرة باكية على الأرض صارخة بأنها لم تعد تحتمل...

وكيف لا أخبرك عن مكتبة منزلنا بما تحمله من كتب وروايات أدمنتُ عليها منذ كنت في الحادية عشرة. وللحقيقة لا أدري إن كان عشقي للروايات بدأ في تلك الفترة لعدم وجود أي أمر آخر أمامي لألهو به، باستثناء مجلات الديكور التي كانت تستهويني وتشاكس خيالي، أو لأنني فعلاً أحببت القراءة أسوة بأبي المثقف الذي كان الكتاب لا يفارق يده والذي لم يعطه الزمن حقه... أبي الذي طحنته مرارة الحياة بدولابها الحجري كزيتون الجنوب لحظة عصره، وعادت لتشكّله على هيئة إنسان مجبول بالكرامة وعزة النفس... أبي الذي رفض الانصياع لدوامة الفساد وتعالى على كل المغريات التي صادفته ووقفت

بطريقه تجره للانحدار إلى قعر المرتشين ليعلو أمـــام نفســه وأمامنا إلى مصاف النبلاء... أبـــي الـــذي ناضـــل ضـــد الاحتلال... وأخفى المجاهدين مراراً في منزلنا... هو الـــذي أحب واحترم وساعد كل من قاوم المحتـــل دفاعـــاً عـــن شرفنا...

وما اذكره من فترة مراهقتي هو لهفتي لقراءة روايـــات عبير التي أعارتني صديقتي واحدة منها فبهرتني قصص الحب فيها... وكونها تحمل اسمي عنى لي الكثير وقتها فهجـــرت الأدب وجبران خليل جبران والمنفلـــوطي وطـــه حســـين والماغوط ونزار ودرويش و... ولم أعد أقرأ سوى روايات عبير ولم أعد أحلم سوى بالحب وبالفارس الذي سيأتي يوماً لأحبه ويحبني... فكان الصيف عبارة عن إجـــازة طويلـــة أقضيها مع أبطالي و(البزر الزغير) وأكياس الشـــيبس الـــتي تركت آثارها المدمرة على جسدي فبدوت مدورة منفوخة ممتلئة الجسد مثلها... لم أكن أعاني السمنة ولكني لم أكـــن بالفتاة الرشيقة، وكيف سأكون وأنا لا أبارح مكاني سوى لتأدية الأعمال البسيطة من تنظيـــف لـــلأواني أو مســـح للغبار... حسب برنامج تقسيم المهمات الذي وزعته أمـــي علينا نحن بناتها الثلاث، والتي كنت أقضيها على عجلة مـــن أمري لأعود إلى عالم الحب... إلى مملكة الـــوهم... أعـــد الأعوام وأتخايل نفسي ابنة الثامنة عشرة... عمر النضـــوج

والحب والاستقلال والجمال والكعب العـــالي والحواجــــب المشذبة وفرد الشعر وأدوات التجميل...

في تلك الفترة بدأ الحديث بأن الحرب الأهلية علـــى وشك الانتهاء وبأن هنالك اتفاق تم في الطـــائف وهـــو في طريقه للتطبيق... أيامها انتخب رينيه معوض رئيساً للـــبلاد مما دفع صديقتي للقول (يلعن هالقصة هلق إذا مشي حـــال البلد بيعملولنا امتحانات رسمية للبريفيه) فتشـــاجرنا لأنـــي كنت من المدافعين والمرحبين والحالمين كأية مراهقة بحقنـــا بالعيش بطمأنينة بعيداً عن الخوف وشبح الحروب المســـيطر إلا أن الحلم تبخر بعد عدة أيام لأزورها غاضبة ومعلنة (كله منك فاولتي عليه للزلمي قاموا قتلوه) وبعد اغتياله تم انتخاب الياس الهراوي رئيساً فيما لجأ الجنرال عون للسفارة الفرنسية وتم تكريس انتشار القوات السورية وسيطرتها على البلد...

في تلك الفترة أيضاً هاجر أخي الأكبر للعمل في أفريقيا بعد رؤيته للأموال التي بدأ صديقه بإرسالها لأهله وتشجيعه له على القيام بخطوة مماثلة... هاجر بعد مشاحنات استمرت لعدة شهور بين أبـــي الطامح لرؤيته طبيباً ناجحـــاً وأمـــي الحاسمة بأن لا مستقبل له في لبنان، ولا حل أمامنا لتحسين أوضاعنا المعيشية سوى بعمله في أفريقيا عند أقرباء لنـــا... وبأن دراسته ستكلف ميزانية المنزل ما لا طاقة لنـــا عليـــه والشهادة التي سينالها لن تفيده، بل سنعلقها علـــى حـــائط

الصالون لنمسح عنها الغبار كل يوم ولا شيء آخر لنفعله بها... استسلمنا جميعنا للواقع، واستدان أبي المال من جارنا "أبو خليل" صاحب فرن الخبز على الحطب الذي كان وضعه المادي على ما يرام كغيره من أصحاب الأفران، فالطحين كان مدعوماً من قبل الدولة، ليستطيع أخي استخراج جواز السفر ولنقوم نحن الأفواه الجائعة بلمسه بإعجاب... هذا الدفتر الصغير الذي تزينه الأرزة التي لم نكن قد شاهدناها سوى بالصور وعلى العلم... هذا الدفتر... الخطوة الأولى على طريق المستقبل... الحلم. كما استدان أبي أيضاً من عمي "أبو حسن" مبلغاً آخر لشراء بطاقة السفر وبعض الثياب الجديدة للفارس ابن التاسعة عشر، الراحل إلى الغربة.

بعد ذلك أتت الرحلة المنشودة إلى المطار لوداعه... وكانت المرة الأولى التي نرى فيها، أنا وإخوتي، الطائرات ونلمح من بعيد المضيفات بثيابهن الأنيقة... عيوننا التي كحلها الحرمان والألم كانت تنظر بخجل إلى كل ما حولها... عيون خائفة بأن يلاحظ المارة جهلها بما يحيط بها، عيون تشعر بالإثارة والفرح الغامض وهي تستكشف وترمي بما تحفظه للذاكرة القابعة في الخلف لتقص على أصحابها مغامراتها في مطار بيروت. دقت الساعة ليبدأ مسلسل الدموع حين احتضنت أمي ولدها... بكرها لآخر مرة...

مسلسل استمر لعدة شهور قبل أن تعتاد غيابه وتحيا على الرسائل التي كانت تصلنا بين الحين والآخر منه مع مبلغ من المال، والتلفونات التي كنا نتصل به بواسطتها من السنترال القريب من المنزل، وصراخنا لكي يسمع ما نقول في الجهة الأخرى من العالم الذي بات يحتضنه...

بعد عام من هجرة عماد دخل بيتنا الصهر الأول... العريس الذي أتت به جارتنا أم محمد لأختي عليا والذي قامت بحملة دعائية مكثفة له... (أيمن) العريس المقتدر الذي ستعيش معه ابنة الحلال مرفهة لا ينقصها شيء... المقاول ابن العائلة الذي سيحميها من غدر الزمن.. فهو لم يكن موظفاً ليعاني ما نعانيه... فعادت المشاحنات لتملأ المنزل مرة أخرى بين أبي الرافض لترك ابنته لدراستها وإجهاض حلم آخر لديه ببناء عائلة مثقفة واعية حاملة للواء العلم والتفوق... وبين أمي التي كانت ترى أن عليا ابنة السابعة عشرة ستترك المدرسة لتصبح عروساً جميلة ترتدي كل ما تتمناه وما حرمت منه... ستصبح امرأة جميلة تغار منها النساء.. سيكون لها حليٌ من ذهب والماس ولن تضطر إلى بيعها... ستمتلك سيارة خاصة بها وبيتاً جميلاً بأثاثٍ أنيق لا رائحة للعفونة فيه... ولربما كان مطلاً على البحر... عليا ستسافر وسترتاد المطاعم الفاخرة لتأكل وجبات دسمة. ولن يقتصر طعامها بعد اليوم على البطاطا المسلوقة والمجدرة

وبرغل البندورة وخلافه مما كان يشكل لائحة الطعام الأساسية في منزلنا... إنه حلم آخر بعد سفر عماد سيتحقق... نافذة أخرى على العالم الجميل... على المجهول. وكالعادة استسلم أبي لدموع أمي وأحلامها الواقعية بالغد... استسلم لقسوة الحاضر الذي كان يعيشه وقلة حيلته أمام طاحونة الزمن القاسية.

طلينا المنزل بأموال عماد المرسلة من أفريقيا... نظفنا ورتبنا صالوننا الوحيد المكون من طقم خشبي شرقي التصميم، مقاعده ومسانده من اللون الزيتي، وخاطت أمي ستارة استبدلتها بالقديمة للشباك من اللون نفسه وقمنا باستعارة الصواني وفناجين القهوة الجديدة من بيت أم محمد، أو على الأصح هي من زودتنا بها لنتشرف أمام العريس... وأتى اليوم الموعود...

سمحت أمي لعليا بانتعال الكعب العالي وارتداء التنورة الحمراء القصيرة وبوضع أحمر الخدود ولمسة من اللون الزهري على شفتيها فبدت كأميرة بقامتها الممشوقة وعينيها اللوزيتين وشعرها الأسود الطويل... هذا الجمال كان له المفعول السحري على الفارس القادم بسيارته الفارهة فاختطفها بلمح البصر وبإجراءات سريعة أرهقت العائلة. فرغم تكفله بجميع المصاريف الخاصة بالخطبة وكتب الكتاب والعرس الذي أقيم في أجمل صالات المدينة إلا أنه

كان علينا شراء الثياب الجديدة لحفلة العرس والمال الـــذي أرسله عماد استُعمل في صيانة المنزل... و لم يكن أمام أمـــي سوى العودة إلى ماكينة الخياطة لإعـــداد فســـاتين تليـــق بالمناسبة، لي أنا المراهقة ابنة الرابعة عشرة، ولأختي عايـــدة التي كانت على وشك إتمام عامها الحادي عشر، ولأخـــي عيسى آخر العنقود المدلل ابن العاشرة، ولها هي الأم الـــتي اعتادت إطعامنا قبل أن تلمس طعامها وكســـوتنا قبـــل أن ترتدي ثيابها... تلك الصابرة التي أفنت عمرها في خدمتنا.

-3-

هي ليلة من ليالي الصيف الحارة... ليلة دق الفرح بابها ليكون ضيفها وصديقها وحبيبها... ليلة سألها عن إحساسها نحوه وأصر على معرفته... ليلة صارحته خلالها بكل ما التبس عليها من مشاعر تجاهه...

ليلة كانت نتيجتها أن قالت له: "أحبك".

ليجيبها بالكلمة ذاتها: "أحبك".

لتعود وتكرر له: "أحبك".

ليعيد لها: "أحبك".

لتقول من جديد: "أحبك".

ليعلن لها: "مجنونة أنت".

فتؤكد له: "بك".

ليلة تراقصت على أنغام كلماته دقات قلبها وهو يغازل ويقول كم يريدها... وكم يحلم بلمسها وتقبيلها... بترك آثاره على كل جزء من روحها وجسدها... ليلة بكت فيها فرحاً فهي عاشقة وهناك من

يبادلها هذا العشق... هي امرأة مكتملة الحواس وهنـــاك رجل يرغب فيها وترغب فيه... هـــي إنســـان يُحِـــب ويُحَب.

هي ليلة استسلمت فيها لقلبها... تناســـت عقلـــها ونفته خارج حدود ذاتها... لتستيقظ في اليوم التالي على برودة مشاعره... فكرت أنها مخطئة فلربما هو مشـــغول ولاحقاً سيرد على اتصالاتها... عادت لتكتب له، لتحدثه عما فعله حبه بها فليلة واحدة لا تكفي للتعبير عما يعتمر في قلبها... غمرته بفيض من عبارات العشق التي لم تظن يوماً بأنها قادرة على قولها... كل ذلك وبرودتـــه علـــى حالها... وغيابه لا عذر له، هو الذي اعتاد التواصل معها طوال النهار... حاولت تكذيب حدسها... إلى أن هاتفها ليبدأ حديثه بالاعتذار عن ليلة الأمس وبالتراجع عما بدر منه من تجاوز لحدود الصداقة وبالقول إنه قد اخطأ بما باح لها... فهي امرأة متزوجة ومثلها لا مجال لعلاقة معهـــا... ولا قدرة لها على مجاراته في نمـــط حياتـــه... أخبرهـــا بالحرف: "عادة في العلاقات هنالك اتصالات مستمرة... لقاءات مع الأصدقاء... سهرات خارج المنزل... هـــدايا متبادلة... إجازات برفقـــة الآخـــر... وخـــتم كلامـــه بسؤال: "هل بإمكاننا القيام بذلك؟". ليجيـــب نفســـه: "بالتأكيد لا...".

صمتت و لم ترد... أخرسها الألم ولكنـــها بالتأكيـــد فهمت، وبالتأكيد علمت بأنها امرأة لا حق لها بالحـــب وإن أحبت فلتصمت...

شكرت ربها ألف مرة لكونه لم يرَ دموعها... لم يكن أمامها ليشعر بما حل بها، ليشاهد تكورها على نفسها وهي تتمنى لو تعود جنيناً لم يخرج من رحم أمه ليواجه كل هـــذا الحزن الذي انتابها، وهو يعلن انسحابه كحبيب من حياتهـــا على أن يبقى الصديق المقرب الذي كانه... صـــديق مـــع مشاعر وعلاقة لا اسم ولا صفة محددة لها، ولكن الأهـــم بالنسبة إليه أنها لا تُدعى حباً...

ويا أيها الفرح عذراً لقد نسيت أنك مجرّد ضيف وأن الضيف لا يستوطن... والحزن حين يختار امرأة ليسكنها لا يسأل ولا يستأذن إن كانت تريده أو ترغب فيه، فهو القاهر الذي لا يُقهر والمحتل الذي لا يرحم ولا يرحل، وها هـــو اليوم قد أرسل جلاده لتأديبها كي لا تظن أنها ستسعد يوماً.

-4-

حل الربيع الثالث دون عماد... كنا نتصل به أسبوعياً من المنزل عبر الهاتف الذي امتلكناه بأمواله لنطمئن عليه ونرجوه لأخذ إجازة والقدوم لزيارتنا...

أما عليا التي سكنت مدينة بيروت بعد زواجها فلم نكن نراها إلا في عطلة نهاية الأسبوع التي اعتادت أن تقضيها مع زوجها في الجنوب. كانت تخصص نهار السبت لتمضيه معنا... فتوقظنا أمي باكراً لنساعدها في إعداد الطعام والتفنن في تقديم الأطباق الشهية التي تحبها، وكيف لا والشوق للرضيع الذي تحمله على يديها يسيطر علينا جميعاً... ولكننا ما إن نبدأ بالعمل حتى تفر عايدة هاربة إلى الغرفة بحجة جاهزة ودائمة وهي الدراسة.

عيسى الذي أتم عامة الثالث عشر كان يقوم بحلاقة شعر وجهه يومياً ليزداد خشونة وكثافة بناء على نصيحة صديقه...

أم محمد جارتنا العزيزة (الباب بالباب) والتي كـــان لا يحلو يومنا دون وجودها لشرب القهوة وإسماعنا أخبار الحي التي تلاحقها بأدق تفاصيلها (فلان تزوج على زوجته) تزم بفمها الصغير وتشد بحجابها الذي وضعته على رأسها بعـــد انتشار موجة الإيمان في الثمانينات، لتغطي شعرها بشـــكل جيد وتقول "ايه اشتغل هلأ وصار معه قرشين شـــم ريحـــة باطه صار بدو عروس جديدة" وفلانة حامل "ويا لطيف ما بتشبع ولاد كل ما يجي جوزا من السفر بتطز ولد" وأخرى ستتزوج هذا الصيف و... تروى لنا كل ذلك بخفة دمها... هي المرأة التي توفي زوجها إثر مرض عضال تاركاً لها ثلاثة محلات كانت تشكل منجرته وباب رزقة فسرّحت العمال بعد رحيله، وقامت بتأجير محلين وحولت الثالث إلى دكان سمانة لتعيل نفسها ووحيدها... المرأة التي وجدت بها أمـــي خير أخت بعد مقاطعة أهلها لها لزواجها من أبـــي الذي تم الحكم عليه، واعتباره من منزلة اجتماعية أقل شأناً منهم.

* * *

اتصل بنا عماد ليعلمنا بموعد قدومـــه في 27 تمـــوز... علت الابتسامة وجه أبـــي... بكت أمي فرحاً وهي لم ترَه بعد... بدأنا أنا وإخوتي بإعداد لائحة الهـــدايا الـــتي عليـــه شراؤها لنا عند مجيئه... سنذهب إلى المطار لاســـتقباله...

سنعد له الملوخية التي يعشقها... سينام في سرير عيسى الذي سيفترش الأرض ترحيباً بالقادم من الغربة... بفارغ الصبر كنا نعد الأيام وننتظر لنكحل أعيننا بوجهه الأسمر الوسيم. ولكن ما أعمى نظرنا قبلها بيومين هو صواريخ العدو الإسرائيلي القادمة نحونا بعملية أسماها (تصفية الحساب) أراد من خلالها القضاء على حزب الله ومقاومته المسلحة التي باتت تشكل خطراً على أمنه.

ارتدينا ثيابنا على عجل... حمل أبي حقيبة الطوارئ التي تحوي بداخلها أوراقنا الثبوتية وكل ما نملكه من مستندات رسمية... أمرتنا أمي بإحضار ما نستطيعه من أغطية ومخدات سنحتاج إليها... التقينا على الدرج بأم محمد التي أقفلت دكانها وركضت لإحضار حاجياتها والالتحاق بنا هي وابنها... صاعدة دون التفات لنا مرددة لنفسها "عملوها ولاد الحرام الإسرائيلية... كان قلبي حاسس حسيت بدو يصير شي...".

لتجيبها أمي: "هلأ بسرعة ضبي أغراضك وتعي وبلا أحاسيسك".

التقينا في الشارع أفراد الحي الهاربين في اتجاهات عدة وبأبي خليل وعائلته الذي نظر إلى أبي ونحن نسير بكل ما نحمله والخوف مرتسم على وجوهنا مردداً: "سترك يا الله، في الشهر الماضي قتل لهم خمسة... ولكني لم أتوقع

أن يكون رد الفعل قوياً هكذا". في إشارة منه إلى الجنود الخمسة الذين قتلوا جراء عمليات المقاومة في الشهر السابق... فرد عليه أبي: "خائفون من الحزب. اغتالوا السيد عباس ولم يستطيعوا كسر ظهر المقاومة أو تقليص عملياتها...". ثم أدار رأسه نحونا: "هيا يا أولاد تحركوا".

التفت أبو خليل أيضاً إلى زوجته طالباً منها الإسراع في قطع الطريق فرفعت عباءتها السوداء لتتمكن من الحركة وأخذت تهرول، نظر إليها بامتعاض ولكن لا الوقت ولا الظروف كانا مناسبين للومها أو تأنيبها... وعاد ليقول لأبي: "إذا تطور الوضع علينا الخروج من صور".

لتجيبه أمي: "إنشالله لأ يا أبو خليل".

بكل قسوته ووحشيته عاد شبح الحرب ليسيطر على الأجواء لسبعة أيام متواصلة... وكأنه قد غاب... وكأننا قد نسينا... اتصل بنا عماد للاطمئنان ولم نرد وكيف سنرد عليه ونحن نختبئ في ملجأ البناية المجاورة لنا...

-5-

"اقترب منّي... قبّلني... دعني أشعر بشفتيك، دعني ألمس وجهك، أريد أن التصق بك... حلمت مراراً بوجودي في غرفة واحدة معك من دون قيد أو عين تراقبنا... فلِمَ لا تقترب؟ أيعقل أنني واهمة إلى هذا الحد؟ وأنك لا ترغب فيّ؟ ما سبب ارتباكك إذن؟ ورجفة يديك؟ ما سبب الوله الصارخ من عينيك... أتعلم أنها المرة الأولى التي أدخل بها إلى شقة رجل لأجلس معه على انفراد في موعد لا صفة محددة له؟ وأي رجل؟... من أحبه. أيحق لك أن تفعل كل هذا بي؟ أيحق لك أن تعلق قلبي بك وتبتعد؟... فنجان القهوة قد شربته والوقت الذي سرقته لألقاك قد شارف على نهايته... وأنت الصامت المصر على صمته".

حدثت نفسها بكل ذلك وهي تنظر إليه والحديث بينهما مستمر عن مواضيع لا تهم أحداً... إلى أن وقفت وقررت الرحيل... نظر إليها مطولاً فذاب قلبها وسال حبراً

أحمر داخل روحها... أخيراً قرر إنهاء عذابها.. أخيراً اقترب منها... غمرها بحنان وهدوء ورقة وقبّلها على خدها ثم مال ليلتقط شفتيها... فتوقف الزمن عند تلك اللحظة، وتوقفت الأرض عن الدوران، وتوقف الخلق عن الحركة، وصمت الكون بمن فيه كي يستمع لأنغام بدأت دقات قلبها بعزفها... حملها وسار بها نحو غرفته. حاولت التملص منه لتسير بجانبه فلم يعطها فرصة لذلك... كانت تريد أن تقول له لا تتعب نفسك يكفي أن تشير لي برمشك لأركض خلفك، لأتبعك إلى حيث تريد وفي أي مكان ومتى ترغب في ذلك...

أنزلها على سريره وهو مستمر بتقبيلها... نام بجسده فوقها وضاع ما تبقى من وعي لديها... أي حب هذا الذي يسكنها؟ أي مشاعر هذه التي تغمرها؟ أيعلم بكل ما يحيي بها من لمساته؟ أيمكن أن يكون لإنسان قدرة السيطرة على آخر إلى هذا الحد وهو مستسلم وراغب وينتظر المزيد ويريد أن يصرخ: أريد بعد وأكثر وأكثر... كانت تشعر به... بصدره وهو يعلو وينخفض معها... تسمع دقات قلبه العنيفة وهو ملتصق بها... تحبه هي بكل خلية في جسدها، بكل مشاعرها وقلبها وعقلها... سألته إن كان يحبها... احتاجت بشدة لأن يهمس بالحب في أذنها، لأن يسحر ما تبقى من حواسها، ليقول ما في قلبه ولو كان يريد التراجع

في اليوم التالي مجدداً... ولكنه غمرها مردداً بأنه لا يرغب في أخذها إلى مكان لن تستطيع العودة منه... لم يشفق علـــى جسدها المرتجف بين يديه... لم يشفق حتى على نفسه... لم يعلم بأنها هي نفسها لا تصدق ما يحدث معها... لا تصدق بأنها قادرة على الرغبة في رجل إلى هذه الدرجة... علـــى حب رجل والشوق إليه وهي بين يديه... وبأنها تحتاج لمـــن يؤكد لها أنها ليست وحدها التائهة في هـــذا الجنـــون، وأن هنالك من يشاركها عالم المشاعر الغريبة التي دخلتـــه ولـــو لمجرد لحظات عابرة من حياته... فآثرت تركه والانصـــراف من منزله...

-6-

زائر غير متوقع دق بابنا في أحد أيام الشتاء العاصفة...

فتحت له عايدة ليقول:

- مساء الخير.
- مساء النور.
- أَوَليس هذا منزل مريم؟...
- مريم! باستغراب... لتستدرك بعدها: آه تقصد أم عماد... أمي.
- نعم.
- لحظة من فضلك...

خرجت من غرفتي وكذلك عيسى بعد أن نادت عايدة على أمنا التي كانت منهمكة بإعداد الطعام: "هنالك رجل يريد أن يراكِ...".

بفستانها الأزرق البسيط وشعرها المربوط إلى الخلف ووجهها الخالي من مساحيق التجميل وقفت أمامه والذهول

يطغى على ملامحها... نظر إليها وكأنه غير مصدق... هذا الغريب الذي كان يرتدي معطفاً طويلاً أسود فوق بدلة من اللون ذاته وربطة عنق نبيذية مع قميص أبيض... الأربعيني ذو اللحية الكثيفة والشعر الأسود الذي خطّه الشيب المصفف بعناية... الفارع الطول والوسيم... بادر بالقول: "اشتقت إليك".

أمي بصوت مرتجف: "لا أظن ذلك... كدت أنسى وجهك... ما الذي أتى بك؟!".

هو بارتباك: "الجو بارد... هل بإمكاني الدخول؟"

أشارت له برأسها ليدخل وبيدها لترشده إلى الصالون فدخلا، وأقفلت الباب خلفهما

انتابنا الفضول نحن الثلاثة. وقفنا صامتين نسترق السمع لمعرفة ما الذي يجري...

- لقد توفي... وأمي تريد أن تراك.
- لقد توفي بالنسبة إليّ منذ عشرين عاماً، منذ اليوم الذي التجأت فيه إليكم وعلى يدي عماد لعلّ قلبه يلين، لعله يحن أمام حفيده ولكنه كان أقسى مما توقعت...
- تعلمين موقف أمي حينها... أمام جبروته لم يكن بيدها حيلة... أمك منذ ذلك الوقت مريضة

وتعيش أزمات نفسية متتاليـــة... بالإضـــافة إلى ظروف الحـــرب وســـفرنا معظـــم الوقـــت إلى الخارج... كل ذلك حال دون أن نراك.

- لا تبرر أرجوك...

شعرنا بها تتكلم والغصة في صوتها وكأنها على وشك البكاء... وكأنها تعود بالذاكرة إلى الماضي البعيد إلى اليـــوم الذي خيرها فيه والدها بين زواجها من أبـــي، الذي التقته في سنتها الجامعية الأولى في بيروت عندما كان على وشك التخرج، المعدم الذي لم يكن قد بدأ العمل بعد، ونفيها من حضنه، وبين الزواج من ابن عمها بكل ما يملكه والبقاء في كنف العائلة... فاختارت أن لا تستســـلم وأن لا تـــرهن نفسها للمال.

- سامحينا... سامحيني أنا بالذات لقد كنت صغيراً و لم أستطع أن أعصي له أمراً. ولا تنسي أنـــك عنـــد هروبك من المنزل وزواجك لم تكن الحرب قـــد بدأت، وكانت معارضته على أشدها فكيف بربك كان سيتقبل الوضع بعد ما حدث... وبعد الذبح على الهوية وتقسيم بيروت...
- هذا كله لا يبرر أنك لم تستطع حتى أن تســـأل لتطمئن على أختك والحرب فوق رأســـها ورأس أطفالها... لقد كنت أقرب الناس إليّ...

- كنت في الخارج للدراسة وأنت تعلمين ذلك، حتى إنني لم أره. وكل ما عرفته عنه كان من رسائلك التي توقفت فجأة لأعلم بعدها بتركك المنـــزل... ولم أعرف لك طريقاً.

بغضب بان في صوتها قالت: "آه... عذر آخر أكبر من ذنب وكأن صور (نيويورك) وكأنها كبيرة إلى درجة أنك إن سألت عنا لن تجدنا... أخبرني إذن كيف وجدتني اليوم".

وبانفعال أجابها: "وما أدراني أنـــك ســكنت هـــذه المدينة... لم أعرف أن زوجك من هنا سوى منذ أيام عندما أخبرتني أمي بذلك على أمل أن نجدك".

ساد الصمت وسمعناها تنتحب بهدوء... وكأن هـــم السنين الذي أنهك كاهلها بان فجأة أمامها... ولا بد أنـــه حاول أن يغمرها لقولها: "ابتعد عني أرجوك".

هو: "لا لن ابتعد... سأرحل الآن قالها بعد أن وضـــع بطاقته على الطاولة أمامها وهذا رقـــم هاتفنـــا، نحـــن في انتظارك... أعلم أن الصدمة كبيرة عليك... ولكنني آمل أن تعود الأمور إلى مجاريها... على الأقل لتنالي نصـــيبك مـــن الإرث".

كان على وشك الخروج ممسكاً بمقبض باب الصالون عندما سألته: "جورج... هل هي بخير؟".

فأجابها: "متعبة".

فتح الباب... وجدنا أمامه... نظر مطـــولاً إلينـــا.. ورحل من دون أن يتكلم.

* * *

عاد أبــــي في المساء لتخبره أمي بما جرى... ســـألته رأيه في الوضع المستجد فأجابها:

- القرار لك.
- لا تقل لي ذلك أريد رأيك وبكل صراحة.
- القرار لك. إنهم أهلك وأنت حرة.
- لِمَ الوجوم على وجهك إذن وكأنك غير ســـعيد بذلك.
- الأمر ليس له علاقة بالسعادة أو الحزن... يهمـــني أن تكوني على علاقة طيبة بهم ولكننا لسنا بحاجة لأموالهم. لقد عشنا عمرنا بكرامة و لم نلجأ إليهم رغم كل الأزمات التي مررنا بها... أنـــا الآن لا أريد أن يدخل مالهم بيتي..
- لكنه مالي.. وليس مالهم. حقي الشـــرعي فأنـــا ابنتهم.
- الابنة لا تُطرد... (بانفعال) أم لربما أنت نادمة على زواجك بـــي... لربما كنت نادمة طوال الوقـــت

وبسبب الأولاد لم ترحلي... أو لربما أنتابك الخوف من طردهم مجدداً لك إن عدت... لربما لم يعد هنالك حب بل مجرد واجبات وحياة علينا أن نكملها... وها قد أتت الفرصة لك... كان يتكلم ويشير بيديه في كل الاتجاهات وقد بدا صوته يعلو في وجهها...

صمتت باكية أمام هجومه الذي جرح مشاعرها... صدمها رد فعله العنيف وأحزنها...

واستمر الصمت في المنزل ثلاثة أيام... وكأننا قد أعلنا الحداد... كنا نتكلم بحذر مع كل منهما لعلمنا أن المزاج معكر ولا مجال للنقاش بأي أمر.

وكالعادة هاتفنا أنا وعايدة عليا في بيروت لنقص عليها أخبار المنزل... أما عماد الذي كان قد ألغى زيارته إلى لبنان لأجل غير مسمى فلم يعلق كثيراً على الأمر وكل ما قاله "أبي على حق".

عيسى بدأ بسؤالنا: "هل سنصبح من الأغنياء؟ أمكما يا بنات غنية... كان فرحاً جداً".

وحين قلت له إننا لن نحصل على شيء بسبب رفض أبي أجابني ضاحكاً:

- أيتها البلهاء سيغير رأيه، ألا تدرين كم يحبها... إن أرادت أمراً فلا بد أنه سيكون.

-7-

أرادت أن تستعيد لحظاتها معه، أن تشعر للمرة الثانية بقبلته... أرادت أن تكمل ما بدأته وفرت هاربة من متابعته... أرادت أن تخبره عن شوقها الدائم إليه وكيف بقبلة أحالها من شبه إنسان إلى امرأة مكتملة الأنوثة... أرادت أن تعلمه أنها لم تشعر طوال حياتها بما شعرت به معه لمجرد أنه قبلها... غمرها... لمجرد أنه رغب فيها... احتارت ماذا تفعل... انتظرت أن يبادر... تمنت أن يقول إنه مشتاق ويريد أن يراها ولكنه لم يفعل... وأمام سطوة مشاعرها واندفاعها ورغم شعورها بالهوان أمام نفسها... قرر الشوق أن ينوب عنها... أن يتكلم بلسانها... أن يستعير كلماتها ويرسل إليه... الرد كان حاسماً فهو المشغول دائماً... وبماذا؟ بموعد مع أخرى لممارسة إحدى الهوايات، تلك الأخرى التي كان قد أخبرها عنها في بداية تعارفهما عندما سألته عن وجود أي امرأة في حياته فأجاب أنه على علاقة غير جدية مع إحداهن... علاقة كما وصفها لا حب فيها

بل تفاهم، فكلاهما يعلم ما يريده من الآخر ويتقبل الوضع على حاله...

اعترضت وأسمعته كلمات قاسية لا تعلم كيف نطقت بها، ولكنه أصر على الذهاب في موعده واضعاً النقاط على الحروف أمامها لتعلم ولتفهم وتتذكر بأنها مجرد صديقة، وما حدث بينهما عندما جمعهما القدر في بيته مرة، بدلاً من المقاهي التي اعتادا اللقاء فيها، مجرد لحظات عابرة، وبأنها لا صفة لها لتحاسب وترغب وتطلب... لا حق لها برؤيته متى استطاعت أو سمحت ظروفها بذلك... ذلك اليوم قد مرّ ولن يغيّر شيئاً من طبيعة العلاقة التي تجمعهما.. ورغم ذلك لم تستسلم فهاتفته، ولكنه لم يحن.

ذل ما بعده ذل أن تترجّى إنساناً لتراه... أن يخبرك أن مواعيد اللهو والخيل أهم بدرجات من مشاعرك، من شوقك إليه، من حبك التافه الذي تلاحقه به... باكية كانت تقود سيارتها وتحادث نفسها كمجنونة... تنتحب كأم فقدت وليدها... حاولت أن تقاطعه بعدها... قرار ذهب أدراج الرياح بعد ساعات... فبدأت كلامها معه بالاعتذار عمّا بدر منها من تصرفات حمقاء وكلام متهور باح به الغضب دون أن يراجعها... تعتذر لأنها أفسدت عليه يومه بإلحاحها على رؤيته... تعتذر لأنها تحبه أكثر مما تعلم وأكثر مما يستحق.

وعلى ذكرى قبلة وغمرة ظنت وقتها بأنها لن تتكرر، عادت لتحيا... امرأة عذّبها الحب... شوّه قلبها من تحب... نزل بكل قسوته على روحها كفلاح أراد أن يشذب شجرة فقطعها ورماها للنيران وجلس يتدفأ على وهـــج اشـــتعال وجعها.

-8-

- لقد رأيتك، لا تنكري الأمر.
- حقاً؟ وما الذي رأيته؟
- كان يسير معك في الملعب.
- وما المشكلة في ذلك؟ إنه زميلي، أم نسيت؟ لقد منعتني من محادثة أحمد وقاطعته مرغمة لأرضيك، والآن تتحدث عن علي ما الأمر؟ ألا يحق لي أن أحادث زملائي؟ وماذا عنك؟
- لا تغيري الموضوع... كان يحاول لمس يدك.
- لا، لم يحدث؟ أنت تتوهم. كان يناولني الدفتر... أنت حقا إنسان مجنون... يا إلهي لم أعد احتملك...

ركضت عايدة بغضب صاعدة الدرج بعد شجارها مع محمد... دخلت المنزل متوجهة مباشرة إلى الغرفة فنادت عليها أمي لتأتي وتتناول الغداء معنا، وهي تؤنبها على تصرفها... جلست بجانبي هامسة: "لم أعد أريده، إنه لا

يُطاق وغيرته بدأت تصيبني بالجنون".

- وما الذي يجبرك على احتماله؟ لا تكلميه.

وكانت تشير إلى ابن جارتنا أم محمد الذي كان يماثلني العمر ويدرس معي في الصف ذاته... بعد لحظات عــادت لتهمس:

- ولكني أحبه.
- أي حب هذا وأنت في الرابعة عشـرة وهـو لم يكمل المدرسة بعد؟ أنتما ولدان.
- لا، لسنا ولدين وسترين... أنت فقط المتحجـرة القلب ولا تعرفين ما هـو الحـب. انظـري إلى نفسك، أنتِ لم تحبـي حتى الآن وكأن لا مشاعر لك.
- عايدة، ما بك؟ منذ لحظات كنت تشكين منـه والآن أصبح الهجوم موجّهـاً إليّ... مـا الـذي أصابك... لقد انتقلت إلى الدفاع عنه.
- أنا لا أدافع عنه، أنا أدافع عن الحب.
- آه الحب... اصمتي أرجوك وأكملي طعامك.

بعد أقل من ساعة جاء محمد إلى منزلنا بحجة سـؤالي عن درس الفيزياء... ليهمس في أذني كي لا تسمعه أمـي: "أين هي؟ لا أراها".

- إنها في الغرفة ولا أظنها تريد أن تراك.

أخذ الكتاب من يدي ووضع بداخله ورقـــة مطويـــة قائلاً: "دعيها تقرأ ما فيها، أرجوك يا عبير".

كانت رسالة اعتذار مليئة برسومات الورود والقلوب الحمراء التي تسكر المراهقات... رق قلب عايدة عندما رأتها لدرجة أنها نامت ليلتها والرسالة تحت المخدة لا تقوى على تركها...

* * *

الصمت كان لا يزال سيد الموقف بين أمي وأبـــي... لم يكسره سوى صراخ جارنا أبـــي خليل خلال شـــجاره مع زوجته... حين هبت أمي واقفة لتقول له:

- لقد فعلها مجدّداً... إنه يضربها... ألا تســـمع... يجب أن تنزل لتوقفه عند حده.

وضع الكتاب الذي كان بيده جانباً وقال:

- إنها زوجته وهي راضية بذلك... في المرة الأخيرة التي تدخلنا بها وقاطعناه ليعود لرشده مـــا الـــذي حدث؟ هل نسيتِ؟ جاء إليها بخـــاتم ورضـــيت وذهبت إلى أم محمد تعرضه عليها وتقول بما معناه أننا من حرضناها عليه...

جلست أمي بجانبه تتكلم بقناعة العالم بخفايـــا مـــا في صدر جارتها:

- لا، لم ترضَ بسبب الخاتم... رضيت به لأنـــه لا حل أمامها فأين ستذهب بأولادها الخمســـة؟ إلى أهلها؟ وأهلها حتى الآن يتلقون المســـاعدة منـــه؟ ومن سيصرف عليهم؟ هذا إذا استقبلوها... وإذا ما تنازل لها عن أولادها... إنها تستحق الشفقة... وبصوت منخفض أكملت: أنا امرأة واعرف معنى انكسار المرأة... إنها تستحق أن نقـــف معهـــا... إنها...

وضع يده على كتفها مقاطعاً:

- مريم... نحنا لسنا قادرين على حل مشاكلنا لنحل لها مشاكلها... في غمزة منه إلى ما حدث بينهما قبل ثلاثة أيام
- ما الذي تقصده بذلك؟ إن كنت تذكر فأنت من افتعل المشكلة، أنت مـــن بـــدأ بالإهانـــات دون سبب... أنت من قال كلامـــاً يصـــعب علـــيّ استيعابه...

كانت تعاتبه بحزن وتنظر مباشـــرة إلى عينيـــه وهـــي تكمل:

- أحقاً تظنني معك لأنني تحت الأمر الواقع ولا أملك غير ذلك... ومن قال لك إنني لو عدت إلـــيهم بدونكم كنت سأُطرد... من قال إن أمي كانـــت

ستتركني... وإنني أستطيع الاستغناء عنكم... ومن قال لك إنني لا أحبك... لقد تركت عالمي وجامعتي وأهلي وكل ما أملك ولحقت بك.

وارتفعت نبرة صوتها وهي تكمل:

- تركت حياة العز واللهو والسهر والسفر لأبقى معك... لأسكن هذه المدينة الصغيرة راضية بالقليل الذي نحصل عليه، واحتملت كل ظروفك لتأتي اليوم وتلقي التهم جزافاً قائلاً إنني أنانية ولا أهتم سوى بنفسي وإنني نادمة وإنني قد ضعفت عند سماعي لموضوع الإرث والمال... أحقاً أنت أحمد الذي أحببت... هل كنت مخدوعة بك طوال هذه السنوات.

رمت كلماتها الأخيرة في وجهه بانفعال ليجيبها واقفاً بالانفعال ذاته:

- منذ اليوم الأول الذي عرفتك به أخبرتك عن ظروفي، أخبرتك أنني أدرس في الجامعة بمنحة بسبب تفوقي وبأنني لا املك شيئاً... أخبرتك بأنني من هذه المدينة... هذه المدينة الصغيرة التي لا سهر ولا لهو فيها ولكنها يا عزيزتي المدينة الوحيدة في هذا البلد التي تعايش فيها خلال الحرب المسلم مع المسيحي... المدينة الصغيرة هذه هي التي

استطعت فيها ممارسة شعائرك الدينية دون مضايقة من أحد؛ هي التي كنت تجدين فيها أم محمد وأم طوني يشربان القهوة معاً في عز الحرب الأهلية... هي التي أعطتك الأصدقاء من كل الطوائف، الأصدقاء الذين وقفوا بجانبنا... هذا الذي كنت تتكلمين عنه قبل قليل إن كنت لا تذكرين فتذكري كم مرة ومرة استدنا المال منه لنكمل مصاريف الشهر... وأعود وأقول لك إنهم أهلك وأنت حرة افعلي ما تريدين ولكني لا أريد مالهم.

- وكأنك تريدني أن اتصل بهم لأقول أنا عائدة ولكن زوجي لا يريد مال التركة التي هي حقي ولا يريدني أن ألمسها... لماذا تريد أن تضعني في هذا الموقف وأنت تعلم مدى شوقي إليهم... مدى شوقي إلى أمي بالذات...

غطت وجهها بكلتا يديها باكية تستمع إليه بعد أن عاد للجلوس بجانبها:

- أنا لا أضعك في أي موقف، بل على العكس، أنا أريدك أن تعودي إليهم وإن أردت سأكون معك والأولاد أيضاً، وبيتي مفتوح لهم في أي وقت وأنت تعلمين ذلك ولكننا في غنى عن أموالهم... الحال الآن أفضل من السابق، وراتبي قد ازداد،

والليرة وضعها بدأ بالاستقرار، وعماد يقوم بمساعدتنا وما حاجتنا إلى غير ذلك؟

رفعت رأسها ترد عليه ماسحة دموعها بعد أن ناولها منديلاً ورقياً:

- حاجتنا أن نحيا برفاهية... حاجتنا أننا تعبنا بما فيه الكفاية... حاجتنا أن أولادنا الباقين سيدخلون الجامعات وسيحتاجون إلى المال... ها هي عبير في سنتها الأخيرة هل فكرت إلى أي جامعة سندخلها... أم أنه لا يمكننا التفكير سوى بالجامعة اللبنانية؟ حاجاتنا كثيرة إن كنت لا تعلم، وأنا أريد قراراً حاسماً قبل أن أتصل بهم... أريد منك أن تتقبل الأمر وتؤمن بأن ما سآخذه منهم هو حقي ومن حقي أن أحصل عليه.

أنهت النقاش خارجة من الغرفة بعد أن كان صوتهما قد ملأ المنزل... جلس أبي على الكنبة أشعل سيجارة... وسرح بفكره.

* * *

مع شعرها الأسود الطويل بتسريحته الجديدة، والكحل الذي زينت به عينيها الخضراوين، والفستان الأنيق الأسود المقلم باللون الأبيض الذي خاطته خصيصاً للمناسبة، بدت

أمي ابنة الثانية والأربعين عاماً وهي واقفة تحمل المعطف على يدها في كامل بهائها، هي التي حافظت على رشاقتها رغم إنجابها خمسة أولاد... الجدة لصبي في الثانية من عمره كانت في ذلك اليوم تبدو صبية لم تتجاوز الثلاثين...

أردنا أن نذهب معها إلى بيروت لزيارة أهلها ولكنها رفضت قائلة إنها ستصحبنا في المرة القادمة لكونها لا تعرف الآن كيف ستكون الأجواء.

أمّن أبي التاكسي الذي سيقلها ذهاباً وإياباً إلى موعدها وجلسنا في البيت على أحر من الجمر ننتظر عودتها...

ذهبت في التاسعة صباحاً وعادت عند المغرب... اختلت بأبي لتقص عليه ما حدث وما علمنا به لاحقاً.

* * *

وصلت إليهم في تمام الحادية عشرة... في الحقيقة كنت متوترة ولو لم أكن ارتدي المعطف لسمع كل من حولي دقات قلبي العالية... قرعت الجرس لأجد أمامي خادمة فيليبينية... للوهلة الأولى جفلت لظني أن أمي هي من ستستقبلني... نسيت يا أحمد أنه في منزلنا لا نفتح الباب بأنفسنا... فهنالك خدم للقيام بهذه المهمة... أدخلتني إلى

الصالون وكأنني ضيفة غريبة، ورغم التدفئة المركزية انتــابني الشعور بقوة بحدة الصقيع... أين هم؟ أجلس في الصـــالون الكبير وحيدة... أتأمل التحف الكثيرة والثريات العملاقة... السجاد العجمي الفاخر والأثاث الذي لا مثيل لـــه إلا في بيوت كبار الأغنياء... على الحائط أمامي لوحة زيتية تكاد تغطي نصفه وفي الجهة المقابلة صور عظماء العائلة المرسومة على أيدي أبرع الفنانين وأشهرهم...

لحظات مرت كأنها دهر... اشتقت خلالها إلـــيكم... شعرت بالحاجة إليكم... تمنيت لو أنكم معي... فكرت أن أعود أدراجي... وقفت وهممت بـــالخروج... فـــإذ بهـــا قادمة... على كرسي متحرك تجرها خادمة أخرى... غطى الشيب شعر رأسها وحفرت التجاعيـــد خطوطهـــا علـــى وجهها الجميل... أرهق الحزن عينيها فبدت ضعيفة متألمة لا حول لها... ترتدي بنطلونا أسود وكنزة من الصوف باللون الرمادي الفاتح وتضع وشاحاً على كتفيها من اللون ذاته... الصدمة شلتني... وقفت صامتة... لا أدري ماذا أفعـــل... انهمرت دموعي دون إرادة مـــني... فتحـــت لي ذراعيهـــا وقالت: تعالي.

كلمة واحدة كانت كافية لأنحني وارتمي في حضـــنها، لتضمني بقوة وكأنها خائفة من رحيلي مجدداً عنها... دموعنا حكت وروت وقصت كل الوجع الذي عشناه... بقينـــا

لدقائق على هذه الحالة قبل أن يدخل جورج ويبدأ بالكلام:

- وأخيراً يا أمي... ها هي مريم أمامك وفي حضنك ولن تفترقا مجدداً.

أمي بصوتها الباكي

- أجل... لن نفترق.

كنت كالخرساء لم أستطع أن أنطق بكلمة... كنت فرحة ومتألمة وسعيدة وحزينة؛ مشاعر متضاربة اجتاحتني و لم أجد سوى الدموع لأعبر عما في صدري... أشارت إليّ بأن أتبعها وللخادمة لتسير بها فوقفت وطلبت أن أجرها بنفسي... دلتني إلى غرفتها... دخلنا، أجلستها على السرير، ذي الأعمدة الأربعة والستائر البيضاء الشيفون، الذي يتوسط الغرفة الكبيرة بمحتوياتها الكلاسيكية التي مر زمن طويل منذ رأيت شيئاً مماثلاً لها. طلبت مني الاقتراب فخلعت حذائي ومعطفي وجلست بجانبها... في حضنها... عدت طفلة... طفلتها المدللة... روت لي كيف أُصيبت خلال الحرب وكيف سافرت إلى أميركا للعلاج ولحق بها والدي ليستقرّا لسنوات في الغربة مع جورج الذي تزوج من أميركية وكما علمت منها أصبح لديه ابنتان الأولى في الثانية عشرة من عمرها والثانية تقترب من السابعة... أخبرتني عن وفاة أبي إثر سكتة قلبية مفاجئة وبعد أن فرغت من كلامها نظرت إليّ وقالت:

- وأنتِ ألن تتكلمي... ألن تقولي لي ما حل بك... أين كنت؟ هل بقيت في صور طوال الحرب؟ كم ولد أنجبت؟ هل أنت سعيدة؟ ما بك صامتة كل الوقت؟ ما الأمر؟...

كنت صامتة يا أحمد لأنني خفت أن حدثتها أن أؤلمها ووضعها الصحي لا يتحمّل... فماذا سأقول لها... أأخبرها عن ليالي الحرب والجوع والقهر التي عشناها... هل أصف لها هروبنا من ملجأ إلى ملجأ تحت القصف... هل أخبرها عن الذين قُتلوا أمام أعيننا... عن العائلات التي هُدمت منازلها على رؤوسها في حارة صور، عن صوت من بقي تحت الحطام وهو يصرخ من العطش لرشفة ماء لم يستطع أحد إيصالها إليه... هل أقول لها إن الإسرائيلي أعطى لنفسه الحق بأن يدق بيوتنا بأي وقت ليدخل ويفتش كل ما فيها بكل حقد ووقاحة... داعساً على كرامتنا... هل سأخبرها عن عملك مع المقاومين وخروجك في الليل لمساعدتهم وخوفي وقلقي عليك... هل سأقول لها إنني تعلمت الخياطة لأكسو أولادي... ماذا أقول لها؟

أخبرتها بكل حذر عما أردتها فقط أن تعرفه... أخبرتها عن عماد فقلت لها إنه أراد المغامرة والسفر للعمل في الخارج... حدثتها عن عليا وكذبت أيضاً عندما زعمت أنها أحبت أيمن حالما رأته وأصرت على الزواج منه، وهي

سعيدة جداً ولديها صبي صغير، وتسكن في بيروت وزوجها يعمل ما بين لبنان والسعودية، وكيف أنني سأكلمها كي تأتي لزيارتها دائماً... حدثتها عن عبير وعن اجتهادها في السنة الأخيرة من المدرسة وحلمها أن تصبح مهندسة للديكور ولكني لم أقل إن أحلامها قد لا تتحقق لأننا لا نملك المال لندخلها جامعة خاصة... رويت لها عن شقاوة عايدة وأن ما يشفع لها هو تفوقها في الدراسة... ووصفت لها عيسى واهتمامه الدائم بمظهره وشعره وذقنه فضحكت من قلبها... وأخيراً حدثتها عنك... عن مدى نبلك وشهامتك ورفعة أخلاقك... يا إلهي يا أحمد لم أكن أدرك كم أحبك واحترمك إلى أن بدأت بالحديث عنك...

-9-

يوم آخر بدأ... خيوط الشمس دخلت غرفتها لـــتعلن عنه... بعد ليلة عاصفة صارعت فيها جيوش الأسئلة الـــتي وقفت لها بالمرصاد لتهزمها وتحيلها حطاماً... شبه إنسان... كان يفترض بها أن ترتدي ثيابها علـــى عجـــل، أن تقـــود سيارتها لتكون في تمام العاشرة في المشروع الجديد للإشراف على سير العمل فيه... على أن تلتقي عند الثانية بعملاء لهـــا على الغداء بحضور (عيسى) أخيها... ولكن التعـــب أيـــن تذهب به؟ وجروح القلب من يداويها؟ من يمسحها ويمحو آثارها؟ عيناهـــا المتورمتـــان مـــن البكـــاء مـــاذا تفعـــل لإخفائهما؟... بدلت ثيابها عدة مرات، جرّبت كل ما لديها إلا القميص الزهري الذي ابتاعته لتلقاه به لم تضـــعه علـــى جسدها... فهو لن يراه و لم يعد له أي أهميـــة بنظرهـــا... نظرت إلى هاتفها فوجدته قد كتب لها (صباح الخـــير)... ردّت عليه الصباح...

سألها عن أحوالها فأخبرته أنها في طريقها إلى المشروع،

لم يعلق سوى بكلمات مقتضبة مهذبة فشـــكرته وانتـــهى الأمر.

أصبحت كلمة (صباح الخير) بالنســـبة إليـــه إنجـــازاً يستحق أن تسعد به... هبة منه لوجه الله يتفضل بها عنـــدما يشعر للحظات قليلة أنه قد فعل ما يزعجهـــا... (صـــباح الخير) جائزة ترضية عليها أن تتلقاها بسعادة وفخر لأنه قد تذكرها عند الصباح، ولم ينسَ أو يتناسَ وجودها هو الذي كان يحادثها في السابق طوال النهار.

من المؤلم أن ترتبط سعادتك بإنسان... أن يكون كل همك أن يحبك، أن يقدر مشاعرك، ألا يجرّح بك... مـــؤلم أن لا يسعدك ما ظننته يوماً أهم أحلامـــك... أن يكـــون مشروعها الذي سعت جاهدة إليه لا شيء بنظرها طالما أنه لا يشاركها فرحها به... أفكار كثيرة شردت بهـــا أثنـــاء القيادة، حادث شبه محسوم أسعفها القدر وتجنبته... لعله لم يحن أوان الرحيل بعد... هاتفها لم يهدأ لحظة فـــالجميع في انتظارها والعمل في المشروع يحتاج إلى متابعتها الدائمة...

أكملت طريقها شاردة وهي تفكر أن هـــذه العلاقـــة الغريبة يوماً ما ستدمرها وعليها أن تضع حداً لعذابها... أن تتوقف عن السير باتجاه التعاسة بإرادتها... أن تأخذ القـــرار فوراً بقطعها... هذا الذي من بين جميع الخلق غزا قلبها، أثار جسدها وسيطر - وهو الغائب والقاسي - على تفكيرها،

عليها أن تنساه لتحافظ على ما تبقى لها من كرامـــة ومـــاء الوجه... عليها ببساطة أن ترحل فهو لا يمكن أن يكـــون عاشقاً... الصراحة توجع حين تقال... حين نواجـــه بهـــا أنفسنا ولكنها الحقيقة التي وصلت لها... فقاطعته.

انهمكت في العمل... وجدت فيه راحتها... عـــادت لتهتم بأولادها وشركتها وأصدقائها... لحظات الوجع التي كانت تهب عليها ليلاً كانت تطردها بحبوب المنـــوم الـــتي عادت تتناولها بعد أن قاطعتها لسنوات... فعلت المســـتحيل لطرده من بالها وقلبها... لعدم متابعة أخباره ومراقبة ما يفعله وما يقوله ومن يتواصل معه... لا تريد أن تراه ولا أن ترى اسمه أمامها... لا تريد أن تسمع عنـــه ولا أن يكلمهـــا... ألغت كل وسيلة تواصل قد تقربها منه... فهل اســـتطاعت الصمود.

-10-

أنهى صلاته وبدأ بقراءة القرآن يليه الدعاء... مـــرت ساعة وهو على حاله جالساً على السجادة والســـبحة لا تفارق يده... نادى عليه صديقه الذي يشاطره السكن فلم يرد... قام بعدها لينام على السرير واضعاً يديه تحت رأسه، يرنو إلى سقف الغرفة الصغيرة سارحاً بفكره... يتـــذكر يومه الأول في الغربة... كيف كان ينظر من شباك سيارة العمل التي أتت لتقله من المطار، إلى الرؤوس السود المنتشرة على الطرقات... كل شيء بدا غريباً بالنسبة إليه... الناس، اللغة الأجنبية التي عليه الاعتياد على استعمالها بشكل شبه دائم...

مرت أمامه السنوات التي قضاها في الغربـــة بكـــل تفاصيلها كشريط سينمائي: تعبه في البدايـــة، شـــوقه إلى أهله، إلى أخوته، إلى الحي الذي كان يسكنه، إلى الجيران، إلى ابنة أبـــي خليل التي لم يتجرأ ويحادثهـــا ليبـــوح لهـــا بمشاعره خوفاً من والدها... تذكر الراتب الأول الـــذي

تقاضاه وكيف أرسل معظمه إلى أهله فرحاً أنه استطاع أن يؤمن مبلغاً كهذا لهم... فكّر بعمله المتواصل لاثنتي عشرة ساعة في اليوم... بالطقس الحار الذي لا يطاق... بسهراته كل ليلة سبت في أحد الملاهي الليلية والتي كان يبدأها بشرب الكحول وينهيها بمعاشرة إحدى بائعات الهوى... السهرات المكافأة له على تعب الأسبوع والتي استمرت لمده عام قبل أن يتعرف إلى (خالد) الشاب الملتزم الذي هداه إلى الإيمان.

فكّر بأخته عليا، بابنها الذي لا يعرفه... بجدته التي ظهرت فجأة في حياقم وخاله المسيحي... تذكر الإحراج التي شعر به عندما دخل عليه خالد فجأة أثناءِ حديثه مع والدته ليسأله بعد انتهاء المخابرة عن الأمر قائلاً:

- خالك يُدعي جورج؟ كيف ذلك! والدتك مسيحية؟!

كان يسأل وكأن الموضوع قمة أربكت عماد الذي رد عليه بخجل:

- أجل إنها مسيحية.

فقال وهو يسند ظهره على باب الغرفة:

- لا بد أنها أسلمت بعد زواجها من والدك.

ليجيبه عماد وهو يقوم بإعادة سماعة الهاتف إلى مكانها مولياً ظهره له كي لا ينظر في عينيه:

- في الحقيقة لا، فأبـــي لا يمانع الأمر. إنه إنســـان علماني يؤمن بحرية المعتقد وبأنها حرة في ممارســـة أي شعائر دينية تريدها.

اقترب منه خالد وهو يقول:

- غريب أمر والدك... لو كنت مكانـــه لعملـــت جاهداً على إدخالها إلى ديننا وكسبت أجراً بها... ربما عليك أنت الآن أن تقوم بهذه المهمة.
- سأفعل... لا بد من ذلك.
- وما قصة خالك الذي يُدعى جورج.

هنا بدأ برواية ما حدث لخالد الذي جلس بجانبه على الكنبة مخبراً إياه عن جدته وخاله... عن حصة أمه في إرث والدها وعن رغبتها في إقناع أبيه لإرسال المال إليه علّه يقوم بمشروعه الخاص بدلاً من عمله كأجير وعن رفضه لـــذلك فهو لا يريد أموالاً من أحد...

حدثه عن إصرارها وبأنهما قد توصلا أخيراً لاتفاق بان تتم مناقشة الأمر في الصيف عند قدومه إلى لبنان لزيارتهم.

* * *

كان قد تم حصر الإرث ونال كل فرد نصيبه من تركة جدي الراحل. بتنا أغنياء مع وقف التنفيذ... المال في البنك والعقارات التي آلت إلى أمي أوراق ملكيتها دفنت في حقيبة

المستندات الخاصة بنا... وما زلنا نعيش على الراتب وما يرسله عماد من مساعدات...

سافر الخال جورج بعد أن قام بزيارتنا مرات عدّة في صور واعداً بالعودة خلال الصيف مع زوجته وابنتيه... بدأنا بزيارة الجدة كل أسبوع... وبعد أن كانت عليا تقضي نهار السبت عندنا بتنا نحن من يمر عليها كل سبت لاصطحابها والذهاب لزيارة الجدة، لقضاء باقي النهار معها، على أن يعيدنا سائقها الخاص في الليل.

* * *

حل صيف العام 1994.

أعلن عماد عدم حضوره... وحجته ضغط العمل... ولكن الحقيقة كانت واضحة أمامي من أسئلته التي كانت تلاحقنا طوال الوقت عن الصلاة والصوم والملابس... أظنه لم يكن يريد اللقاء بالخال جورج الذي كانت أمي تحدثه عنه في كل مرة نتّصل به أو يتّصل بنا... وعن رغبتها في لم شمل العائلة كلها...

الخال الذي عاد من أميركا بصحبة زوجته الأجنبية وابنتيه... الكبيرة التي أتمت الثالثة عشرة ذلك الصيف (ماري) الجميلة صاحبة العينين الزرقاوين كوالدها والشعر الأشقر الجميل، والتي كانت تبدو كالدمية... و(كلوديا)

الصغرى التي تشبه خالي لناحية اسمرار البشرة والشعر الأسود... أحببنا عائلته كثيراً واعتدنا عليهم. كانوا يأتون أكثر من مرة في الأسبوع لزيارتنا والذهاب سوياً إلى الشاطئ... على أن نلقاهم نهاية كل أسبوع في بيروت عند الجدة... صيف جميل قضيناه برفقتهم... رغم مشاحنات عايدة ومحمد المستمرة لغيرته عليها عندما عرف بأنها تقوم بارتداء لباس البحر للسباحة ليتم الاتفاق في نهاية الأمر على ارتدائها الشورت فوقه بشكل مستمر... وكذلك برودة أبي وتحفظه في الحديث مع الخال والجدة...

أنهيت خلال الصيف مرحلة الثانوي بعد أن أعلنت نتائج الامتحانات الرسمية لتعم الفرحة البناية لنجاحنا أنا ومحمد وإيمان ابنة جارنا أبي خليل بامتحانات الشهادة الثانوية وعايدة بامتحانات الشهادة المتوسطة.

أخبر محمد عايدة أنه بصدد دراسة الحقوق في الجامعة اللبنانية في صيدا... وهذا ما عادت أم محمد لتؤكده لأمي معلنة عن فرحتها به فهو سيصبح محامياً مشهوراً وتعبها لن يضيع هباء... إيمان اختارت الأدب الإنكليزي محمسة إياي لدراسة الأدب العربي كي نكون في كلية واحدة ولكنني رفضت رغم عشقي للأدب فأحلامي كانت في مكان آخر... ووجود الجدة كان دافعاً لي للإصرار على ما أريده. فأنا سأدرس في بيروت وسأسكن عندها... مخططاتي كانت

جاهزة، وكل ما كان باقياً هو موافقة أبي على الأمر والأهم موافقته على استعمال أمي لمالها كي أبدأ الدراسة في الجامعة الأميركية...

* * *

إرهاق وصداع شديد وتعب ودوار وحرارة مرتفعة... أعراض بدأت أعاني منها فجأة في فترة بعد الظهر وخلال الليل... ما دفع أمي للبقاء بجانبي لوضع كمادات المياه الباردة على رأسي وأسفل معدتي وعلى قدمي كي تنخفض الحرارة التي لم ترحمني إلا عند الصباح لتعود مجدداً في المساء بكل آلامها... اتصل أبي بالطبيب ليأتي لمعاينتي لعدم قدرتي على النهوض من السرير... فأمر بإدخالي فوراً إلى المستشفى للعلاج وإجراء الفحوصات اللازمة التي أتت نتيجتها كما توقع، فقد كنت أعاني من حمّى التيفوئيد...

عشرة أيام قضيتها هناك خرجت بعدها وقد خسرت الكيلوغرامات الزائدة من وزني، الأمر الذي سبب القلق لعائلتي والسعادة لي... فبعد أعوام من المعاناة مع الحمية الغذائية حصلت على النتيجة المرجوة وإن كنت قد قاربت الموت في ليالٍ عدة بسبب ارتفاع الحرارة... الأمر الآخر الذي حدث نتيجةً لذلك كان موافقة أبي على دخولي

للجامعة الأميركية لأحقق حلمي بأن أصبح مهندسة ديكور... أتت موافقته بعد رؤيتي على فراش المرض فرقّ قلبه وتخلّى عن عناده أمام محبته لي...

* * *

عاد الصراخ ليرتفع من منزل أبي خليل... هذه المرة كانت إيمان سبب المشكلة... وكما أخبرتني في اليوم التالي فهو يريد رميها (على حد وصفها) لرجل من معارفه متزوج ولديه ثلاثة أولاد... قالت لي بغضب وانفعال واشمئزاز بارز على وجهها:

- أي رجل هذا الذي يريد الزواج بفتاة بعمر ابنته... أي منطق هذا الذي يسمح بذلك... أي أخلاق؟ أنا لا أقوى على النظر في وجهه للسلام عليه فكيف سأتزوجه... لا أستطيع ذلك... لا يمكنني.
- ولِمَ هو مهتم به إلى هذه الدرجة؟ لقد جاءك عريس آخر العام الماضي ورفضت ولم يحاول الضغط عليك.
- آه أنت لا تعرفين... هذا الرجل مؤمن وثري جداً على حد قوله وهو يريد أن يرضيه. يقول إنه شرف كبير أن يختار ابنته ليتزوجها.

- ما هذا الكلام؟ وهل نحن في عصر الجاهلية... بدلاً من السير إلى الأمام يريدون شدّنا إلى الخلف... لا تستسلمي له.. حرضي والدتك.. اتصلي بأعمامك.. اضغطي عليه ولا توافقي... ثم إن الزواج لا يكون بالإكراه وإلا كان اغتصاباً للروح وللإرادة وللجسد...
- حرّضي والدتك؟ أمجنونة أنت يا عبير... إنها سعيدة بالعريس أكثر منه... وتقولين اتصلي بأعمامك... تتحدثين وكأنك لا تعرفين عائلتي؟ أنسيت ابنة عمي التي تزوجت وهي في الخامسة عشرة... لقد كنت معي في المولد الذي أقيم لها... هل نسيتِ كم كانت سعيدة وراضية؟ عبير.. مفاهيمنا أنا وأنت عبارة عن ترهات غير موجودة في قاموسهم... أنا الآن مجرد فتاة أصبحت جاهزة للزواج وعليها فقط أن تطيع الأوامر... الحب عيب لا يمكن ارتكابه، والدراسة وتحقيق الذات أمور لا أهمية لها وهي مضيعة للوقت، ففي النهاية النساء خُلِقن للبيت...
- ورغم ذلك أقول لك حاولي.. لا تستسلمي. إنها حياتك وحياتنا سنعيشها مرة واحدة، لا مرات...

هزت برأسها بصمت موافقة على ما أقوله... وعالمة بأنه لا أمل أمامها... إيمان التي التزمت الحجاب منذ كانت في التاسعة من عمرها بقرار اتخذه والدها والتي أخبرتني لاحقاً بأنها ترغب بخلعه وبأنه رغم إيمانها الكبير بالله فهو يشعرها بالاختناق لكونه لم يكن خيارها. إيمان التي انتهت أحلامها قبل أن تبدأ حتى بمحاولة تحقيقها... إيمان التي رأيت المستقبل الأسود وهو يخيم فوق رأسها ويرتفع كغيمة مليئة بالغبار لن تلبث أن تمطر وحلاً على أيامها...

-11 -

مر الشهر الذي قاطعته به طويلاً، موجعاً... مر بها وكأنه ألف عام من الفراق... فتحت عينيها ذات صباح والشوق إلى عينيه يقتلها... أمسكت بهاتفها وبدأت بتقليب صوره الظاهرة على صفحته أمامها... وقراءة كل ما فاتها منه... دب الحنين بأوصالها ودون أن تشعر هاتفته... سمعت صوته يرد عليها ببحته الجميلة فصمتت... سألها عن أحوالها وهي على صمتها تفكر بما عليها فعله، هي التي اشتاقت إلى صوته وإلى كل ما فيه... هل تبدأ بالبكاء؟ هل تقول إنها ببساطة تعشقه؟ هل تتصرف بعفويتها أم تتمالك نفسها... لحظات من الحيرة وقفت أمامها تختبر صبرها... إلى أن أجابت بكلمات مقتضبة وبأنها أرادت فقط أن تطمئن عليه ليعود ويسألها لِمَ قاطعته؟ لِمَ لمْ تعد تمر به كالسابق أو تهاتفه لشرب فنجان من القهوة في أي مكان عام كما اعتادا قبل المرة الأخيرة التي زارته فيها في بيته والتي حدثت بمحض الصدفة... إذ كان

قد نسي بعض الأوراق المهمة وعاد لجلبها عندما كلمتـــه، فتم الاتفاق بأن تلقاه في البيت.

عاد التواصل بينهما إلى سابق عهده مع التحفظ مـــن قبلها وانتقاء للكلمات التي تخاطبه بها... لقـــد أحالتـــه إلى مرتبة الصديق بعد أن كان الحبيب والفارس وأغلـــى مـــا لديها... أنزلته عن عرش قلبها... وإن كانت قـــد لمســـت شوقه إليها... وبدأت تعوّد نفسها على أنه مجـــرد غريـــب التقته صدفه وأحبته كقدر وستنساه بقرارها... لا ولن تنهزم مجدداً أمامه... فالحب وهم نحن من نخلقه لنعـــيش بـــه... الحب خيال نسجن أنفسنا داخل عالمه لاعتقادنا بأنه إكسير السعادة... الحب لا وجود له... ولن يكون له وجـــود في حياتها... حكمة أطلقتها وقررت أن تقولها لنفسها كل يوم أكثر من مرة كالصلاة كي لا تنساها... كي يعتاد عقلـــها على قبولها. أَوَلسنا نحن البشـــر مـــن يطلـــق الأكاذيـــب ويصدقها... ها هي أكاذيبها... وكل يوم ستكررها إلى أن تصدقها...

-12-

في منزل الجدة في بيروت اجتمعنا كي نودع عليا الحامل بمولودها الثاني بعد أن أتى زوجها لاصطحابها للعيش معه في السعودية بشكل دائم... البلد التي بدأ عمله فيه يتوسع ويكبر مانعاً إياه من زيارة لبنان لأوقات طويلة فكان الحل الأنسب أن تلحق هي به.

أيمن الشاب الثري المقاول ابن المقاول والذي أسس شركة جديدة مع السعودي فهد كان في أحسن وأروع حالات تملّقه... وكيف لا وهو أول من رحب بالجدة والخال والعائلة الثرية الجديدة التي بتنا ننتمي إليها. جلس بجانبها قبل أن نبدأ بالغداء يرتشف من كأس الشراب، ويقص عليها أخبار عمله تارة، ويروي النكات تارة أخرى، عن الأمور الطريفة التي تواجهه في أسفاره مستعرضا أمامها أسلوب حياته لترى أنه رجل أعمال دائم الانشغال...

وعلى طاولة السفرة الكبيرة التي تتسع لثمانية عشر شخصاً والتي تعلوها ثريا ضخمة من الكريستال اصطفت

أمامنا المقبلات التي ظننا، أنا وإخوتي في المـــرة الأولى الـــتي تناولنا فيها الغداء في منزلها، أنها كل ما سنأكله فبدأنا بالتهام الطعام ونحن نفكر إن كان الأغنيــاء لا يــأكلون الأرز أو اللحم. وعندما كنا قد شبعنا إذ بصواني الأطباق الرئيســية تصل... محملة بكل ما تشتهيه النفس من الإوزة والـــدجاج المحشي إلى ورق العنب وفتة اللحم والصيادية... نظرت إليّ عايدة وقتها وهي تبتسم بمكر لمشاهدتها الحزن الذي ارتسم على وجهي، وأنا أفكر كيف سآكل من كل هذه الطيبات بعد أن شبعت...

ذلك النهار كان الحال قد تغير والارتباك الذي كنـــا نشعر به سابقاً لناحية الفوطة التي علينا وضعها في حجرنـــا قبل البدء بالأكل، واي شوكة علينا أن نســـتعمل للســـلطة وأيها للسمك... وفي أي كوب نضع المـــاء وأي واحـــد للعصير... قد انتهى، بعد أن أنّبت الجدة أمي على انفـــراد لعدم تعليمنا أصول اللياقة الخاصة بالسفرة وأتيكيت تنـــاول الطعام ما دفعها لأن تلقي علينا لمدة أسبوع محاضرات بكل ما تعرفه من أمور كانت قد تناستها أو أنستها إياها الأيـــام الصعبة التي مرت بها...

* * *

في بيروت أصبح لي غرفتي الخاصة... غرفة نوم لي وحدي أسهر فيها الوقت الذي أريده... اتركها مضاءة للقراءة دون أن يكون هنالك من يعترض ومن يقول إنه يريد النوم باكراً، ومن ينزعج من صوت الموسيقى... هذه الغرفة الجميلة بأمتارها العشرين والتي أصرت جدتي على إعادة طلائها وفرشها من جديد ترحيباً بي... كانت تحوي بداخلها خزانة كبيرة، من خشب السنديان، برفوفها وأدراجها العديدة والتي بدت في بداية العام الدراسي فارغة لقلة الثياب التي كنت أملكها... بالإضافة إلى سرير كبير يتوسطها وطاولة للزينة مع مرآة مدورة ومكتب في إحدى الزوايا وضعت فوقه ثلاثة رفوف للكتب... هذه الغرفة التي اخترت اللون الزهري لستائرها وأغطية سريرها... وسجادة مودرن من ألوان عدة تزينها نقشات الورود الجميلة لأضعها على الباركيه الذي كان يغطي أرضها... وبعض اللوحات الصغيرة على الحائط... هذه الغرفة كانت عالمي ومملكتي الخاصة التي عشت بداخلها حرة خمس سنوات...

يومي الأول في الجامعة كان صعباً جداً... أوصلني سائق جدتي... دخلتها بحذر رغم معرفتي لمبانيها ووجودي سابقاً فيها لإتمام معاملات التسجيل إلا أن ذلك اليوم كان للأمر طعم آخر... أنا الآن طالبة جامعية... فتاة الجنوب التي أتت لتحقق أحلامها... جلست على أحد المقاعد

الخشبية المنتشرة فيها أتأمل كل من تمر من أمامي لأقارن بين ملابسي وملابسها لأرى إن كنت قد ارتديت الثياب المناسبة وحملت الحقيبة المناسبة وانتعلت الحذاء المناسب. فوجدت الفرق شاسعاً بين تسريحة شعري المبالغ بها والمكياج القوي الذي وضعته على غير عادتي، وكأني أريد أن أخفي وجهي به وبين ما أراه أمامي... كنت أشعر أني غريبة في عالم غريب عني.. أين محمد؟ أين إيمان؟ أين عايدة؟ أين صديقاتي وأصدقائي؟ ليتني كنت معهم، ليتني الآن في الجامعة اللبنانية... دخلت المحاضرة الأولى لأجلس وحيدة في آخر القاعة... إلى أن اقتربت مني في اليوم التالي إحدى الفتيات:

- مرحباً... أنا رنا... وأنت.
- أهلاً رنا... أنا عبير.
- من بيروت؟
- لا من الجنوب، من مدينة صور بالتحديد، وأنت؟
- بيروت... تشرفت بمعرفتك عبير.

كان حديثها معي باللغة الإنكليزية... حديث اقتصر على التعارف ولكنه كان بداية جيدة... أحببت رنا ذات البشرة الحنطية والعينين العسليتين والشعر البني الفاتح القصير الممتلئ قليلاً... أحببت جمالها الهادئ وبساطة مظهرها رغم أناقته... كانت النقيض لي أنا الطويلة السمراء مع شعري

الأسود الكثيف كشعر أمي وعينيّ البنيتي اللون وكعبـــــي العالي...

توالت الأيام بعدها لنصبح صديقتين مقربتين... كنـــا نذاكر سوياً في مكتبة الجامعة وأحياناً في بيـــت الجـــدة... ونذهب في أحيان أخرى مع شلة من الزملاء إلى السينما أو لتناول العشاء... أو للتسوق... تعلمت منها كيف أنتقـــي ثيابـــي من أهم المحلات وأرقاها وكيف أبـــدو أنيقـــة في مظهري من دون تكلف.

أتممت الثامنة عشرة من عمري وأحلامي تتحقـــق... أدرس في أهم جامعة في البلد... أملك المال فجدتي لم ترضَ بالمصروف الذي حدّده لي والداي وبالتواطؤ مع أمي قررت أن تتولى بنفسها كل ما أحتاج إليه دون جـــرح لمشـــاعر أبـــي... كنت ابنة الثامنة عشرة التي تمنيت أن أكونها يوماً ولكن ما كان ينقصني هو الحب... هو دقات القلب الـــتي تشعر بها الفتيات من حولي...

* * *

حل صيف العام 1995 لأعود إلى قواعدي ســـالمة في صور بعد نجاحي بتفوق... لأجد إيمان حاملاً من الرجـــل الذي تزوجته... يسكن الألم ملامحها الجميلة كما يســـكن الجنين أحشاءها... امرأة مسلوبة الإرادة في ظل أب جاهل

لا قلب له وأم قليلة الحيلة وإخوة يصغرونها في السن وزوج كل ما يراه فيها هو جسدها الغض الجميل... عدت لأجد محمد قد أتم عامه الأول في كلية الحقوق بنجاح جعل عايدة تبكي فرحاً، وأمه توزع البقلاوة على أهل البناية والحـــي، وتضع صينية أخرى في الدكان كي يأخذ المارون نصـــيبهم أيضاً...

عدت لأنتظر مع أهلي نتيجة البريفيه لأخـــي عيســـى والتي حدد موعدها خلال شهر آب...

عماد الذي صدمه زواج إيمان ودفعه ليعلن لي للمـــرة الأولى على الهاتف أنه يحبها وكان يفكّر عند العودة بالتقدم لطلب يدها قرر ألا يأتي متسائلاً إن كان سيجد فتاة في مثل أخلاقها وتربيتها الدينية والتزامها...

أما عليا فكانت قد عادت إلى بيروت قبلها بشـــهرين لتكون بقربنا وقرب أهل أيمن وكيف لا وولي العهد الثـــاني على الطريق...

* * *

كان وجهه أصفر اللون أو على الأصح كان قد بـــدأ يخلو من أي لون والعرق يتصبب من جبينه... جالساً علـــى المقعد في الصالون الوحيد الذي نملكه يســـتمع إلى الراديـــو وهي تعلن النتائج ويكاد قلبه يتوقف من شدة الخـــوف...

تشاركه أمي المشاعر ذاتها وهي تتلو بصوت منخفض صلاتها كي يحقق الله لها أمنيتها وتراه من الناجحين، وتنظر إلى أبي الصامت طوال الوقت عله يكسر بأي كلمة حدة الموقف. نادت على عايدة التي اختارت البقاء وانتظار النتيجة في غرفتها عوضاً عن التوتر الذي تسببه قراءة الأرقام الناجحة لتحضّر لها فنجاناً من القهوة... الفنجان الذي أوقعته على ثيابها لتحرق به رجلها بعد أن تجاوزت المذيعة رقم أخي لتأتي النتيجة أنه راسب...

انخرط في نوبة من البكاء كطفل صغير... يرتجف وهو يجهش بصوت مرتفع ما دفع أبي إلى القول:

- وهل كنت تتوقع النجاح؟ وأنت لم تدرس بشكلٍ كافٍ طوال العام. لقد كنت أعلم أنك سترسب.

لترد أمي بدلاً منه بينما كنت أقوم بوضع الثلج على رجلها ومعجون الأسنان لمعالجة الحرق الذي أصابها:

- ولكنه في الشهر الأخير درس وقال إن الامتحان كان سهلاً.

ليجيبها أبي بانفعال ظاهر على وجهه:

- الامتحان كان سهلاً أو رآه ابنك سهلاً، لأنه لم يفهم منه شيئاً ليعلم إن كان سهلاً أو صعباً...
- وماذا عساي أفعل به... شاب في الرابعة عشر فهل سأجلسه بجانبي لألقنه الدرس كالأولاد.

قال أبـــي لعيسى وهو يهم بالخروج من الغرفة:

- على العموم إنه مستقبلك وأنـــت وحـــدك مـــن ستبنيه. فإما أن تكون إنساناً متعلماً مثقفاً واعيـــاً وإما أن تقضيه في اللهو دون وظيفـــة في انتظـــار واحد من إخوتك ليعطف عليك ويعيلك.

رفع عيسى رأسه ليقول:

- لن أقضيه في اللهو... أنا لا أحب المدرسة وأنـــت تعلم وجميعكم تعلمون ذلك... ثم ممَّ تشكو المهن الحرفية قلْ لي... انظر إلى جارنا الميكـــانيكي وإلى جارنا أبـــي خليل. حتى أم محمد إلى وقت قريب! جميعهم كانوا أفضل منا.

انتفضت أمي قائلة:

- اخرس يا عيسى أتقول إن أباك أقل شـــأناً مـــن (أبـــي خليل وأبـــي سمير وأبـــي)... وهل تقيس مستويات الناس بأموالهم وبما يملكون... ألا يوجد أي اعتبار لديك للثقافة... للعلم... هل هذا مـــا ربيناكم عليه.

ليعود عيسى ويقول:

- نعم أقيسها بما يملكون لأن من يملك في هذا الزمن هو القوي وهو الواعي وهو المسيطر وهـــو كـــل شيء؛ وأنا أريد أن أكون كل شيء. لا أريـــد أن

أكون إنساناً متعلماً ولا شيء، ثم، إذا كنتم تحبون العلم إلى هذه الدرجة فلمَ سافر عماد ولِمَ تركت عليا المدرسة لتتزوج الغني ابن الغني.

أبـــي الذي كان يستمع للمرة الأولى لعيســـى وهـــو يكلمهما بهذه الطريقة أصابه الوجوم. كان ينظر إليه بغضب عارم وبوجه عابس قبل أن يقول له:

- ما زلت صغيراً، ويوماً ما ستندم على كل ما قلته الآن... لن أحاسبك فرسوبك أكبر حساب لـــك لاستهتارك وقلة مسؤوليتك.

عايدة التي كانت تقف على باب الصالون غاضبة من عيسى قالت له:

- بصراحة لا يرسب في امتحانات البريفيه هذه الأيام إلا الحمار وقد اثبت أنك من فصيلة الحيوانـــات برسوبك وبكلامك الذي قلته الآن... ما دفعـــه لرميها بالمسند الذي كان خلفه لتبدأ أمي بلومهما معاً.

* * *

اتصلت عليا لتطمئن على نتيجة عيسى فأخبرناها بمـــا حصل... وبدورها أخبرتنا عن معاناتها مع مولودها الجديد الذي كان له من العمر شهران فهو يتألم من المغص ويبكي

طوال الوقت... أعطتها أمي بعض النصائح ومنها أن تقـــوم بوضع قليل من زيت الزيتون الصافي في ملعقة وإشعال النار تحتها لدقيقة واحدة قبل دهن بطنه به مع الفرك الخفيف... فزيت الزيتون بحسب خبرتها أهم من أي دواء.

-13-

عادا ليلتقيا في المقاهي الرخيصة والمطاعم التي لا اسم شهير لها، تلك المعتمدة من قبلهما، كي لا يراهما أحد من معارفهما فيضطران في كل مرة لشرح أسباب وجودهما معاً.

ذلك اليوم كانا يجلسان جنباً إلى جنب على الوسائد المتعددة الألوان الموضوعة على الأرض وأمامهما طاولة خشبية فوقها منفضة وعلبة مناديل... في الطابق العلوي من المطعم الغريب الذي أخذها إليه... ورغم ديكوره الشرقي إلا أنه لدهشتها كان طعامه يقتصر على الهامبرغر والبيتزا... طلبا الغداء بينما بدأ بتدخين النارجيلة إلى حين وصوله... سألها عن مشروعها الجديد وعن سير العمل فيه فأخذت تقص عليه التفاصيل وتخبره عن رغبتها في وضع لمساته الفنية كالسابق عند الإعلان عنه... كانا يتحدثان في كل الأمور العامة التي تخطر ببالهما... ويتحاشيا في الوقت ذاته النظر أحدهما إلى الآخر. ولكن وجودها بجانبه ولمسه ليدها عندما

اقترب ليضع هاتفه على الطاولة جعل قلبها يرتجف ويصرخ ويعلن بان هذا الإنسان هو كل ما تريده... تصرفت وكأنها لم تنتبه له... انتهيا من طعامهما والوضع على حاله، تـــوتر وارتعاش كلما تلامسا بالصدفة أو كلما افتعلا هذه الصدفة إلى أن مد يده لها لتضع يدها فيها... ليبدأ بمداعبتها بكـــل رقة وحنان قائلاً: حسناً، إلى أين سنصل؟

فردت عليه: لا أدري.

- هل سنبقى على هذا الوضع؟
- أنت تعلم ما في قلبـــي وتشعر به...
- أنا لا أريد أن أتعلق بك... أي علاقة بيننا ستزيد من تعلقنا أحدنا بالآخر... أفضل أن نبقى علـــى هذه المسافة إلى أن تبرد مشاعرنا فلا شيء يستمر إلى النهاية... ألم تقـــرأي (في الحـــب والحـــب العذري) لصادق جلال العظم... الحـــب يعلـــو ليصل إلى فترة من التشدد يكون حينها في ذروتـــه ثم يبدأ بالانحدار بعدها إلى أن ينتهي...
- بلى قرأته ولكن النهاية التي تتكلم عنها تحتاج كما يقول لعيش التجربة بكل ما فيها للوصول بالعلاقة إلى حد الإشباع العـــاطفي والجســـدي، لتهـــدأ الأشواق وتختفي اللهفـــة إلى أن تـــزول بشـــكل تلقائي. وفي الحقيقة أنا لا أؤمن بهذا الأمر...

كانت عيناها في عينيه... لم تكن ترى سواه و لم يكن يريد غير ذلك... ارتعشت... أرهقتها حدة مشـــاعرها... أشاحت بنظرها عنه... فاعترض قائلاً: "لا تبعدي بوجهك عني... ابقي معي..." فعادت للغرق مجدداً في بحـــر عينيـــه العسليتين ليقوم فجأة ودون إنذار بجذبها من رأسها ملتـــهماً شفتيها بشغف ضارباً عرض الحائط بكل الأصول واللياقات التي تمنع التقبيل في الأماكن العامة وأمام الغرباء... لحظـــات وأبعدت نفسها عنه معترضة على ما حدث خائفة مـــن أن يكون قد رآهما أحد... ليقول إنه لم يستطع منع نفسه مـــن لمسها وإنها إن كانت تعيش على ذكرى قبلة كما أخبرتـــه مرة، فلتكونا قبلتين... خرجا من المطعـــم دون كـــلام... ودّعته وانصرفت بسيارتها... خمس دقائق مـــرت قبـــل أن يعودا إلى التواصل. سألته عما ينوي فعله فقال لها إنه ذاهب إلى البيت... صمتا لبعض الوقت فسألته مجدداً: هل ألحـــق بك... ليجيبها بأنه يتمنى ذلك... ودخلت غرفته بعد ســـتة أشهر من خروجها مرتجفة منها... دخلت وعينـــها علـــى سريره، وسؤال حارق تكاد تنطقه...

- 14 -

الحل الأمثل لوضع عيسى كان في انتقاله إلى التعليم المهني... قام والدي بتسجيله في معهد صور المهني الرسمي ليدرس المحاسبة على أمل أن ينجح فيها...

* * *

عدت للاستقرار في بيروت مع بداية الفصل الدراسي لتستقبلني رنا بدعوة على الغداء في بيتها... هي التي افتقدتها خلال الصيف لكوننا لم نلتقِ سوى لمرات معدودة بسبب سفرها مع والدتها إلى عدد من البلدان الأوروبية... ورغم وعدها المتكرر لي بزيارتي في صور إلا أنها أخلّت به...

عرّجت على محل للشوكولا لأشتري هدية أقدمها لأم رنا... فمن أصول الأتيكيت التي قامت أمي بتزويدي بها خلال تلك الفترة ألاّ أدخل أي منزل للمرة الأولى دون هدية وأن لا أدخل أي منزل ولو لعاشر مرة دون هدية إن كنت مدعوة فيه على الغداء أو العشاء...

فتحت لي الخادمة الباب وخلفها كانت رنا خارجة من غرفتها على وقع صوت الجرس لاستقبالي:

- أهلاً عبير... ضمتني إلى صدرها وقبّلتني... اشتقت كثيراً...
- وأنا أيضاً اشتقت إليك... أين والدتك؟
- لا تزال في المطبخ تشرف على إعداد الطعام... تعالي نجلسْ في غرفتي إلى أن يحين وقت الغداء.
- حسناً، ولكن ألا يجب أن أسلم عليها... هل يمكننا الدخول إلى المطبخ.

بابتسامتها الجميلة قالت لي:

- تعالي.

سرت خلفها وأنا أتأمل بيتهم الكائن في الرملة البيضاء بمدخله الكبير وأناقة أثاثه، من الكونسول الذي وُضِع بمواجهة الداخل إليه، إلى الباب الضخم الذي كان يشير إلى وجود الصالون وغرفة السفرة... وصولاً إلى المطبخ المزوّد بأحدث الأجهزة... كانت فخامة بيتهم توازي فخامة بيت الجدة... للحظات شعرت بالخوف من رأيها فيّ... هل سيتغير عندما ستزورني في صور... في بيتي المتواضع المكون من غرفتين للنوم مع حمام يتوسطهما وصالون واحد ومطبخ صغير... بأثاثه البسيط... بيتي الذي لا ثريات فيه ولا

سجاد فاخر ولا لوحات لأشهر الرسامين ولا تحف ولا أجهزة إلكترونية للرفاهية... بيتي الذي تقوم أمي بتنظيفه بيدها وطبخ وجباته بنفسها والاهتمام به وحدها... بيتي الذي رسمت له الديكورات الجميلة أثناء مراهقتي والتي بقيت مجرد أحلام على الورق... هل تعلم رنا بأنني لم أمتلك غرفتي الخاصة إلا منذ سنة فقط... هل يجب أن أفرح لأنها لم تأتِ إلى صور... أم يجب أن أصر على زيارتها لأعلم كيف تفكر أو كيف ستفكر بي... أفكار كثيرة كانت تدور ببالي وأنا أتخطى العتبة لأرى أمها للمرة الأولى... امرأة في أوائل الأربعين من عمرها... أنيقة، حنطية اللون، عسلية العينين تماما كابنتها ولكن شعرها كان أشقر جراء الصبغة... الفرق بينهما كان في النظرة... أمها ذات نظرة باردة تكاد تشعرك وأنت معها أنك في لقاء مع مبعوث دبلوماسي أو مع مدير مدرستك، أما رنا فالطيبة تنطق من وجهها وحركات يديها وتصرفاتها ونبرة صوتها.

على المائدة قمت بمراجعة سريعة لكل قواعد الأتيكيت التي بتّ أعرفها وتصرّفت على هذا الأساس لتأتي النتيجة بأن أخذت أم رنا بالثناء على سلوكياتي وهدوئي في تناول الطعام... سألتني عن عائلتي، وعن والدي ودهشت حين أخبرتها أنه موظف حكومي. سألتني عن إخوتي فأجبتها مشددة على اسم زوج عليا لعلمي بأن عائلته شهيرة بثرائها،

وكما توقعت أبدت اهتماماً بالموضوع لدرجة أنها ابتسمت في وجهي...

* * *

ألّمت بـي الدهشة وأنا أستمع إلى عماد وهو يسـألني عبر الهاتف:

- هل تتناولين اللحم في بيت جدتك... هل يـأتون باللحم الحلال؟
- ماذا؟ لم أفكر بأمر كهذا من قبل. كل ما أعرفـه أنني أتناول طعاماً نظيفاً ولذيذاً...
- عليك أن تسأليهم عن الأمر. لا تخجلي؛ إنه دينك وأنت تمارسين شـعائره كمـا يمارسـون هـم شعائرهم... عبير هل يشربون الخمـر أمامـك؟ أجيبـي.
- يا الله يا عماد ما الذي تقوله هل جننت... هـل تريدني أن أسأل جدتي من أين تأتين بـاللحم وأن شربك كأساً من النبيذ ممنوع أمامي... إنها حرة، إنه بيتها وأنا الضيفة عندها... ثم من قال لك إنني اعترض على هذه الأمور... وهل تربينـا علـى ذلك... كما أن أبـي لم يعترض لأنه لا يفكـر مثلك.

أجابني عندها بحدة:

- لا بد أنه يفكر مثلي.

لأرد عليه بالنبرة المرتفعة ذاتها:

- لا... لا أعتقد وكأنك بت لا تعرفنا... هل نسيت عندما قال مرة لأمي إنها إن أرادت الشرب فسيأتيها به، ولكنها لم تكن تريد زيادة مصاريفنا... لا أدري من تعاشر في غربتك ولكنك قد تغيرت كثيراً؟
- لقد تغيرت للأحسن... لقد هداني الله لأكون إنساناً صالحاً أراعي ديني وأحترمه.
- وهل نحن لا نحترم الدين... أنا أحترم جميع الأديان لعلمك... ولا أفضل ديناً على آخر. كلنا سواسية وكلنا من طين... لو كنت وُلِدت من أب مسيحي هل كنت ستقول ما تقوله؟
- لكنت عرفت الإسلام وأسلمت لأكون على الطريق الصحيح.
- آه... أتريد القول إن من يتبعون باقي الأديان ليسوا على الطريق الصحيح... أمك ليست على الطريق الصحيح.
- أمي كان عليها أن تكون مسلمة منذ تزوجت أبي... الحق عليه الذي لم يدخلها في

الإسلام... بكل الأحوال أنـــا في العـــام القـــادم سأذهب إلى الحج وبعدها مباشرة سآتي إلى لبنان وسيكون لي حديث معها...

- أنت مجنون... هل تظن أن أبـــي سيوافق علـــى هذا الهراء الذي تتفوّه به... ثم ما الذي يزعجـــك في أمنا؟ أنسيت أننا عنـــدما تعلمنـــا الصـــلاة في المدرسة وكنا نصلي أمامها لم تقل شيئاً، بل على العكس كانت تردد دائماً أن الـــدين بأخلاقياتـــه سيشكل حماية ورادعاً لنا من أمور كثيرة... هـــل اعترضت مرة على صيامنا في رمضان... كانـــت تقف طوال النهار لتحضر لنا الإفطار.
- ولكنها لم تجرّب الصيام.
- ولِمَ عليها أن تجربه... هي غير ملزمة بذلك...

بغضب مبدياً نفاد صبره:

- النقاش معك لا يفيد. على العموم عندما ســـآتي إليكم سيكون لكل حادث حديث.

حاولت أن أكون هادئة وأنا أرد عليه:

- حسناً، أتمنى عليك من الآن ولغايـــة قـــدومك أن تتمالك أعصابك ولا تحدث أمي أو تسألها عـــن هذه الأمور... أرجوك يا عمـــاد لا أريـــدك أن تضايقها.

- أنا لن أضايقها، أنا أريد أن أهديها.
- حتى لو كنت تفكر هكذا، أرجوك ستهديها وجهاً لوجه وليس عبر الهاتف.

انظر إلينا اليوم لقد أخذنا الوقت وقضيناه في النقاش الذي لا يجدي شيئاً، و لم أسألك عن أحوالك وعن عملك، و لم تسألني كالعادة عن الجامعة و لم أحدثك عن أي فرد من العائلة...

صمت قليلاً قبل أن يقول لي:

- إذاً... كيف الحال معك؟
- بخير...

* * *

عليا أيضاً أصبحت غريبة عني... أو غريبة بالنسبة إليّ. لا أدري كيف أصفها أو أصف ما انتابني من شعور أثناء حديثي معها... عليا التي ارتدت الحجاب بعد سفرها إلى السعودية إسوة بالنساء اللواتي عاشرتهن لم تكن تصلي... و لم تكن ملتزمة بأصول الدين... هذا ما كنت أعرفه عنها وما كانت لا تزال عليه، فلماذا الحجاب إذاً؟ برستيج؟ وسيلة إقناع؟ غيرة من بعض النساء؟ أو إرضاء... ولكن لمن؟ إن لم تكن ترضي ربك وتفكر فيه وفي ثواب وعقاب ما تفعله، وما لم تقم به من شعائر أوجبها عليك فلماذا تقوم

بها إذاً، وإرضاء لمن؟... سألتها ونحن في سيارتها الرانج الجديدة بينما كنا ذاهبين إلى محل بيع الأقمشة لأساعدها في انتقاء قماش لصالونها الجديد، وأيضاً لكونها تقوم بتغيير ديكور وأثاث بيتها بشكل مستمر... ولكوني كنت المهندسة المستقبلية:

- عليا... هل كلّمك عماد مؤخراً؟
- أجل... لِمَ تسألين؟
- هل سألك عن جدتنا.
- إلى ماذا تلمحين؟
- لا... لا شيء.
- حسناً، حدثني وسألني وأخبرني عما دار بينكما أيضاً.
- وما رأيك في الأمر؟
- رأيي أننا في النهاية مسلمون وعلينا أن نراعي مظاهرنا الدينية وشعائرنا أمام الغير.

رددت عليها باستغراب كان واضحاً على وجهي:

- آه... وهل تراعينها أنت؟... وهل تلتزمين بها؟... هل أفهم أنك توافقينه على ما يقول...
- القصة ليست قصة موافقة أم لا... أنا في الحقيقة لا أهتم كثيراً... ولكن علينا أن نكون حذرين أمام الغرباء...

- لم أفهم شيئاً.
- سأعطيك مثلاً... أيمن يشرب الكحول.
- أجل، أعرف.
- ولكنه لا يشربه في الأماكن العامة... يشرب الكحول في البيت، وخلال سفره إلى أوروبا، وأحياناً في بيت الجدة.

أجبتها وقد بدأت بالغضب من المنطق الذي كانت تتكلم به.

- إذاً... بالنسبة إليك الدين ستار... قناع تضعينه على وجهك عند الحاجة... أنا يا عزيزتي لا أستطيع أن أكون مثلك ولا أريد أن أكون. ولعلمك أنا أعلم وأجزم بأنك لا تصلين.

ضحكت بصوتٍ عالٍ وقالت:

- ولِمَ تتكهّنين عن الأمر؟ كان بإمكانك سؤالي وكنت سأجيبك بأنني لا أقوم بذلك فأنت في النهاية أختي... الأخت لا تتكلم بالسوء عن أختها أمام أحد فكيف إن كانت أنت... يا عزيزتي كل ما أردت قوله هو أن عماد لديه معتقداته الخاصة فدعيه يعشْ بها... ما الضرر إن قلت له إنك مثلاً لا تأكلين من اللحم عند الجدة إلا بعد سؤالها عن مصدره والتأكد بأنه حلال... وللحقيقة هي تأتي

به من الملحمة التي نتعامل معهـــا أي أنـــه فعـــلاً حلال...

- لا يمكنني ذلك حتى وإن كان حـــلالاً.. القصـــة ليست قصة لحم أو بيض أو طعام يا عليا... القصة قصة مبدأ... لا يحق له أن يفرض رأيه علينـــا أو على أي شخص... لكل إنسان رأيـــه الخـــاص ومعتقداته... وكما نحن لا نتدخل به لا يحق لـــه التدخل بـــي أو بغيري... أنا لن أكذب لأجامله أو لأرضيه ولماذا أفعل ذلك؟ أَوَليس ربـــــي أولى بهذه المجاملة...

صمتت و لم تجب، وكنا قد وصلنا إلى المحل... استقبلنا صاحبه بالترحاب، وكيف لا، وعليا زبونة دائمة عنـــده... انتقيت لها قماشاً من المخمل خمري اللون وقماشاً آخر من النوع ذاته تزينه الورود وكانت معجبة وراضية...

-15-

حدث ما حدث، وعادت أدراجها، ولكن للشـــوق أحكامه حين يهب في وجهها ويبقيها ساهرة طوال الليـــل. تريده هي كأنثى عاشقة حتى آخر حدود العشـــق، ومـــرة واحدة لم تكفها، لقاء واحد لم يشبعها. تريد أن تراه مجدداً، أن يعريها ويتعرّى أمامها، أن يتحد معهـــا، أن يعيـــد لهـــا أحاسيس تاهت مع الزمن منها. ولكنها لم تطلب ذلك منه وانتظرت إلى أن سألها في إحدى الليالي:

- متى سأراك؟
- عندما تشتاق إليّ.
- إذاً تعالي الآن.
- ههههه... نتفق لاحقاً...

... ومرة أخرى دخلت بيته بعد أن أجّل موعد عمل لديه كما زعم وكما كانت تحاول أن تصـــدق... لاغيـــة حدسها. دخلت بيته فأخبرها أنه متعب جداً، جلس علـــى الكنبة وجلست بجواره، أغمض عينيه ففاض حنانها وشعرت

به كطفلها الشقي لحظة قدومه من رحلة مدرسية أنهكت قواه. اختفت أي رغبة لديها وحلت مكانها أمومتها. طلبت منه الاستسلام للنوم ليريح نفسه فقال إنه سيستلقي في سريره ولتجلس بجانبه، كان يمسك بيديها وكأنه خائف من أن يفتح عينيه فلا يجدها أمامه... سعادة غامرة مرت بها وهي تحتضنه مغمض العينين على صدرها، تلمس جبينه ورموشه وأنفه ورأسه وتقبّله قبلات خاطفة، تهمس له كم تحبه وتشد عليه تريد أن تحميه حتى من أنفاسها... بعد قليل بدأ بتقبيلها، بتعريتها ومداعبة صدرها فبدأت حواسها بالانقلاب عليها وبالاستسلام له... أخبرها أنه معها فقط يعرف ما هي المشاعر الحقيقية وأنها مختلفة عن كل من عرفهن من نساء... رائع كان في لمساته في كل ما يفعله... عاد إليها عقلها للحظات ولكنها قامت بطرده... تريد أن تبقى على حالها من الإثارة التي تحركها وهو كالنار المشتعلة بداخلها... مدهش كان الوقت الذي قضته معه، ومؤلم على قدر السعادة التي منحها لها لعلمها أن هنالك أخريات في حياته غيرها...

قام ليستحم، أخذ بحلاقة ذقنه، سألها عن رأيها في قميصه، رش العطر على نفسه وأخبرها أنه هدية وأجاب على سؤالها أنه من امرأة تعرف إليها مؤخراً واستفاض وهو يعدد هداياها، وسقط قلبها أرضاً وهي تضيف أخرى إلى

قائمة غرامياتها... سألته عن مدى علاقته بها فأجاب باقتضاب بأنها مجرد صديقة، فعادت لتسأله إن كان يعاشر امرأة غيرها فنفى ذلك قائلاً بعد أن اقترب منها إن من يكون معها لا يستطيع بعد ذلك أن يكون مع امرأة أخرى ولكنها لم تصدق كلامه... كانت تراقبه وتفكر... أي قلب لديه هذا الذي كانت تحتضنه منذ لحظات كوليدها؟... أي حب مجنون هذا الذي يجعلها تهين نفسها إلى هذه الدرجة؟ تضرب بعرض الحائط كل مبادئها؟ تنحني أمام عشق لا يوفيها حقها من مشاعر متبادلة... أرادت أن تصرخ به أن تقول له إنها إنسان قبل أن تكون امرأة... ولكنها صمتت لأن كل ما يحدث كان بإرادتها... صمتت لأنها حذّرت نفسها قبل ذلك بأن هذه العلاقة ستدمّرها...

-16-

مر الوقت سريعاً وبدأت عطلة الميلاد وعيد رأس السنة والتي كنت أقضيها في الجنوب.

وفاء لعهدها أتت رنا لزيارتي في صور التي وطأتها قدماها للمرة الأولى. دخلت بيتي بعد أن كنت قد دخلت بيتها لمرات ومرات... تعابيرها التي نمّت عن الدهشة وهي تتجاوز عتبة بنايتنا التي لا مصعد كهربائي لها كانت واضحة بالنسبة إليّ وإن حاولت بجهد إخفاءها... افتعال الراحة الذي مارسته ونحن نأكل طعام الإفطار لم أصدقه كباقي العائلة لأنه مصطنع ولأنني أعرفها جيداً... رنا ليست بالفتاة السخيفة أو المتكبّرة ولكنها في المقابل لم تعاشر متوسطي الحال من قبل... لم تعتد الدخول لبيوت لا خدم فيها ولا تدفئة مركزية... لم تضطر سابقاً للتفكير بأن شراء سيارة يتطلب ميزانية وادخاراً لأعوام أو قرضاً من البنك...

نزلنا الدرج برفقة عيسى وعايدة ومحمد الذي لم يعد يفارقها للقيام بجولة سياحية في المدينة على شرف الضيفة

رنا. بدأنا من آثار الملعب الروماني الذي كانت تعرفه فقط من الصور... صعدنا للجلوس على درجاته العريضة وما لبثنا أن أكملنا إلى الأعلى... وقفنا نرنو إلى البحر ونلتقط الصور للتذكار بعد أن أخذ عيسى على نفسه مهمة الدليل السياحي متوجهاً بحديثه إليها لكون كل ما قاله كنا نعرفه وحفظناه سابقاً عن ظهر قلب:

صور يا عزيزتنا رنا من أهم المدن الفينيقية، هي التي سميت بأم المدن وسيدة البحار... هي التي قال عنها الإمام الأوزاعي إنها مباركة مدفوع عنها الفتن... ألم تسمعي يا رنا من قبل عن الإله ملكارت الذي بنى له الملك حيرام معبداً لإيمانه بأنه هو الحامي للمدينة وعن عشتروت إلهة الحب والخصوبة؟... ألم تقرأي في كتب التاريخ عن صور التي اشتهرت بصناعة الزجاج الشفاف واللون الأرجواني؟ هل تعلمين مثلاً أن متحف اللوفر يحوي ضمن معروضاته تمثالاً من الزجاج الصوري الأبيض لسمكتين؟... أنت اليوم في مدينة الحرف التي نشرت الأبجدية في العالم وأعطت ابنتها أوربا اسمها للقارة... صور التي حاصرها الملك البابلي نبوخذ نصّر لثلاثة عشر عاماً وبقيت عصية عليه... هذه الجميلة التي لم تخضع للإسكندر على غرار المدن الفينيقية الأخرى وبقيت تقاومه سبعة أشهر قبل أن يقوم بردم البحر ليصل صور البرية بالبحرية ويحتلها بمساعدة سفن صهيون...

صور التي بنى فيها الرومان قوس النصر الذي ترينه أمامك وهذا الملعب الكبير الذي نقف الآن على مدرجاته...

كان تنصت إليه باهتمام قبل أن يقاطعهما محمد سائلاً:

- ألم ينتهِ درس التاريخ الذي تقوم به؟... لقد ملت المخلوقة منك ومن التاريخ.

لترد عليه رنا بكل حماسة:

- لا على العكس. أنا أستمتع بما يخبرني به.. دعه يكمل...

ما دفعني للقول:

- ما رأيك لو نذهب لرؤية الآثار البحرية لنكمل لك تاريخ صور من هناك...

سيراً على الأقدام مررنا بشوارع المدينة وأهمها في تلك الفترة شارع (أبو ديب) الذي شرحت لها كيف يعج كل مغيب بالسيارات وبمن فيها من شباب وصبايا ليقطعوا الشارع الطويل المزدحم ببطء شديد ذهاباً وإياباً بهدف إلقاء النظرات الولهى والإشارات وسواها من حركات العشاق والمعجبين بعضهم لبعض...

دخلنا الآثار لنريها عظمة الأعمدة المنتشرة على طول الخط وصولاً إلى الشاطئ... بهرتها الأرصفة المصنوعة من الفسيفساء البيزنطية ما دفع عيسى ليكمل لها عن العصر البيزنطي لصور الذي عرفت خلاله الازدهار وبأنه كان

لأسقف المدينة في ذلك الوقت مركز الرئاسة على جميع أسقفيات المدن الفينيقية الأخرى. وكيف دخلها المسلمون بعد ذلك لتزداد ازدهاراً وتطوراً في ظل الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين... وكيف احتُلّت من قِبَل الصليبيين ثم المماليك والعثمانيين إلى أن باتت جزءاً من دولة لبنان الكبير بعد الحرب العالمية الأولى...

هنا تنفّست عايدة الصعداء قائلة:

- أخيراً وصلنا إلى القرن العشرين... أظن يا عيسى أننا انتهينا.

لترد رنا:

- في الحقيقة تاريخ هذه المدينة مشوق جداً...

ثم التفتت إلى عيسى:

- عيسى... قلت إنك ستحدثني عن أليسار ملكة صور ولم تأتِ على ذكرها.
- آه... فعلاً لقد نسيت... حسناً اسمعي الآن عن أليسار.

عدنا للسير مجدداً في المدينة، ولكن هذه المرة كان توجهنا نحو الميناء الذي مررنا به مسرعين لبرودة الطقس ولهواء البحر البارد الذي كان يلفح وجوهنا... دخلنا إلى السوق الشعبية نسير تحت المظلات بعد أن بدأ المطر يتساقط بشكل خفيف... عيسى ورنا في المقدمة، هو يقص عليها

وهي تستمع... وأنا خلفهما ووراءنا العاشقان عايدة ومحمد يتباطأن ليتمكنا من الحديث على انفراد لأطول وقت ممكن...

سمعت عيسى يقول:

- هي أليسار ابنة ملك صور التي عاشت في القرن التاسع قبل الميلاد وعُرِفت بجمالها وسحرها وجاذبيتها... بعد وفاة والدها قام أخوها بيغماليون بقتل زوجها كبير الكهنة خوفاً من تنصيبها ملكة على المدينة... فهربت هي وحاشيتها بكل ما تملك من مجوهرات وكنوز لتحط الرحال على الساحل الأفريقي. هنالك استقبلها ملك البربر استقبالاً يليق بها وذلك طمعاً في التقرب منها لثروتها أولاً ولجمالها ثانياً... طلبت منه قطعة ارض لتبني عليها مملكتها فرفض قائلاً إن الأرض لا تُملّك للغرباء فأخبرته أنها تريد قطعة بحجم جلد ثور فقط... كان طلبها غريباً ولكنه وافق منتظراً النتيجة... هنا ولشدة ذكاء تلك المرأة أمرت بإحضار جلد الثور وقطعته خيوطاً رفيعة جداً وربطتها ببعض قبل أن تحيط قطعة أرض بها... هذا الدهاء أعجب ملك البربر وأدهشه فسمح لها بامتلاكها لتقيم عليها مدينة قرطاجة العظيمة...

كانت أليسار ملكة قرطاجة حديث الناس وفخر شعبها... أراد قيصر الروم الزواج بها ولكنها رفضته... وتقدم لها ملك البربر فرفضته هو الآخر وفاء لعهد زوجها فهددها بتدمير المدينة وتشريد أهلها إن لم تتزوجه... فما كان من أليسار الوفية لعهودها وحبها إلا أن رمت بنفسها في النار لتموت حرقاً فداء لأهالي مدينتها الذين دُهِشوا لحبها لهم ولتضحيتها العظيمة لأجلهم فجعلوا منها إلهة، ومن قصتها أسطورة تُروى عبر الأزمان...

- يا الله كم هي جميلة قصة أليسار يا عبير... ألا تظنين ذلك؟
- بلى يا عزيزتي أظن.
- ولكنها لم تؤثر فيك.
- رنا... هذه هي المرة المليون وواحد التي أسمع فيها هذه القصة. لذا اصمتي أرجوك.

ضحكت رنا من قلبها، وكنا قد وصلنا في جولتنا إلى حارة صور القديمة لأتولّى الشرح بنفسي أن هنالك حارة للمسلمين تضم جامعاً للشيعة وآخر للسنة وحارة للمسيحيين يوجد فيها كنيسة للموارنة وأخرى للكاثوليك تعد من أقدم وأجمل وأهم كنائس الشرق والتي أُقيمت كما يُقال على آثار لكنيسة صليبية شُيّدت أيضاً على آثار لكنيسة بيزنطية... والحارتان متلاصقتان وقد اعتاد أهاليهما

على العيش سوياً في جو من الوفاق الوطني النادر في بلدنا... سرنا في أزقة الحارتين الضيقة ورنا تتأمل البيوت الحجرية القديمة... مررنا بحارة المسلمين أمام ما كان يوماً بيت جدنا ذو السقف المرتفع والبلاط الفخاري الذي يزين أرضيته... وقفنا عند مدخله نستعيد الذكريات والنوادر، ونقص عليها الحوادث التي حصلت معنا في حديقته وبين جدرانه... البيت الذي تم بيعه بعد وفاة الجد لعدم وجود من يريده أو يريد السكن فيه، ولضيق الحال...

وعند وصولنا إلى الحارة المسيحية كان لا بد من زيارة صديقة العائلة أم طوني التي استقبلتنا بالترحاب وأبت إلا أن نشرب من الشاي بالزنجبيل الذي أعدته، والذي كنا فعلاً نحتاج إليه في ذلك النهار الشتوي الطويل...

* * *

في الطرف الآخر من العالم كان عماد متربعاً على الأرض في الجامع بعد انتهائه من عمله حاملاً السبحة وقد أطال لحيته فبدا غريباً حتى عن نفسه... كان سارحاً يفكر في وعده الذي يتكرر كل عام لعائلته أنه سيأخذ إجازة ويأتي إلى زيارتهم، ولعلّه أيضاً يلتقي بابنة الحلال ليكمل نصف دينه.

-17-

رغم شكها الدائم به، ولومها له على ما يفعلــه ومــا يصوّره لها خيالها؛ ورغم الغيرة التي باتت ضيفاً دائماً علــى مشاعرها... رغم كل شيء كان بالنسبة إليها واحة أمــان تستظل فيها من غدر الزمن.. تهب عليها نســائم عشــقه فتحولها من جماد إلى امرأة برغبات متقدة تحار كيف تداريها فيضحك من خجلها... اعتادت عليه وعلــى تواصــلهما المستمر الذي عاد ليبدأ بــ (صباح الخــير) ولا ينتــهي إلا وقت النوم...

لقاءات البيت استمرت أيضاً لتزيد كما توقع سابقاً من تعلّقهما أحدهما بالآخر... كانت بين ذراعيه كالبحر الهائج الذي لا يهدأ إلا بعد أن يبلغ الشاطئ... لم تشبع منــه و لم يشبع منها... سألته مرة وهو يمرّر يده على جسدها بهــدوء وحنان عن أكثر ما يعجبه فيه فقال "ملمسك... مخملي... ناعم جداً" فعادت لتسأله مستغربة إن كان للنساء ملمــس آخر... ليجيبها بإيماءة من رأسه قبل أن يعود ليقبّل عنقها...

وقال لها مرة وهو نائم على سريره ينظر إليها وهــي تقوم بتسريح شعرها استعداداً للرحيل "يوماً ما ستملين مني وستبدأين بالهروب من اللقاء"، فضحكت مؤكدة أن الأمر مستحيل. سألها "لِمَا لا تتركيه... لِمَ لا تكونين حرة؟"... سؤاله كان حزيناً ولم يكن ينتظر منها جواباً لعلمه برأيهــا المسبق في الأمر وبصعوبة التحرر من أسرها ومجتمعها وأهلها وكل محيطها... شعرت به عاشقاً فأربكتها مشاعرها الــتي كانت متضاربة ما بين الحزن والفرح. هل تسعد لعواطفــه الجياشة أم تحزن لأنهما وصلا إلى مرحلة بات الخروج منها صعباً ومتعباً على كليهما والبقاء فيها يوازيهما تعقيــداً... على الباب وكالعادة كانت تقبله قبلة الــوداع فاحتضــنها لتشد عليه بكل قوتها وكأنها تريد أن تدّخر رائحته فيها إلى أن تعود وتلقاه... سألها "لما لا تبقين معي؟..." ابتســمت بحزن مؤكدة أمراً يعلمه بأنه لا وقت لديها... كانت تشتاق إليه وهو أمامها، وفي كل خطوة تبتعد فيهــا عنــه يــزداد شوقها، فتلتقط هاتفها لترسل "اشتقت إليك" وهي لم تكد تخرج من بوابة المبنى الذي يسكن فيه.

-18-

على باب المطبخ وقفت عايدة تسأل محمد الذي كان يقوم بتنظيف الأواني:

- هل أساعدك؟
- لا حبيبتي... فقط حضري الشاي لنا... سأنتهي خلال دقائق...
- حسناً... هل اعد فنجاناً لخالتي أيضاً؟
- لا، أمي نائمة... عادت اليوم من الدكان وهي متعبة جداً ودخلت مباشرة إلى غرفتها.
- ألم تسلْها ما بها؟ لربما كانت مريضة... يا لبرودتك... سأدخل لأراها.

ترك محمد ما يقوم به وأمسكها بيده المبلّلة بالماء قبل خروجها من الغرفة قائلاً:

- لا... لا تفعلي... سأكلمها لاحقاً.
- ولِمَ ذلك؟
- أنا أعرف أمي جيداً... في مثل هذا اليوم توفي

والدي... الذكرى رغم مرور أعوام عليهـــا مـــا زالت تحزنها وتضعها في حالة نفسية سيئة...

- آه... فهمت... محمد، ألا ترى أنك تبللني بالمياه؟

نظر مباشرة إلى عينيها وأمسكها باليد الأخرى ومـــن دون مقدمات قام بتقبيلها على شفتيها... قبلة خاطفة بريئة وبدلاً من تجاوبها معه وقفت جامدة وهي تقول:

- ما الذي فعلته؟
- ما الذي فعلته؟ قبّلتك... هل لديك اعتـــراض... عايدة ما بك؟
- إنها المرة الأولى التي تقبّلني فيها.
- ولن تكون الأخيرة.
- بلى ستكون.
- عايدة، لم نعد أطفالاً. وبعد تخرجي سأتقدم إليك وســـتكونين خطيـــبتي وزوجـــتي وأم أولادي ومساعدتي وشريكتي وكل ما لديّ...
- أحب أحلامك؟
- أحلامي التي ستتحقق طالما أنت بجانبـــي.
- أجل... أنا في الحقيقة قررت دراسة الحقوق مثلك بعد انتهاء الثانوية.
- ظننتك تريدين دراسة الهندسة أو الطـــب. أنـــت ذكية جداً وعلاماتك ممتازة بالمواد العلمية.

- وإن يكنْ، أريد البقاء معك... ثم إنني أحببت مادة الحقوق وفكرة الدفاع عن الحـــق تســـتهويني... سنكون فريقاً رائعاً؟ ألا تظن ذلك؟ ألا تريدني أن أعمل معك؟...
- بلى، على العكس أتمنى ذلك... أحبـــك عايـــدة أحبك جداً...
- وأنا أيضاً أحبك...

واقترب ليقبّلها مجدداً فصدته:

- محمد... لقد بلّلت لي قميصي. وأكملت وهـــي تشير بعينيها: وخزان المياه العزيز علينا سيفرغ...

فالتفت إلى المياه الجارية على الأواني قائلاً:

- وإذا ما فرغ الخزان وعرفوا السبب سأُقتل في هذه البناية...

فضحكا معاً وعادا لإكمال ما كانا يقومان به.

* * *

كان الطقس رائعاً في ذلك اليوم الربيعي الجميل الذي اجتمعت فيه العائلة... جلست مع عليا وعايـــدة نشـــرب القهوة في المطبخ الصغير فيما يلعب الولدان في الغرفة مـــع أمي... ومن حديث إلى آخر أخبرتنا عايدة أنها بعد حصولها على الشهادة الثانوية في السنة القادمة ستدخل كلية الحقوق

إسوة بمحمد... لم يكن الخبر مفاجئاً لي لأنني كنت أعلـــم بمدى العلاقة التي تربطهما وجديتها، ولكن الاشمئزاز الـــذي ارتسم على وجه عليا كان غريباً وهي تقول:

- ماذا... حقوق؟ ومثل من؟ محمد؟!

لترد عليها عايدة:

- نعم وما المزعج في الأمر؟ أنا أحب مادة الحقـــوق وبعد تخرجي سأعمل معه.
- ستعملين مع محمد بعد تخرجك أي صفة... هـــل هذه هي الحياة التي تطمحين إليها؟
- بصفة أنه حبيبـــي. بصفة أننا سنرتبط بعد تخرجه إن كنت لا تعلمين.
- ماذا... عندما عرفت بعلاقتكما ظننت الأمر لعب أولاد مراهقين، ولم يخطر ببالي أنك تفكرين جدياً بالارتباط به...

أخذ صوت عليا يعلو وهي تقول:

- ستنتقلين من الفقر إلى الفقر أيتها البلهاء... هـــل تعتقدين أن محمد قادر على شراء منزل لك... كل ما سيكون هو أنك ستسكنين في الشقة المقابلة مع أمه...

كانت عليا تنتفض وهي تتكلم صارخة في وجه عايدة التي أخذت ترد عليها بالغضب ذاته. وبينما كنت أحـــاول

الوقوف بينهما وتهدئة الوضع دخلت أمي:

- ما الأمر؟ صوتكما يملأ البيت! ما الذي حدث؟

لتقول لها عايدة:

- ابنتك لا يعجبها أمر ارتباطي بمحمد وقولي إنـــي سأدرس الحقوق مثله.

لتبدأ عليا بالكلام:

- هل توافقينها على ما تقول... هل تريدين لابنتك هذه الحياة... ألستِ أنتِ من أقنعني بأيمن وقلـــت لي إنّ علينا أن نعيش، وإن أيام الفقر يجـــب أن لا تمر على أولادنا، وإننا يجب أن نحكّـــم العقـــل في اختياراتنا...
- قلت لك ذلك ولكنني لم أغصبك على الـــزواج الذي كان أيضاً خيارك.
- نعم كان خياري وأنا أريدها أن تحذو حذوي... هذا الذي تتحدث عنه ستقضي عمرها تكافح معه ولن يصلا إلى شيء... ستكون نسخة عنك فهل أنت راضية بحياتك...

كانت تكمل كلامها بعصبية لم تستطع السيطرة عليها لدرجة أنها لم تَرَ وجه أمي وهو يشتعل من الغضب فأكملت:

- انظري إلى نفسك كيف كانت حياتك وكيـــف أصبحت بعد زواجك... هل نسيت أعوام الشقاء

والفقر وإلى الآن ما زلت تعانين، ولولا التركة من أبيك لما تحسن الوضع.. أنا الآن زوجة أيمـــن... وأشارت بيدها إليّ لتقول: وهي تدرس في الجامعة الأميركية والوضع تحسن فلِمَ سترتبط بشخص أقل من المستوى لتعيد نفسها إلى الوراء... هذه البلهاء التي تحب الفقر عليها أن تعلم أننا لن نقبل بهـــذا الأمر ولن تكون منا إذا تزوجته! هذا "المحمـــد" لم يعد يليق بنا...

وقبل أن تكمل كلامها إذا بيد أمي تنهال على وجهها وهي تقول:

- اخرسي.

الصدمة كانت مدوية أكثر من الصوت الذي أحدثته الصفعة على خدها... صمت الجميع... انهمرت دموع عليا وركضت لتحضر ولديها من الغرفة تاركة المنزل لتعترضها أمي:

- لم أكمل كلامي لترحلي مـــن هنـــا... دفعتـــها للجلوس على الكنبة:
- هذا المنطق الذي تحدثت به هو منطق جدك الذي فرّقني عن عائلتي لأكثر من عشرين عاماً... هـــذا الهوس بالمال الذي بات يسكنك لا أرضى به ولا أقبل أن يكون لي ابنه جشعة مثلك... نعم دفعتك

للزواج من أيمن لأنني وجدت وضعه مناسباً ولكن لو كنت تحبين شخصاً كمحمد لما اعترضت عليه... أختك عايدة تحبه وأنا أحببت أباك وأعلم بما تشعر به... الشاب يدرس الحقوق وطموحه كبير وهي ستساعده... وجميعنا سنساعدهما ولن نتركهما... كان الأجدى بك أن تقفي معها لا أن تقفي في وجهها...

* * *

11 نيسان 1996، ذلك اليوم الربيعي كان كارثياً... في الرابعة والنصف فجراً بدأ القصف على موقع للجيش في صور وعلى السيارات المدنية... استيقظ الأهالي على الذعر الذي باتوا يألفونه... تطور الوضع خلال ساعات النهار... عادت العائلات لتحزم أمتعتها إما للهرب من المدينة باتجاه بيروت، رغم إعلان وزير خارجية العدو باراك أن لا مكان بمنأى عن هجماتهم، وإما للملاجئ... اتصلت أنا وجدتي بالمنزل وبدأنا للمرة العاشرة بالتوسل إليهم للحضور والبقاء معنا... عايدة التي كانت تخشى الابتعاد عن محمد أصابها الانهيار فجلست تنتحب رافضة ترك المدينة... دقت أم محمد وابنها بابهم فأخبرتها أمي بعزمهم على التوجه إلى بيروت وطلبت منها أن يحضرا معهم، ولكن أم محمد رفضت لإيمانها

بأننا لن نعيش أكثر مما كُتِب لنا والأجل سيأتينا أينما كنا... محمد بدأ بتهدئة عايدة شاداً على يديها قائلاً إنه يفضل أن تكون بأمان وإنه لن يترك المدينة بسبب عمله التطوعي مع الصليب الأحمر فالواجب الإنساني يناديه... حماسه ألهب حماس عيسى ليعلن أنه لن يرحل معهم وسيبقى لمد يد المساعدة لمن يحتاج إليها كمحمد، لتوافق أمي على مضض وليشعر أبي بالفخر لأن ابنه الصغير المدلل قد أصبح رجلاً، وليقرر هو الآخر البقاء في المدينة لمساعدة الشباب على أن نرحل نحن النساء عنها... أبو خليل قرر الخروج بعائلته من صور باتجاه أقرباء له في الضاحية رغم أن العدو كان قد قام بإطلاق صواريخ موجهة بالليزر على أبنية في حارة حريك...

* * *

توالت أيام الحرب لتتوالي المجازر الإسرائيلية على المدنيين الذين أنذرهم بإخلاء قراهم المتاخمة للحدود لتقوم قبل انتهاء مدة الإنذار بقصف السيارات المدنية مخلفة المجزرة تلو الأخرى بحق الأبرياء الذين لم يشفع لهم حتى سيارات الصليب الأحمر التي كانوا يتنقلون فيها...

دق جرس الهاتف في بيت الجدة لترد عايدة التي كانت ملاصقة له طوال الوقت تنتظر أي مخابرة ممكنة من محمد للاطمئنان:

- عيسى... ما الأمر ما الذي حدث... أخبرني أرجوك تكلم ما الأمر؟!

صوتها المرتجف والخائف دفعني لانتزاع سماعة الهاتف منها بالقوة لأسمعه وهو ينتحب كالأطفال...

- ما الأمر... ما الذي حدث؟
- عبير يا عبير..
- عيسى ما الأمر؟ أرجوك أخبرني هل أنت بخير؟ هل أبي بخير؟ هل محمد بخير؟ هل الجميع بخير؟ ما الذي حدث؟ أرجوك توقف عن البكاء وأخبرني.
- آه يا عبير، آه لا أستطيع... آه لو كنت هنا كنت ستبكين أكثر مني... آه يا عبير لقد رأيتهم يحترقون... يصرخون من الألم... جثث متفحمة سوداء... لقد احترقوا يا عبير... الطفل الرضيع احترق... لقد قتلونا يا عبير، قتلوا الأطفال والنساء.. آه يا عبير... كانوا في حمى قوات الطوارئ الدولية و لم يرحموهم...

كنت أستمع إليه وعايدة تقلب في القنوات التلفزيونية نحاول أن نفهم ما الذي حدث وما الحاصل في الجنوب في مدينتنا في قلب الأحداث... تلك الحالمة على شاطئ المتوسط ما الذي حل بها؟ ما الذي أنهكها؟ تلك الرائعة أتستحق كل هذا العذاب.

كنا في اليوم الثامن لعملية عناقيد الغضب التي شنها العدو علينا خارقاً اتفاق أيار 1993 وهدفه كالعادة ضرب المقاومة اللبنانية. كانت الساعة الثانية ظهراً عندما وصل العنف الإسرائيلي إلى ذروته، أكثر من خمسمائة شخص من قرية قانا والقرى المجاورة لها تجمعوا طمعاً بالأمان داخل عنابر خاصة بالقوات الفيدجية الدولية، ظناً منهم أن العدو لن يقصف مركزا تابعاً للأمم المتحدة، لتقوم المدافع الصهيونية بالقصف المباشر عليهم مشعلة النيران بالأطفال والنساء والعجائز ليستشهد ويجرح أكثر من 250 مدنياً دفن ثمانية عشر منهم مع عبارة مجهول الهوية...

فاجعة جعلت عيسى يُصاب بالانهيار العصبي ومحمد يبكي بصمت وهم ينقلون الجثث والجرحى إلى المستشفيات المحلية... ووضعتنا نحن وجميع اللبنانيين في حالة من الذهول فرضت علينا التكاتف الوطني جراء الصدمة والألم لهول المجازر التي كانت حاصلة والتي توجتها القوات الإسرائيلية بمجزرة قانا... قانا الجليل التي مر بها المسيح وبارك أرضها... قانا التي حول المياه في أعراسها نبيذاً لتشهد على معجزة من معجزاته...

استمر العدوان ستة عشر يوماً قبل وقف النار وإعلان تفاهم نيسان.

* * *

عادت إيمان لتسكن بيت أهلها وعلى يـــدها طفلـــها الصغير بعد وفاة زوجها. الخلاص كانت ضريبته غالية، ها هي الآن أرملة ترعى ابنها اليتيم وتحلم بالبـــدء بالدراســـة الجامعية.

حل الصيف لأنهي السنة الثانية من هندسة الـــديكور بتفوق كالعادة... أما عيسى، ولدهشتنا، كان هو الآخـــر ناجحاً في دراسته في المهنية... عليا عادت إلى السعودية مع زوجها بعد رحلة استجمام قامت بهـــا إلى أوروبـــا لمـــدة أسبوعين أمضتهما في التسوّق كما علمنا... عماد الذي بدأ الأمل يدغدغ أحلامه بالقرب من إيمان كان بصدد زيارتنـــا إلا أن أبـــي طلب منه الانتظار قليلاً بسبب الأوضـــاع في البلد.

-19-

كانت تستمد قوهّا منه... نظرة من عينيه كانت كافية لترسم الضحكة على وجهها رغم التعب؛ لمسة من يده كانت البلسم لكل الجراح التي عاشتها وتعيشها؛ قبلات شفتيه كانت العصا السحرية التي تذكرها بأن هناك من يحبها وتحبه.. أيام جميلة عاشتها في كنف عشقه واهتمامه... حلم كانت تأمل أن يكون حقيقة كي لا تستيقظ منه على واقع لا يرحم.

أحالها الحب فراشةً حالمة لورود عبيرها لا ينضب، امرأةً تضج أنوثة وإثارة قبل أن يعلن بأنه قد تعب من علاقتهما، وبأنه يأمل بالعودة إلى البدايات التي كانا فيها مجرد صديقين لا أكثر. موقفه المفاجئ صدمها، هي الجالسة على الكنبة المقابلة له في صالون منزله. استمعت إليه وهو يعدّد الأسباب التي تجبرهما على الفراق ومنها خوفه عليها وعلى استقرارها وبأنه يريد لحياهّا أن تسير بشكل طبيعي بدونه إن كان لا مجال للبقاء معه. قال إن النهاية الطبيعية

لأي حب هي الزواج وفي حالتهما النهاية مستحيلة، لذا فما جدوى البقاء في علاقة لا أمل منها.

دون إرادة ودون وعي ودون أن تستدرك الأمر تجمعت الدموع في عينيها... حاولت بجهد إخفاءها والبقاء صامتة كي لا يفضح صوتها مدى الحزن الذي غمرها ولكن وجع الحب حين يرسم الملامح لا يمكن إنكاره ولا يمكن لأي قناع من اللامبالاة أن يخفيه... وكأنه شعر بها، وقف واقترب منها ليقبّلها، شعر بها باردة معه فنظر إليها مستغرباً وكأنه نسي الكلام الذي تفوّه به قبل دقائق. سألت نفسها: ما به؟ أتراه كان يحدث نفسه بصوت عالٍ ولا يحدثني؟ أم تراه يظنني لم أسمع شيئا أم أنه يريدني أن أَسمع ولا أشعر؟ تراكمت الأسئلة في عقلها جاعلة أحاسيسها في حالة من الشلل. أصر على تقبيلها والسير بها إلى غرفته، استسلمت له لعدم رغبتها بالكلام، فمن عادتها الصمت في المواقف التي تجد فيها أن أي كلام لن يعبر عما تشعر به. نام فوقها يقبل شفتيها بنهم وينحدر نحو عنقها حين بدأت دموعها بالانهمار على خدها فتوقف...

في تلك المرة لم يستطع أن ينسيها عقلها وتعقلها لتسافر معه إلى عالم الرغبات المجنونة والإثارة التي اعتادتها. كان الظلام هو كل ما تشعر به وكأنها على حافة هاوية وادٍ

عميق في انتظار من سيدفع بها نحو الأسفل... حاولت بجهد الانسجام معه وقبل أن تودعه قبّلته قائلة إنها تظنـــها القبلـــة الأخيرة والمرة الأخيرة التي سترى فيها بيته.

-20-

شتاء ذلك العام كان قاسياً... انهمكت أمي كالعـــادة وهي تقوم بإنزال شجرة عيد الميلاد عن التتخيتة وترميمهـــا قبل تزيينها ووضعها في زاوية الصالون، ما بين المكتبة الكبيرة التي تمتد على طول الحائط يتوسطها التلفزيون محاطاً بالكتب التي كانت في ازدياد دائم لدرجة أنها لم تعد تتسع لقشـــة، على حد قولها، وبين الكنبة، على طاولة صغيرة اعتادت أن تقيم تحتها مغارة من الورق باللونين البني والأخضـــر ممثلـــة ولادة السيد المسيح مستعينة بتماثيل أهدتها إياها أم طـــوني منذ سنوات... كان العيد حاضراً في بيتنا طوال العام لأننـــا كنا قد اعتدنا الاحتفال بأعياد المسلمين والمسيحيين علـــى حدٍّ سواء... وبمشاركة أهل البناية بمن فيهم أبو خليل الذي كان يعايد أمي فقط في أعيادها مشدّداً علـــى أن أولادهـــا مسلمون...

* * *

في كافيتريا الجامعة جلست لأشرب الشاي بالقرفة كالعادة مستمعة لرنا وهي تحدثني عن هادي الشاب الوسيم صاحب الكاريزما العالية والشخصية المحبوبة من الجميع، والذي تعشقه بجنون، طالب السنة النهائية للهندسة المدنية المليء بالطموح، وعن رغبته بالهجرة للعمل في الخليج... كانت تخبرني عن خوفها من سفره وشعورها بعدم الارتياح... عن برودته المفاجئة وتهربه منها بحجة الدراسة والإعداد لمشروع التخرج...

نظرت إليها وأنا أراقب حركات يديها المتوترة وعينيها الدامعتين والقلق المرتسم على وجهها فقلت:

- لِمَ لا تتركينه إن كنت تشعرين هكذا؟ دعيه ولا تفكري به.
- وهل تعتقدين الأمر بهذه السهولة يا عبير؟
- ولِمَ لا يكون؟
- هل أحببت من قبل؟
- لا.
- إذن أتمنى أن تفهمي ما سأقوله لك... الحب يا صديقتي مارد جبار يقبض على روحك بيديه، ولا يدعها إلا وقد استسلمت له وأعلنت الولاء للشوق والموت عشقاً، فداء لمن تحبين...
- يا الله هل أنت شاعرة؟ لم أسمعك تتكلمين بهذه

الطريقة من قبل... ثم ما الذي حل بك وأنـــت لم تعرفي هادي سوى منذ أشهر قليلة... من يسمعك يظن أنها عشرة عمر بينكما وأنه الآن قد تغير، ربما هو هكذا منذ عرفناه وأنـــت الـــتي لم تكتشـــفي الأمر... لقد قلت لك سابقاً إن هذا الشاب لا يبدو سهلاً ولديه الكثير من المعجبات ولا أظنه جـــدياً، وقد سمعنا من الباقين عن علاقاته... أعجب بـــك لأنك لم تهتمي له في المـــرة الأولى الـــتي حـــدثك فيها... أراد أن يضمك إلى قائمة محبوباته. أعلـــم أنك لا تصدقيني ولكنها الحقيقية... أراد أن تحبيـــه لأنانية تصبغ شخصيته... ولكنه لم يحبك... هـــذه الشاب يهوى التنقل من فتاة إلى أخرى والعبث بهن فقط إرضاء لمتعته... يقول لك الآن إنه سيســـافر فلماذا لا يتقدم للارتباط بك مثلاً قبل سفره؟

- لم يذكر هذا الأمر.
- أظن أن عليك التمسّك بكرامتك والابتعاد عنه من الآن.
- لا أستطيع... لو تعلمين كم أحبه وكم أشتاق إليه وأرغب بالحديث معه طوال الوقت.
- هذه اسمها مراهقة عقيمة وكأنني أرى عايدة تتكلم أمامي... أنتن الفتيات لا عقل لكن... أنـــا لـــن

أحب أبداً ولداً مغروراً يظن نفسه محور العالم وهو لم يخرج من البيضة بعد... وإن أحببت في يوم ما فسيكون من أحبه ذا هيبة وقرار، رجلاً محترماً يفعل كل ما يقوله ويعد به... انظري إلى هؤلاء الأولاد من حولنا ألا ترين مقدار تفاهتهم.

- لا، لا أرى يا عبير... أنت إنسانة غريبة فعلاً. لِمَ تريدين عيش عمر غير عمرك... هل أنت خالتي مثلاً... من الطبيعي أن تحبي إنساناً يماثلك في العمر، على الأقل أن تعجبي بأحدهم... أتفق معك أن هناك كثيراً من السخفاء من حولنا ولكن في المقابل يوجد شباب لطفاء ومثقفون يحلمون بمستقبلهم ويسعون بجهد لتحقيق أحلامهم وهم يستحقون كل تقدير ودعم من حبيبة تقف إلى جانبهم...
- ربما، ولكنني لا أريد الوقوف بجانب أحد. أريد رجلاً يحتويني بحنانه واهتمامه ومحبته ولا أريد ولداً لأكون له أماً وحبيبة في الوقت نفسه... لست بحاضنة أطفال أنا...
- تقولين ذلك ولكنك لا تعلمين ما تخبئ لك الأيام.

* * *

حل صيف العام 1997 وأنهيت عـامي الدراسـي الثالث... عاد الاستقرار نوعاً ما إلى البلد بعد الحرب الـتي مررنا بها ورجع الحلم بلقاء عماد بعد طول غياب، ولكن ما لم نتوقّعه يوماً أن يعود إلينا محملاً داخل نعـش خشبـي ليُوارى الثرى في جبانة صور بالقرب من جدي وجدتي... عماد، وكما أخبرونا، قُتل هو وصديقه على أيدي لصوص أفارقه في منطقة (يويوغون) الصناعية في أبيدجان عاصـمة ساحل العاج.

وقفت في المطار مع عيسى ومحمد ننتظر الجثمان القادم لنزف عريس الغربة... لحظات قاسية مرت علينـا، ونحـن صامتون في حضرة الموت، لا كلام عندنا، مرهقون لم نـنم منذ ثلاثة أيام منذ أن وصل الخبر عبر الهاتف عند منتصـف الليل، ليتلقاه والدي كصعقة كهربائية انهار بسببها على الكنبة باكياً بصمت، لتأخذ منه أمي الهاتف وتولول صارخة بأعلى صوتها، لنستيقظ على وقع الفاجعة، وليملأ الجـيران بيتنـا للمواساة... تولى محمد مهمة الاتصال بكل من زوج عليـا والجدة لإعلامهما بما حدث، كما تابع عملية نقل الجثمـان إلى لبنان، وأبلغني لاحقاً أن الدولة قامت بتكليف السـفارة بالاتصال بالسلطات القضائية لمتابعة القضية وملاحقة القتلة.

يا للمصيبة التي حلّت بنا... يا للوجع الذي اسـتوطن أمي وأبـي. حائرة كنت أقف أمامهما وأفكر كيف السبيل

لمواساة إنسان فقد قطعة منه، من لحمه وروحه وقلبه وعقله ومشاعره وأمله وكل ما له... كيف يتساقطون أمامنا كأوراق الخريف، يرحلون إلى المجهول، إلى عالم الغياب، إلى ما بعد هذا الضباب الذي سكن القلب... يرحلون ونحن نسأل أنفسنا ما هو الموت؟ من أنت أيها الموت؟ بأي حق تحرمنا أحبابنا؟ بأي سطوة تنهال بسياطك على مشاعرنا؟ من منحك الإذن بسجننا داخل أنفسنا؟ من أطلق الأحكام علينا وقرر وأبرم بأن الفرح عليه أن يغادرنا؟ من أنت أيها الموت؟ أيها المستبد؟ أيها الطاغية؟ أيها الوحش... من أين أتيت بمخالبك لتدمينا؟... لتؤلمنا... لتقتل أمانينا؟... نسأل ونسأل ونعود لنلقي اللوم على الزمن... على القدر... على النصيب.. ونعاتب ونعاتب الموت الذي لا قدرة لنا عليه عله يرأف بنا... نعاتبه بعد أن تعبنا من إعلان عصياننا وغضبنا... نعاتبه علّه يحن... علّه يتوقف لنا نحن السائرين إليه، المنتظرين على محطاته... نقتات حرارة الشمس ونلتحف برودة السماء.. نعاتبه ليوقف قطاره ويأخذنا لنلازم من رحل قبلنا... ولكن الموت لا يستجيب... الموت القاهر يأبى سفرنا... لتتوالى الأيام بطيئة، قاسية... لا زائر لها سوى الذكريات بحلوها ومرها... ذكرياتنا مع الغائبين... أصواتهم، ضحكاتهم، حركاتهم، آمالهم... ذكريات تبكينا وأخرى نبتسم لها... لتستمر الحياة على

منوالها... لنحيك للحزن أثواباً... لهذا المتطفل الذي جـــاء ليشاطرنا حياتنا... ونفكر... لا، لا نفكر بل نحلم ونأمل أن الحياة الأخرى أروع وأجمل من حياتنا... وأن الموت لـــيس بطاغية... الموت رحمة لمن يختاره ليغادر بؤسنا، ليرحل مـــن عالم الرياء إلى عالم النقاء... من عـــالم الغـــدر إلى عـــالم الإخلاص والحب والوفاء...

-21-

التقيا، أثنى على مظهرها، كان يحب أناقتها رغم انتقاده الدائم لإسرافها في التسوق وشراء الملابس الغالية الثمن والذي كان يعتبره محاولة للهروب من واقعها. سلام يده أحرق يدها، نظرات عينيه سهام اخترقتها. جلسا متواجهين في المقهى على طاولة مربعة. كان المكان جديداً وعلى غير العادة، كان جميلاً بواجهاته الزجاجية وأثاثه المترف، وعلى غير العادة أيضاً لم يكن دافئاً أو حميمياً. جالت بنظرها تتأمل، كانت تلفتها التفاصيل رغم صغرها وبساطتها، ولربما ذلك لارتباطه بعملها.

سألها عن أحوالها فأجابت أنها بخير وكل ما فيها ينطق (كاذبة) وكيف ستكون بخير وهو بعيد عنها يفصلهما لوح خشبي وفنجانان من القهوة وفوق رأسهما ثبتت في الزاوية كاميرا مراقبة خاصة بالمكان. كيف ستكون بخير وهي لا تستطيع الاقتراب منه أو لمسه... لن تنام على صدره لتخبره عن شوقها... لن يقبّل شفتيها... لن ولن...

أن تلتقي بمن تحب ولا تكون معه هو العذاب بذاتـــه. منعتها عزة نفسها من أن تقول (اشتقت إليك) وبدوره كان يدور بالحديث حول المواضيع العامة ويحاذر كي لا يلتقـــي عينيها. ساعة مرت قبل أن تعلن رغبتها بالرحيل. ودعهـــا قائلاً إنه سيذهب إلى بيته ليســـتلقي قلـــيلاً، ســـألها عـــن مشاريعها لباقي النهار فأجابت بأنها أيضاً ذاهبة إلى البيـــت. انتظر منها أن تخبره عن رغبتها باللحاق به ولكنـــها أبـــت ذلك. أقفلت زجاج نافذة سيارتها، ودون أن تلتفت إليـــه لوّحت بيدها مودعة وانطلقت مسرعة كي لا يرى الدموع التي بلّلت وجهها.

-22-

وحيدة كانت تجلس كل يوم على إحدى صخور شاطئ صور... وحيدة تدير للعالم ظهرها لأن لا أحد سيفهم صرخة الألم المنبعثة من روحها، أو يسمع ضجيج الحزن المدوّي في أعماقها... على هامش الحياة تحيا لأن الموت قد مر دون أن يأخذها... عبر دون أن يتوقف على محطاتها... دون أن يدرك رغبتها بالرحيل وترك هذا العالم البائس خلفها. كان نهارها يبدأ بالدمع وينتهي به وهي تنادي على عماد فلا يسمعها... يطاردها طيفه في كل مكان ولا يلمسها... تملأ ضحكاته خيالها... كلماته، شجاره معها، تتذكر طفولته ومراهقته، مشاكسته لها، رجولته لحظة بدء تكونها... محاولاته للتحايل عليها للتأخر خارج المنزل بأكاذيب بيضاء كان يظن أنها تصدقها... وجهه الذي كان يشع نوراً عندما تقترب منه وتربّت على كتفه، تقبّل وجنتيه وتضمه إلى صدرها فخورة بتفوقه في الدراسة وتخبره أنه رجلها بعد والده... تتذكر لحظة ولادته

وبكائها فرحاً به... مراقبته وهو ينمو أمامهـــا... خطواتـــه الأولى، كلماته الأولى، يومه المدرسي الأول... قاسية هـــذه الحياة وقاسيه اختباراتها... تسأل ولا تجد من يجيبها، تســـأل لعلها تعلم كيف يمكن أن يكون لها ابن وبدقائق منفية مـــن هذا الزمن... قاسية على عمرها... مميتة لها قبـــل موتهـــا، مرهقة، مؤلمة وموجعة... تخسره.

أنظر إليها كل مساء، إلى أمي الثكلى، ولا أجـــد مـــا أقوله لها وبأي الكلمات أخبرك يا (...) وأعبر لـــك عـــن حالها... إنها الأم التي فقدت ولدها.

* * *

كنا على أعتاب العام الدراسي.

عايدة مع محمد تدرس الحقوق في سنتها الجامعية الأولى وهو في الرابعة والأخيرة، يذهبان سوياً كل يوم في إحـــدى الحافلات التي كانت مخصصة لنقل الطلاب إلى جامعـــات صيدا.

عيسى الذي أحب مادة المحاسبة كان قد بـــدأ عامـــه الدراسي الثالث في مهنية صور الرسمية بنجاح.

إيمان التي تبخّرت أحلامها بالعودة إلى الجامعة بـــدأت عملها بائعة في محل للثياب النسائية في شارع أبو ديب بأجر ضئيل لم يكن كافياً لها ولابنها، الذي لم يرث شـــيئا عـــن

والده سوى اسمه بعد أن قام أبناؤه وزوجته الأولى بطردها، وإنكار أي حق مادي لها. ولقلة حيلتها وعدم وجــود أي دعم سياسي بجانبها لمواجهتهم صمتت موكلة أمرها إلى الله ليأخذ لها حقها...

أما أنا فقد عدت إلى بيروت لأبدأ عــامي الدراســي الرابع في جامعة (ادفع وانجح) كما كانت عايــدة تطلــق عليها، وهي تقارن بين الوقت الطويل الذي يقضيه محمد في الدراسة قبل الامتحانات والوقت الذي كنــت أخصّصــه لذلك. كانت تقول إنها جامعة الأغنياءِ وقد وُجِدت لمنحنا الشهادة على طبق من الذهب الذي نقوم بأموالنا بشــرائه، وإن القدر قد تبسّم في وجهي وحقق لي الحلــم بالدراســة فيها. ولكن هذا الوصف الذي ينطبق علــى كــثير مــن الجامعات الخاصة لا يمكن رمي الجامعــة الأميركيــة بــه. وللأمانة لم تكن عايدة محقة بما تقوله.

* * *

هاتف عليا أصاب البيت كله بالذعر، كما أخــبرتني أمي في اليوم التالي. أولاً لأنه أتى عند منتصف الليل، وثانياً بسبب صوتها الذي امتزج فيه البكاء مع الخوف.

لم يكن شجارها مع أيمن هــو الأول ووجودهــا في السعودية معه منعنا من معرفة التفاصيل دائماً، وتستّرها عليه

في معظم الأوقات زاد من المشكلة بدلاً من معالجتها.

هذه المرة تطور الوضع من التعنيف بالكلام إلى الضرب. ولربما كان كذلك من الأساس ولكنها كتمت الأمر عنا. الشجار بدأ عاديا بعد عودة أيمن مخموراً كالعادة، ولومها له، لينتقل إلى الكلام البذيء والإهانات قبل أن يترك البيت مجدداً وهو يكيل لها اللكمات والشتائم. و لم ينتظر والدي حتى الصباح ليذهب برفقة عيسى ويحضرها إلى المنزل في صور مع صغيريها.

عصر اليوم التالي، وبكل وقاحة وغرور أرعن أتى أيمن بعد أن استفاق على ما فعله، محملاً بالهدايا لصغيره وبسوار من الألماس لعليا وبزجاجة عطر فرنسي لأمي معتذراً عما بدر منه، دامعاً وخجلاً من نفسه كما ادّعى، واضعاً اللوم على الخمر الذي يذهب بعقله ولا يرجعه، وواعداً الجميع بأنها المرة الأولى والأخيرة التي سيرفع فيها يده عليها. أبي كان حازماً في كلامه عندما قال إن ابنته لم تُخلق للضرب وأنه يفضل أن تكون مطلقة وفي حضنه هي وولديها على العيش برفاهية زائفة وكرامة ممسوحة معه وبأن من يرفع يده على امرأة لا يُعدّ رجلاً. أسمعه أقسى العبارات وأكثرها لوماً على ما فعله، وبترحاب أصغى أيمن إليه، فكل ما كان يريده هو عودة عليا.

-23-

ماذا تفعل برجل لا يثبت على رأيه، لا يمكنه اتخاذ قرارات والمثابرة عليها؟ ماذا تفعل برجل يقول إنه لا يريدها ولكنه لا يتوقف عن محادثتها؟ يخبرها أنها الآن صديقة وبكل شوق وعشق يرمي بالنظرات إليها؟ يجزم بأن العلاقة انتهت ويصر على أن يلقاها...

اتفقا على موعد على أن يكون الأخير في بيته بعد قطيعة جسدية استمرت شهراً.

أتت والشوق توأمها... خجلى من الإعلان عما يعتمر في صدرها، ولكن الساعات العاصفة بالمشاعر التي قضتها بين ذراعيه وقوله إنه لم يعد بإمكانه المقاومة أكثر، كانت كفيلة بكسر الحواجز التي حاول طوال الأيام الماضية أن يبنيها بينهما، فذابت على صدره وأخبرته عن عذابها بدونه... عن رغبتها بالبقاء معه، عن حلمها بقضاء ليلة كاملة بين ذراعيه. كانت في أقصى درجات الحب تنبض بالحياة مع كل لمسة، تحيا بالفرح على همساته، تحلّق بها

الأحلام مع كل كلمة منه... ساعات قبل العودة إلى أرض الواقع. قبل الانزلاق من الدفء إلى برودة المشاعر التي كانت تنتظرها في المنزل. قبل المعاناة مع الأنانية والمادية التي يتأبط بهما زوجها كعروس له...

فما إن وصلت حتى أخبرها أن عليها الاستعداد بأقصى سرعة تملكها لأنهما بصدد الخروج للعشاء مع عميل له وزوجته. نظرت إليه بصمت كالعادة فما جدوى القول إنها متعبة وما جدوى الإعلان بعدم رغبتها بمسايرة أشخاص غرباء عنها؟ ما جدوى التعبير عن مشاعر الاستياء أو الحزن أو حتى السعادة إن كان لا يراها ولا يسمعها. إن كان يعتقد أن كلماته أوامر وعليها بكل استسلام أن تطيعها.

غيّرت ثيابها على عجل، سرّحت شعرها الأسود الطويل، ارتدت ثوباً زهري اللون مع معطف أسود، وضعت القليل من مساحيق التجميل، وأخبرته أنها جاهزة للمهمة.

نعم هي جاهزة لأن تكون مجرد آلة للعلاقات العامة، تبتسم في وجوه من حولها، تحادث بمحبة زائفة، تمثل الانسجام مع محيطها، تأكل دون أن تشعر بمذاق ما في فمها... وداخلها يصرخ ويناديها أن ترحم نفسها، أن تعتق روحها من سجنها... ولكنها كانت تتجاهل النداء.

-24-

كالعادة كل نهار سبت كنت أدعو رنا لنتناول الغــداء سوياً في بيت الجدة قبل توجهي إلى الجنوب لقضاء عطلــة نهاية الأسبوع.

في ذلك النهار أخبرت جدتي ألا تتعب نفسها بإلقـــاء الأوامر لإعداد غداء خاص بنا... لكونها كانـــت تتنـــاول طعاما خالياً من البروتينات والملح بسبب وضعها الصـــحي ومشاكل الكلى التي تعاني منها.

سألتني عن السبب فأجبت أن والدة رنا اتصلت بـــي شخصياً على غير العادة ودعتني للغداء.

قبّلتها على وجنتيها وانا أكمل:

سأنصرف مباشرة من عند رنا إلى صور، أراك صباح الاثنين القادم... أحبك

وأنا أيضاً أحبك، أخبري أمك أنني اشتقت إليها كثيراً وإلى الجميع فلتحضر معك... أمك بحاجة إلى بعض الراحة والاستجمام والابتعاد عن جو الحزن الذي تعيش به.

سأخبرها ولكن كما تعلمين، منذ موت عماد وهي لا ترضى الخروج من صور وتقضي وقتها ما بـين الشـاطئ وقبره... سأحاول ولكن لا أعلم إن كنت سأقنعها بذلك.

سأهاتف والدك ليساعدنا وإن كان بإمكانه فليحضـر معها فهو متعب أيضاً.

آه... أتمنى ذلك.

كانت جدتي تتألم لألم أمي بعد أن أدركت بفطرتها وإحساسها المرهف وأمومتها حجم المعاناة الـتي عاشـتها طوال حياتها وإن لم تخبرها بها...

عشرون عاماً وأمي وحيدة لا أهل لها، ولولا وجود أم محمد وبقية الجيران الطيبين في صور لتضاعفت معاناتها... ففي النهاية لا حنان يعوض حنان الأم ولا عاطفة بإمكانها الحلول مكانها مهما نقاومْ ونقلْ إننا بخير والحياة عليهـا أن تستمر. إن الرابط العاطفي الذي يمتد ما بين الوالدة وفلذات كبدها لا ينقطع مع الحبل السري عند الولادة، بـل علـى العكس يقوى ويشتد ويستمر رغم البعد، ورغم الظـروف التي قد تفرض نفسها عليهم...

* * *

في الموعد الذي حدّدته والدة رنا وصلت وحسـب الأصول والأتيكيت ارتديت أجمل ثيابـي بـدلاً مـن

ملابس الرياضة التي كنـــت أرتـــديها في عطلـــة نهايـــة الأسبوع. قرعت الباب بصعوبة وأنا محمّلة بالورد وكيس الكرتون الكبير الذي يحوي بداخله وعاء من الكريســـتال مليء بالشوكولا ومزين بشكل جميل. وفي تلك اللحظة لم أستطع منع نفسي من التفكير كم أن العلاقة مع هذه المرأة متعبة ومكلفة.

فتحت لي الخادمة الباب لتستقبلني بعدها رنا بوجه باردٍ خالٍ من أي تعبير...

سألتني:

- ما الأمر؟ لِمَ كل هذه الأناقة؟

فهمست لها:

- من أجل أمك. أنا اليوم ضيفة عندها.

توقعت أن تضحك لكلامي الذي قلته بشكل ســـاخر ولكنها استمرت على وجومها وأشارت إليّ بالـــدخول إلى الصالون.

وقفت أم رنا لدى رؤيتنا ووقف معها رجل غريب لا أعرفه لتبادر بالسلام عليّ، تناولت ما أحمله لهـــا وقبّلـــتني مرحبة أشد الترحيب بـــي لتعرفني على (مسيو) نادر أخيها رجل الأعمال.

مددت يدي بخجل إليه فلم أكن أتوقع رؤيـــة أحـــد عندهم:

- أهلاً مسيو نادر تشرفت بمعرفتك.
- الشرف لي يا جميلتي...

قالها رافعاً يدي إلى فمه ليقبّلها، احمـــرت وجنتـــاي وتوترت ملامحي. وربما بدا الأمر واضحاً إذ أخذتني رنا من يدي قائلة: تعالي.

- ما الأمر ما بك ولما تأخذينني إلى غرفتـــك بهـــذه الطريقة؟
- في الحقيقة لا أستطيع الصمت أكثر، وأعلم أن أمي ستوبخني على ذلك. ولكني سأقول لك ما الـــذي يجري. خالي نادر هذا الجالس في الصالون أتى إلى لبنان من حوالي الشهر وهو يبحث عن عـــروس ليتزوج بها وأمي أخبرته عنك وأنت الآن تحـــت المجهر في المعاينة، ليرى إن كنت مناسبة لـــه أم لا. وفي الحقيقة أيضاً هذا الوضع لا يعجبني، ورغم أنه خالي إلا أنك صديقتي...
- رنا تتكلمين وكأنهما يخططان لجريمة... وإن كان يبحث عن عروس فما الضرر في ذلك؟!
- ألا يهمك هذا الموقف الذي أنت فيه... عـــبير ألا ترين الشيب على رأسه؟ إنه يكبرك بتسعة عشـــر عاماً كما أنك لا تحبينه ولا تعرفين شيئاً عنه... ألا تمانعين أن تكوني محط اختبار لرجل ليرى مـــدى

رضاه على شكلك و...

- رنا اصمتي، لقد بدأت بإهانتي... أولاً خالك هذا يبدو رجلاً مهذباً جداً وإن كنت سأتكلم بصدق فأنا أقولها لك إنه ومنذ اللحظة الأولى التي رأيتــه فيها شعرت وكأنه بطل إحدى رواياتي، والشيب الذي تعيّرينه به أراه جذّاباً جــداً جــداً... والآن كفي، سنكمل هذا الحديث لاحقاً، فهما على ما أظن في انتظارنا.

على طاولة السفرة جلس بمواجهتي. كان رجــلاً في الأربعين من عمره طويل القامة، عريض المنكــبين، أنيــق المظهر، وجهه حنطي كوجه أخته ولكن عينيه بنيتان، شعره الكثيف المليء الشيب مصفف للخلف... كان ببساطة رجل الأحلام الذي انتظرته طويلاً... الرجل الواثق بنفسه المقتضب في حديثه والجدي في كلماته. الرجل المقتدر القادر علــى إهدائي كنزاً رغم عدم حبــي للمال ولكني كنت أعتــبره حاجة ضرورية للعيش الكريم... لم يكن يوماً غايتي ولكنني كنت أراه وسيلة لا بد منها لتحقيق أهدافي في الحياة.

باختصار بهرني نادر بهدوئه في تناول طعامه وطريقــة إشعاله للسيجار الفخم الذي قام بتدخينه بعد الانتهاء مــن الغداء. اهتمامه بــي، رقته وهو يناولني فنجــان القهــوة بنفسه، أسئلته عن عــائلتي ودراســتي ومكــان ســكني

وطموحاتي المستقبلية... اعتذاره المهذب منا عندما رن هاتفه المحمول قبل أن يرد على المكالمة التي كانت من سكرتيرته الخاصة ليخبرها باختصار وحزم عما عليها فعله. الموبايل أو الهاتف المحمول الذي كان حمله في تلك الفترة مقتصراً على الأغنياء، والذي قامت جدتي بإهدائي واحداً منه بعد أن رأته مع رنا وعلمت منها أنه بدأ بالانتشار بين طلاب الجامعة وحدثتها عن أهميته للاطمئنان على المرء أينما كان. الموبايل، حلم عيسى، والذي كان يأخذه مني في نهاية الأسبوع ليتباهى به أمام أصحابه. الموبايل الذي سألني نادر وانا أقوم بالاستئذان منهم للرحيل، فأمامي طريق طويل بالباص إلى صور، إن كنت أملك واحداً لأجيبه بنعم، وليقوم عندها بإعطائي بطاقة خاصة به تحوي بالإضافة إلى اسمه وصفته وعنوان بريده الإلكتروني أرقام هواتفه قائلاً:

هذه أرقامي كلها والأخير هو رقمي الخاص، أتمنى أن نبقى على تواصل... سررت جداً بالتعرف إليك.

كان وجه والدة رنا يشع بالفرح، وكانت ابتسامتها دليل رضاها على ما يحدث أمامها.

على الباب عادت رنا للقول:

- لم أتوقع كل هذا الانسجام معه.. في الحقيقية لقد صدمتني... هل هذا حقاً فتى أحلامك يا عبير، ألم تحبي حتى الآن في انتظار رجل بعمر والدك؟

- رنا يا رنا، أولاً أنت تقولين فتى أحلامي ومن قال لك إنني أبحث عن فتى أحلام؟ أنا أبحث عن رجل أحلام. ومن قال لك إنني على استعداد لأغرم بصبي كهادي المغرور الذي تعلقت به وتركك وسافر دون أي كلمة... أنا لا أريد صبياً أو مراهقاً، أريد رجلاً شبع من النساء وبحث عني لأستقر في قلبه ولأكون سيدته ويكون رجلي... رجلاً يا عبير، رجلاً بكل معنى الكلمة.. افهمي.
- أتمنى أن أفهم ما تقولين.
- أراك الاثنين.
- إلى اللقاء عبير.

* * *

بدأ التواصل الهاتفي مع نادر ليشغل عالمي، ورغم حديثه الذي كان يخلو من المشاعر وعبارات الحب والغرام إلا أنه رسم أمامي مستقبلنا سوياً وأخبرني بعد اتصالات عدة عن رغبته بالتقدم لي فوافقت مرحبة بذلك، على أن ينتظر حتى الصيف لأن عائلتي لا تزال في حالة حداد على عماد.

* * *

حل صيف العام 1998 وأنهى محمد دراسة الحقوق بتفوق لتملأ أمه البناية بالزغاريد فرحة وفخورة به. وداخل منزلها دار بينهما الحوار التالي:

- الحمد لله... الحمد لله... لا يمكنك أن تعلم يا محمد مدى الفرحة التي أعيشها اليوم. لقد حققت أمنية والدك (رحمه الله).

قاطعها محمد وهم يتمتم:

- ألف رحمة عليه يا أمي.
- ألف رحمة عليه... أتعلم، وأنت طفل يحبو على هذه الأرض كان يقول لي: هذا الولد سيدخل الجامعة وسأعلمه أحسن تعليم. وعندما كنت أجيبه بأنني أريدك نجاراً مثله كان يعترض ويقول لي: لا... أريده متعلماً خريج جامعات.

حاول أن يتكلم فمنعته:

- هل تعلم أيضاً... عندما كان على فراش المرض جعلني أقسم على القرآن أمامه أنني سأفعل المستحيل لأدخلك الجامعة...

لم تكمل كلامها.. خنقتها العبرات التي بلّلت خدها... فاحتضنها وهو يرفع يدها ليقبّلها ويقول:

- أنت أعظم أم يمكن لأي إنسان أن يحظى بها... وأروع امرأة... أتظنين أنني لم أكن أشعر

بذلك... أتظنين أن منعك لي من مساعدتك في الدكان كي لا أهمل الدراسة كان خافياً عليّ... أمي أنت تاج على رأسي أضعه وأسير به... والفخر الذي تشعرين به الآن أعدك أن يستمر وأني سأكون محامياً ناجحاً وسأحقق لك كل أحلامك.

- وأحلامك يا ابني... أدعو الله أن يحفظك وينير دربك...

وعادت البسمة لتملأ وجهها وهي تقول:

- والآن؟... ما الذي سيحدث.
- لم أفهم.
- ألن تتقدم لعايدة؟
- أتمنى ذلك وأفكر بالأمر طوال الوقت ولكن الهواجس تنتابني وتكاد تقتلني...
- ماذا؟ أي هواجس؟ ولِمَ؟ تكلم، ما الذي حصل؟ أهنالك أمر لا أعرفه؟
- اهدئي يا أمي... كل ما في الأمر أنني أفكر بوضعهم الآن... عليا زوجة الغني وعبير التي تدرس في الجامعة الأميركية والأموال التي ورثتها الخالة أم عماد... أتظنين أنني ما زلت مناسباً لهم؟ لربما كانوا يريدون زوجاً غنياً لعايدة...

- ما هذه السخافة يا محمد... هل أنت جدي في ما تقوله؟
- بالطبع يا أمي... منذ يومين كنت أشرب الشاي مع أبي عماد وفكّرت أن أفاتحه بالموضوع ولكن لا أدري ما الذي حل بي... شعرت بالجبن وبقيت صامتاً...
- أنت على خطأ يا ابني... هم يعلمون بالعلاقة التي تربطك بعايدة وينتظرون منك المبادرة للتقدم إليها... هؤلاء الجماعة أيها الحبيب خير أهل وخير جيران وخير إخوة ولا يمكن للمال أن يغيّرهم ولا يمكن للحياة أن تغرهم ليتعالوا على معارفهم... ألا ترى بنفسك؟ هل تكلموا مرة عن الأموال أمامك؟ هل أتوا على فكرة تغيير سكنهم؟ هل تفاخروا بما باتوا يملكونه؟... في كل الأحوال لا عليك أنا الليلة سأكلمهم وأطلب يد عايدة منهم.
- لن آتي معك.
- لِمَ؟
- لا أريد... سأنتظرك هنا إلى أن تعودي بالخبر اليقين...

* * *

... بعد صلاة العشاء أتت أم محمد إلينا لتقول والارتباك ظاهر في كلماتها:

- أنتم تعلمون أن عائلة المرحوم تسكن في الخيام وأننا هنا وحدنا وأنكم عائلتي التي رافقتني في السراء والضراء، ومحمد ابنكم وقد تربى في بيتكم وأمامكم، وحبه لعايدة لا يخفى على أحد. وها هو الآن قد أنهى جامعته وسيقوم بالتدرّج ليصبح محامياً (بالاستثناف) ليصحح لها والدي (بالاستئناف) ولترد عليه (والله ما بعرف بشو المهم خليني كمل) لتكمل كلامها معبرة عن رغبتها بطلب يد عايدة له، ولتخبرنا – عندما سألت أمي عنه – أنه في المنزل ينتظر جوابهم.

التفت أبي للبحث عن عايدة مبتسماً فأخبره عيسى أنها أيضاً تختبئ في انتظار القرار.

فصرخ منادياً:

- عايدة، تعالي.. وأنت يا عيسى اذهب وأحضر محمد إلى هنا.

جلسا أمامنا كعصفورين ضعيفين ولكن صوت ألحان قلبيهما يملأ المكان.

بدا والدي كلامه:

- أمامكما ثلاثة أعوام من العمل أنت يا محمد كي تكمل تدرّجك وتفتح مكتبك الخاص وأنتِ يا عايدة كي تنهي تخصّصك. وبالتالي إن كنت سأوافق على الخطبة فستكون بشرط أن تستمر ثلاث سنوات وأن لا تفكرا بالمطلق بأمر آخر.

محمد وقد انفرجت أساريره:

- بالطبع نوافق على ذلك. ومن قال إنني أرضى بأن لا تكمل عايدة تخصصها؟ سأكون حريصاً على هذا الأمر أكثر منها... أعدكم بذلك.

أمي بفرح كان قد غاب مع موت عماد وعاد في تلك اللحظة ولو متردّداً:

- وأنتِ يا عايدة.
- طبعاً يا أمي ولقد تحدثنا قبلكم بهذا الموضوع ونحن لن نعقد القران إلا بعد ثلاث سنوات.. الأمر سيقتصر الآن على المحابس.
- حسناً فلنقرأ الفاتحة يا أم محمد.

* * *

تمت خطبة محمد وعايدة في البيت بحضور الجيران وعمي "أبو حسن" وعائلته المكونة من زوجته وبناته الثلاث وعماتي زهرة وخديجة وفاطمة وعائلاتهم، واقتصرت على

تلبيس المحابس وقراءة الفاتحة للمرة الثانية وتقديم الحلويات من البقلاوة والشوكولا وزجاجات العصير دون أي موسيقى لعدم موافقة أمي على إعلان انتهاء حدادها. وفي اليوم التالي ولاكتمال الاحتفال ذهبنا لزيارة الجدة في بيروت برفقة محمد للتعارف الرسمي، بعد أن كانت قد سمعت عنه الكثير منا، فهو الآن فرد من العائلة.

فخامة المبنى وكبر منزل الجدة وجمال أثاثه الذي كنا قد اعتدناه بهر محمد فنظر إلى عايدة قائلاً:

- ألهذه الدرجة تحبينني؟ كان باستطاعتك الدراسة في بيروت والسكن هنا مع عبير و لم توافقي على ذلك لتكوني بقربي... عايدة أنت أميرتي.

لترد عليه عايدة بدلال:

- تسأل كم أحبك... ألا تشعر بذلك؟

تدخّل عيسى:

- إحم إحم... نحنا في زيارة يا إخوان.

حدثت الجدة محمد كثيراً وبدت مرحّبة به ومعجبة بطموحه على عكس أيمن الذي كانت تنفر منه رغم محاولاته الدائبة لإرضائها وعرض إنجازاته أمامها وكما كانت تقول دائماً (قلبي مقبوض منه) وقد كانت محقة بل أكثر من محقة في حكمها عليه.

-25-

سألها وهي في طريقها إلى بيته عما تريـــد أن تأكلـــه لتجيبه:

- أي شيء.
- ماذا يعني أي شيء هل أطلب وجبة (أي شـــيء) حدّدي لي: أتريدين البيتزا أو الدجاج أو...
- حسناً بيتزا.
- أين أنت الآن؟
- أكاد أصل إليك وجائعة.

غسلت يديها جيداً ورغم ذلـــك وضـــعت المطهّـــر عليهما، المسحوق الذي لا يفارق حقيبتها، قبل جلوســـهما إلى طاولة البلاستيك الصـــغيرة المربعـــة يتنـــاولان البيتـــزا ويتحادثان في أمور الحياة ووضع البلد وأعمالهما وغيرها... كانت تأكل ببطء وبكميات قليلة الأمر الذي اعتادت عليه منذ انتقلت للسكن في بيت جدها بينما كان هـــو يلتـــهم طعامه التهاماً. في بداية علاقتهما كان يظنها خجولة عندما

كانت تخبره عن جوعها ولا تأكل سوى القليل إلى أن اعتاد لاحقاً عليها.

أنهت طعامها، غسلت يديها وأسنانها جيداً وعادت لتضع المطهر عليهما قبل إعداد القهوة.

نظر إليها تلك النظرة التي كانت تخرجها عن صوابها وتذهب بعقلها وقال:

- أتعلمين؟ أحب نظافتك الشخصية.

ومرة أخرى فكّرت ولكنها لم تصارحه بالأمر:

أيعقل أن يكون هنالك امرأة لا تهتم بنظافتها الشخصية أي نظافة جسدها ووضع الكريمات المعطرة عليه ونظافة أسنانها وفمها وشعرها والعناية بأظفارها... أرادت أن تسأله (من كنت تعاشر قبلي) ولكنها لاذت بالصمت واقتربت منه لتقبّله...

وبعد رحيلها بوقت قصير كتب لها:

- ألم تنسي شيئاً عندي؟

التفتت وهي في سيارتها وتفقّدت أشياءها: الحقيبة.. الجاكيت.. وصرخت (آه الشال) فكتبت له: "شالي عندك إن كان يزعجك بإمكانك رميه".

"ههههه... لا، سأحفظه لك إلى أن تعودي".

كانت قد قضت معه وقتاً أكثر من المعتاد، وهي على عجلة من أمرها تلتقط ثيابها المبعثرة في أركان الغرفة لترتديها

نسيت شالها. ولكن رغم ذلك أسعدها الأمر فلقد تركت له أثراً منها، أثراً يتجاوز عطرها الذي كانت تقوم برشه علـــى مخدته وسريره قبل رحيلها كي يفكّر دائماً بها..

-26-

ارتباط عايدة ومحمد أثار حماسي لأخبر أهلـي عـن نادر. تم التعارف في صور عندما حضر برفقة رنـا وأمهـا لزيارتنا.

اللقاء كان جافاً ورسمياً، اقتصر الكـلام فيـه علـى العموميات دون الدخول في أي موضوع خاص. وانتهى في نصف ساعة ليخبرني نادر لاحقاً عن صدمته بمكان سكني، وبوضع أهلي، وبتواضع معيشتهم.. ولأخبره بدوري أنه إن كان لا يرحب بمصاهرتهم ولا يفخر بذلك، فليرحـل ولا أسف عليه، وبأن والدي لم يوافق حتى الآن، وبأنه اعترض على فارق العمر بيننا.

الحسم والجدية اللذان تكلمت بهما معـه أثّـرا فيـه فأخبرني عن تمسكه بـي وبأنه لم يقصد إهانة عائلتي بـل على العكس هو يفخر بهم وبالزواج من ابنتهم. وعلى سبيل التلميح قال إنه باستطاعتي مساعدتهم بعد الزواج للانتقـال إلى سكن أفضل ولتحسين وضـعهم المعيشـي. ولكـني

اعترضت وبشدة قائلة إن أهلي لديهم ما يكفي من الأموال للانتقال وشراء المنزل المناسب، وإن جدي قد ترك لوالدتي الكثير.. إلا أهم سعداء بما لديهم وبالناس الشرفاء والبسطاء المليئين بالعزة والكرامة الذين يسكنون بجوارهم. فسكت عندما لمس حساسية الأمر لديّ.

وكما اشترط أبي على عايدة ومحمد أعاد كلماته علينا بأن عقد القران لن يتم إلا بعد سنة لأكون قد أنهيت دراستي الجامعية. فبعد موت عماد وإجهاض حلمة بدخول عليا الجامعة لن يتنازل مجدداً، وخصوصاً أن الواقع المر الذي أجبره على التنازل سابقاً قد ولى ولن يعود.

* * *

أُقيمت الخطبة في بيت الجدة بناء على طلبها وبحضور أهل أبي وخالي جورج الذي أتى مع عائلته للزيارة.

اهتمت بنفسها بكل تفاصيل الضيافة التي استقدمتها من أشهر محال الحلويات في المدينة والورود التي عهدت إلى منسق خاص لترتيب أمكنتها في الصالون للزينة. كما أصرت على ارتدائي فستاناً من الحرير الأحمر صمّمه خبير أزياء عالمي، وإلى الآن لا أعلم كم دفعت ثمنه، وكم كلّفها أيضاً إحضار خبيرة التجميل ومصفف الشعر إلى منزلها للاهتمام بنا جميعاً.

خلال الحفل ورغم انشغالي المفترض بخطيبـــي إلا أنني وجدت نفسي ألاحق عيسى وماري ابنة الخـــال جـــورج بنظراتي. لقد كانت على وشك إتمام عامها السابع عشر و لم يعد أمامها سوى سنة دراسية واحدة قبل البـــدء بالمرحلـــة الجامعية.

و لم أكن الوحيدة التي كانت تلاحقهما بفضول بـــل شاركني بذلك كل من الخال وجدتي التي لا يفوتها أي أمر مما يحدث حولها. وكعادتها كانت في تركيز كامل على كل التصرفات وردود الأفعال التي يقوم بها الناس من حولهـــا. وكما بدا على وجهها كانت راضية تماماً، بعكس زوجـــة الخال التي شعرت بها كالخائفة وقد غاب أي لـــون عـــن وجهها، فبدا شاحباً جداً وأكثر بياضاً من السابق.

شغلني الأمر إلى أن همس نادر بأذني:

- ما بك وكأنك لست معي الليلة وهي من أهـــم ليالينا؟
- لا، حبيبـــي.. لا تقل ذلك. ولكن هنالك أمراً قد شغلني سأخبرك به فيما بعد.

هنا اقتربت رنا لتقول لي:

- ألف مبروك يا عبير، أتمنى لك خطبة ســـعيدة وأن تكوني على قناعة ودراية ومعرفة بما تقدمين عليه. تعلمين المحبة التي أكنها لك وإن كنت لا أستطيع

أن أكون سعيدة بالقدر الكافي فـــذلك لكـــوني خائفة – مجرد خائفة – وأتمنى ألا أكون على حق في ذلك.

- لا عليك يا رنا، أنت هكذا قلقة دائمـــاً... رنـــا أيعقل أن تغاري من خالك؟ هل تظنين أن خطبتي له ستخفف من صداقتنا وتلهيني عنك. لا، أيتـــها البلهاء.. نحن سنبقى كالسابق وأكثر.

وقبل أن تجيب أتت عليا التي كانت تقضـــي إجـــازة الصيف مع ولديها في بيروت لتقوم بتهنئتي أيضاً وإلباســـي خاتم الألماس الذي قدمته لي أمام الجميع كهدية متباهية بمـــا تفعله وفخورة بالعائلة الثرية التي نحن بصـــدد مصـــاهرتها. لتلتفت بعد أن انتهت إلى عايدة الجالسة بجانب محمد وأمـــه يتحادثان والبسمة على وجهيهما إذ كانت أم محمد تطلـــق الصلوات على محمد كلما وقع نظرها على تحفة كريســـتال أو رفعت رأسها لتتأمل الثريات، أو خفضته لتعاين بدهشـــة السجاد العجمي... ولتقول لي:

- انظري إليهما يا عـــبير.. أم محمـــد ستفضـــحنا بتصرفاتها السخيفة، هل كان من الضـــروري أن تأتي.
- بالطبع يا عليا، ما الذي تقولينه؟ إنها من العائلـــة بالنسبة إليّ، بغض النظر عن خطبة محمد لعايـــدة.

وبالمناسبة لِمَ لم تجلبـي هدية لها فهي قد خطبت أيضاً؟

- لا أريد ذلك وأنت تعلمين رأيي بموضوع خطبتها هذا، ولا داعي لتذكيري بما حدث بسببها.
- حسناً، انسي الأمر. ولكن عليك علـى الأقـل مسايرتهم قليلاً. أرجوك يا عليا افعلي ذلك.
- حسناً، لا عليك.

توالت الهدايا: سوار من أم رنا، وآخر من الجدة شبيه بالذي أهدته لعايدة، ظرف مغلق من خالي جورج، تكهّنت بأن ما فيه شيك بمبلغ محترم، وهذا ما كان. وللأمانة فهو قد أعطى الظرف نفسه أيضاً لعايدة.

أما أمي التي كانت لا تزال في ملابس الحداد السوداء، غصة الحزن كانت تضغط على عنقها لتمنعها من الكلام والدمعة حاضرة في عينها تنتظر لحظة عدم مكابرتها على نفسها لتنهمر... احتمت بأبـي تتأبط ذراعه طوال الوقت لربما لتواسيه كما كان يواسيها وليستمدان القوة أحدهما من الآخر، أبـي الذي تقبّل على مضض ارتباطي بنادر، ولكون اعتراضه الوحيد كان فارق السن بيننا، فإن تدخل باقي أفراد العائلة، بالإضافة إلى إصراري على من اخترته، أتى بنتيجة إيجابية وأعلن موافقته.

* * *

في اليوم التالي اتصلت بـــي إيمان مهنئة فسألتها عـــن أحوالها وعن ابنها الصغير. تنهّدت وقالت إن الأمر يحتـــاج إلى جلسة لتخبرني عما يحدث معها، وعن التحرشات الـــتي تلاحقها طوال الوقت، وعروضات عقد المتعة التي تنـــهال عليها لكونها أرملة... وعن حلمها بالاستقلال عن أهلـــها وعن جو البيت المطحون بالمشاكل والخلافات والضـــجيج و...

* * *

أنهى عيسى دراسته المهنية بنجاح وأعلن عـــن رغبتـــه بالتخصص في مجال المحاسبة والتسويق في الجامعة الأميركيـــة على أن يشاطرني السكن في بيت الجدة.

قراره الذي أفرحها هي الحالمة بانتقالنا جميعاً للســـكن عندها ودفعها لتعهد لي كمصممة للديكور بمهمة إعـــداد غرفته الخاصة في المنزل... أحزن والديّ لتعلّقهما الشديد به وخصوصاً بعد موت عماد... إلا أن الحياة كان عليهـــا أن تستمر.

نادر كان على سفر دائم قائلاً إنه بصدد الانتهاء مـــن مشاريع عدة يقوم بها في الخارج لنستقر سوياً بعد انتـــهائي من الجامعة خلال الصيف القادم... لم يقلقني غيابه لكوننـــا كنا على تواصل يومي بالهاتف و لم أُفكّر وقتها بأن مشـــاعر

عدم الغيرة عليه أو الشوق إليه سببهما عدم وقوعي في حبه بل كنت أظنه الأمر الطبيعي لعلاقة جدية واعية مستقرة، أنا على أتم الاستعداد لها... طبيعتي الباردة لم تقلقه هو الآخـــر بل كان يردد دائما بأنني فتاة ناضجة واثقة من نفســـها ولا تكثر من الأسئلة وبأن هذا الأمر يجذبه بقوة إليّ.

* * *

حل الصيف وحان وقت الاستقرار... عاد نـــادر إلى بيروت، وتم عقد القران في المحكمة الشرعية لأبدأ بعدها لمدة شهرين بتنفيذ الديكورات التي رسمتها وصـــممتها لمنزلنـــا الزوجي بعد أن أتممت معاينته في غيابه برفقة أم رنا.

كان قد مضى عامان على موت عماد فسألت أمي:

- ألن تنزعي عنك ثياب الحداد؟
- لا.
- على الأقل كي تفرحي بـــي ليلة عرسي.
- تعلمين أني أتمنى لك السعادة، ولكن الفرح لم يعد له وجود عندي.
- ألست ابنتك... هل تتوقف الحياة على ولد واحد، إن غاب غابت الفرحة وإن كان حاضراً كان من حقنا أن نسعد... جميعنا حزينون لرحيله ولكن ألا نستحق نحن الأبناء الآخرون أن تشاطرينا لحظاتنا

والبسمة على وجهك... ألا حق لنـــا عليـــك... أعلم أن ما أقوله صعب وأن قطعة من روحـــك ماتت مع رحيله، ولكننا ما زلنا أحياء، وما زلت أمي ومن حقي أن تكوني بجانبـــي ليلة عرســـي وإلا فلن أقيمـــه... لا يمكـــنني تصـــور الحفـــل بدونك... أبـــي لا اعتراض عنـــده... قـــال إن الحداد في قلبه ولن يبارحه يوماً ولكنه لا يعلن عن ذلك... أمي أرجوك، فكّري في الأمر...

صمتت وشردت إلى البعيد، وبعد نصف ساعة قضتها في غرفتها منفردة خرجت بثيابها السوداء لتخبرني أنه موعد زيارتها قبر عماد...

جعلتني محاولاتي الفاشلة لإقناعها أفكر بشكل جـــدي بإلغاء حفلة العرس التي كانت تقوم أم رنا بالتحضير لهـــا في أفخم فنادق المدينة ما استدعى تدخل أبـــي الذي أخـــبرني فيما بعد عما دار بينهما.

* * *

لحق بها ليجدها كعادتها، كل مساء، منذ عامين جالسة على أحد الحجارة الصغيرة التي كان يتم تثبيتها حول القبور، بفستانها الأسود والشال الذي يتدلى على كتفيهـــا تضـــع وجهها بين يديها وتبكيه بحرقه وكأنه يوم الغياب الأول.

اقترب منها، مدّ لها يده:

- تعالي يا مريم.

رفعت رأسها قائلة:

- أنت هنا! متى أتيت؟
- منذ لحظات.
- لم أعهدك من زوار القبور.
- أتيت لأجلك، أردت رؤيتك بعيداً عن البيت والأولاد.
- ما الأمر!

تعالي لنذهب إلى الشاطئ... أحتاج إلى الحديث معك.

- أعلم ما ستقوله... أتظنني لا أعرفك، ستتكلم عن عرس عبير وحدادي وعدم رغبتي بحضوره فاجلس بجانبي ولا داعي للسير على الشاطئ.
- لا لن أكلمك عن ذلك أبداً... في هذا الأمر بالذات القرار قرارك، والرأي رأيك، والحزن ليس بأيدينا وإن كنت آمل أن تملكي القدرة على تناسيه... تعالي يا مريم احتاج إلى السير معك مسافات ومسافات لأفرغ ما في قلبي ومن غير البحر قادر على احتواء ما في نفوسنا...
- حسناً، دعنا نذهبْ.

سارا جنباً إلى جنب من المقابر وصولاً إلى شاطئ صور الرملي الذي لا يضاهيه جمالاً أي شاطئ آخـــر، والهـــواء يتلاعب بشعرها الأسود الجميل الذي خطّه بعض الشيب... كانا على انسجام تام ويدها في يده... خلعـــا حـــذائيهما واقتربا ليكملا السير بمحاذاة المياه.

- مريم، أعلم أن الحزن على عمـــاد يتخلّلـــه نـــدم وشعور بالذنب داخلك...
- لا أدري يا أحمد...

قاطعها واضعاً إصبعه على فمها:

- لا تكملي، استمعي لي فقـــط، ثم أخـــبريني إن لم أكن محقاً.

إصرارك على سفره بعد اتفـــاق الطـــائف يقـــض مضجعك، ولكنك لست السبب يا مـــريم وســـأخبرك سراً... رغم ممانعتي للأمر وقتها ومحاولاتي لنهيه عن ترك دراسته، لكنني بداخلي كنت أشعر أنها خطـــوة لا بـــد منها... لربما كان في الأمر أنانية من قبلنا ولربما كنا على حق ولكننا بالتأكيد لسنا من نملك القـــرار بالحيـــاة أو الموت... وحده الخالق من يقرر ذلك... وأنت إنســـانة مؤمنة. ألا تذكرين عندما كنا نقرأ سوياً رسالة بـــولس الرسول إلى أهل رومية وما ورد فيها "إن عشنا فللـــرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت، وإن عشنا أو متنا فللرب

نحن"[1] وفي سفر المزامير ورد "عزيز في عيني الرب موت أتقيائه"[2] و"عرفني يا الله نهايتي ومقدار أيامي كم هـــي، فأعلم كيف أنا زائل"[3]...

انهمرت دموعها على خدها.. صامتةً كانت تلاعـــب المياه بقدميها وتستمع إليه ليكمل:

- كلنا من تراب وإلى التراب نعود... الموت حـــق يا مريم، وقد قال الله تعالى أيضاً في كتابه الكريم في سورة آل عمـــران ﴿**كُـــلُّ نَفْـــسٍ ذَائِقَـــةُ الْمَوْتِ...**﴾[4] وفي سورة لقمان ﴿**... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِـــأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...**﴾[5] وفي سورة النحل ﴿**... فَإِذَا جَـــاءَ أَجَلُهُـــمْ لاَ يَسْـــتَأْخِرُونَ سَـــاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[6].

أعلم يا مريم أن الأيام ستتوالى ثقيلة ومتخمة بالألم وأن غياب ولدنا جرح لن يندمل، ولكنْ للحياة علينا حق ودين بأن نحياها بقناعة وهذا الدين علينا أن نوفيه.

(1) رسالة بولس إلى أهل رومية 8:14.
(2) سفر المزامير 15:116.
(3) سفر المزامير 4:39.
(4) سورة آل عمران: الآية 185.
(5) سورة لقمان: الآية 34.
(6) سورة النحل: الآية 61.

اقتربت منه فاحتضنها بشدة ليمسح بيديه دموعها التي، لكثرها، منعتها من رؤية دموعه...

* * *

العرس الذي أُقيم كان خرافياً لما احتواه من بذخ بدأ مع الفستان الذي صُمّم خصيصاً لي في باريس وأتى به نادر إلى الزفة الرائعة التي افتتح بها... إلى وجود الشخصيات السياسية والفنية والاجتماعية التي كانت بارزة في المدينة... إصراري على دعوة جميع من أعرفهم في صور لم يعارضه نادر بل على العكس كان كريماً جداً ومرحباً طالباً مني فقط تحديد عدد المعازيم وإبلاغ أم رنا به لزوم الإعداد للحفلة.

مرت الليلة سريعاً... بحضور كل من أحبهم وأولهم أبي وأمي... مرت كما أردناها تماماً لنكملها في غرفتنا في الفندق بالنوم لشدة التعب الذي كنت أشعر به فما إن دخلت للجناح المخصص لنا حتى خلعت حذائي الذي كان يضغط طوال الوقت على أصابعي، لأستمر بعدها لأكثر من ربع ساعة وبمعاونته بفك الدبابيس التي كانت تسكن شعري وكأنها معمل للحديد أنشئ على حين غرة من العرس.

كنا نضحك ونحن نعدهم لأبدأ بعدها بنزع الرموش المستعارة... وبعد الانتهاء من إلغاء ورشة الصيانة ومسح

البويا التي يقومون بها للعروس في بلادنا أخبرته بأنني سأذهب لأستحم... ليقول لي:

- عبير، أشعر بتوترك، ولا مانع لدي من الانتظار إن كنت تريدين ذلك.

بخجل أجبته:

- شكراً لك... أنت حقاً أروع إنسان عرفته.

-27-

أتت إليه محمّلة بقالب من الحلوى وهدية اختارتها لــه وكانت عبارة عن محفظة جلدية باللون البني... ســألها مــا الأمر لتجيبه:

- إنه عيدك وعلينا أن نحتفل.
- ولكن عيدي كان منذ أيام...
- لا يهم... لم أستطع رؤيتك والآن أتيت لأعوض الغياب...

وضعت قالب الحلوى على الطاولة أمامه وأصرت على تصويره وهو يقوم بقطعه متمنياً أمنية لم تعلم بها وإن كانت تأمل بأن تنال نصيباً فيها... أراد أن يأكلا منه فأجابته أنهــا غير قادرة على تذوق أي شيء... ســواه. تــرك مكانــه واقترب منها ليعيشا ساعات الحب المسروق الــتي كانــا ينتظرانها بشغف وشوق مجنون.

وهي نائمة على صدره فكّرت ووعدت نفسها بأنه في العام القادم ستكون معه في يوم عيده، ولن تؤخر الأمــر أو

تقرّبه... ستفعل المستحيل لتعيش لحظات ولادة عام جديد في عمره.. ستزين المنزل بالبالونات وستهديه أكثر من هدية... وستقوم بإحضار قالب من الحلوى بتصميم خاص له... وستسعده كما لم تفعل من قبل... ستكون ملكه طوال النهار، ولن تفترق عنه لساعات... ستعد طعام الغداء بنفسها ولن يأتيا بالطعام الجاهز كعادهما... أحلام اليقظة وأمانيها للعام القادم أفرحتها وإن لم تخبره عنها... أما هو فكان هائماً بها يقبّلها وهو يمر بأصابعه على رقبتها وصولاً لأسفل ظهرها كتيار كهربائي ضلّ طريقه ومسّها...

قبل وداعها له أخبرها أنه سيتوجه إلى مكان قريب من سكنها فاقترحت عليه أن يسيرا معاً، كل في سيارته، ليكسبا أطول وقت ممكن سوياً فرحب باقتراحها.

سار بسيارته أمامها لتنطلق خلفه، كان يقود ببطء كسباً للوقت ثم قام – لدهشتها – بتصويرها وهي خلفه من مرآة سيارته الأمامية وأخذ بإرسال الصور إليها لتضحك من قلبها لأفعاله التي وجدها قمة في العفوية والحب.

مرت ساعة وهما على هذه الحال يسيران أحدهما خلف الآخر ويتبادلان الحديث ببضع كلمات على الهاتف ويرسل لها بصورها وهي تلحق به... إلى أن وصلا إلى مفترق الطريق... وكأن القدر أراد حتى في مشوارهما أن يبعدهما عن بعض وكأن تلك الساعة كانت مجرد صور لحياقما

وعلاقتهما المستحيلة، التي بدأها كل منهما بسيارته بعيـــداً عن الآخر، فترافقا برهة من الزمن ليفصل بينـــهما مكـــان السكن والقدر والطريق...

-28-

زرنا بلداناً أوروبية: ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وبريطانيا على مدى ثلاثة أسابيع، كانت هي شهر العسل. أحببت السفر والتنقل بالطائرة التي صعدت على متنها للمرة الأولى... أحببت المدن التي زرتها والتي أصبح مروري بها فيما بعد أمراً روتينياً لا شيء مبهر في حدوثه. ولكن، في تلك الأسابيع الثلاثة كنت مثل (أليس في بلاد العجائب) أو (سميرة توفيق في لندن) أتنقل من مكان إلى آخر معجبة بما أراه من مبانٍ شاهقة وشوارع نظيفة وتنظيم للمرور ومراعاة للقوانين... تملأني الدهشة لكل ما أقوم بتجربته... كانت المرة الأولى لي في أمور عدة، وأهمها المرة الأولى مع رجل اختبر الأنوثة والرجولة لحظة اتحادهما، اختبر ما سمعت عن كونه اللذة التي أتت على ملوك وأرهقت سلاطين وغيّرت تاريخاً تلو الآخر لقوتها... أختبر ما ظننته سينقلني للعيش فوق السحاب فإذ بي بالكاد أطال الأرض. أهذه هي الحياة الزوجية؟ هل هذه هي العلاقة التي يقتتل الناس لأجلها

ويزحف الكثيرون للوصول إليها؟ يا للعجب، فأنا لم أشعر بالسعادة فيها رغم رقته معي وصبره على تمنعي عن أمور عدة كان يطلبها. ومع مرور الوقت أصبح الأمر بالنسبة إليّ عبارة عن واجب يقتضيه الزواج ولكي أكون في علاقة ناجحة يفترض أن لا اعترض على ما سنته الشرائع والقوانين الوضعية والإلهية والطبيعية. هذه هي الحياة وأنا لست سوى امرأة كباقي النسوة. ولكن سؤالاً واحداً ملحاً كان يقضّ مضجعي: هل جميعهن كذلك؟ هل يشعرن بما أشعر من نفور وعدم رغبة ويدّعين العكس؟ هل وحده الرجل من يستمتع بالعلاقة؟ وإن كان الوضع كذلك فلماذا تخون النساء؟ لماذا يسعين إلى إقامة علاقات إسوة بالرجال؟

تساؤلات لم أستطع البوح بها سوى لنفسي. فكتمتها وكتمتها لسنوات وسنوات.

* * *

لم تكد تتعافى أمي من مصيبة وفاة عماد ولو جزئياً حتى أتتها المصيبة الثانية... عليا الحامل في شهرها السادس، والتي كعادتها كانت تمضي إجازة الصيف في لبنان، تعرضت إلى حادث قُتل بسببه الجنين ما اضطر الطبيب لإجراء عملية قيصرية لها لإخراجه... هذا ما قاله أيمن لأهلي عبر الهاتف فهرعوا إلى بيروت للاطمئنان عليها.

بدوري اتصلت بالجدة لأخبرها بما حدث قبل انصرافي للقائهم في المستشفى فسألتني:

- حادث! أي حادث هذا؟ هل أنتم متأكدون أنه حادث.
- ما الذي تقصدينه؟
- لا أظنه حادثاً يا ابنتي. على العموم اذهبي وأعلميني بالوضع عندما تصلين.
- حسناً، سيكون لك ذلك.. لا تقلقي، لقد قالوا إن وضعها مستقر الآن.

وصلت ليستقبلني عيسى طابعاً قبلة على خدي:

- أهلاً بالعروس... وقبل أن تسألي.. هي بخير.
- عيسى، ما الحادث الذي تعرضت له؟
- يقول أيمن إنها وقعت على الدرج الداخلي لمنزلهم.

كنا نتكلم ونحن نسير في الممر المؤدي إلى غرفتها.

- عيسى؟ أي درج هذا وكأنك لا تعرف البيت! إنها مجرد ثلاث درجات أتظنها كافية ليحدث لها ما حدث؟
- في الحقيقة أنا أيضاً لم أقتنع بذلك ولا أظن أهلك صدقوا هذه الرواية. ولكنها صامتة ترفض الكلام وأيمن لا يفارقها، يجلس بجانبها طوال الوقت ممسكاً بيدها يقبّلها.

- إما لإحساسه بالذنب وإما لخوفه من أن تبوح بما جرى.

كنا قد وصلنا إلى باب الغرفة عندما استدركت وسألته:

- أين الأولاد؟
- قال إنه أرسلهم مع السائق عند أهله في الجنوب؟
- آه...

وقبل أن أكمل كلامي فتح أيمن الباب ليستقبلنا بابتسامته الصفراء:

- أهلاً عبير... كيف حالك؟

أجبته باقتضاب ونظري موجّه إلى عليا التي كانت غافية بينما كان عيسى يسأل عن والديّ ليجيبه قائلاً إنهما يتناولان القهوة في كافتيريا المستشفى.

جلست بجانبها وما هي سوى لحظات حتى استفاقت وبتعب شديد سألتني:

- أنت هنا؟

فأمسكت بيدها:

- نعم، وسأبقى بجانبك. جميعنا هنا: عيسى في الصالون مع أيمن، ووالداي تحت يشربان القهوة، وعايدة ومحمد على الطريق... لا تخافي يا عليا أنت بأمان ولن نتركك أبداً.

دمعت عيناها وسألتني:

- والأولاد.
- كما عرفت أرسلهم أيمن إلى الجنوب لتهتم عائلته بهم إلى أن تتعافي.

انهمرت دموعها ولاذت بالصمت فسألتها:

- عليا... ما الذي حدث؟ تعلمين أنه باستطاعتك إخباري مهما يكن الأمر.
- إنه حادث، صدقيني.

أمسكت بهاتفي المحمول واتصلت بالجدة وأنا أقول إنها تريد الاطمئنان عليها، فكلمتها بضع كلمات قبل أن تعتذر بحجة التعب.

عادت الدموع لتنهمر على وجهها وهي تخبرني:

- لقد كانت فتاة... كان سيصبح لي ابنة...

لم أستطع الصمود أكثر أمامها وادعاء القوة فبكيت لوجعها.

دخلت أمي، قبّلتني وانحنت تضع يدها على جبين عليا وقالت:

- نادي على الممرضة أشعر أن حرارتها عالية.

ضغطت الجرس الصغير المثبت بجانب السرير وأنا أردد:

- إنها متعبة ولكن وضعها مستقر، لا تقلقي يا أمي.
- وكيف لا أقلق؟ ألا ترين حالها؟ وما فعله الحيوان

الجالس في الخارج بها؟

- من قال ذلك؟ هل أخبرتكما بما جرى.
- وهل نحن في انتظار أن تخبرنا؟ الأمر واضح وضوح الشمس، والطبيب أخبر والدك عن وجود كدمات على جسدها.

قالت باكية:

- لا، لم يحدث ما تظنون.
- بلى يا عليا حـــدث، والآن لا تتكلمـــي. بعـــد خروجك من هنا سيكون لنا تصرف معه... لقد ناقشت الوضع مع والدك ونحن في انتظار أن تتعافي وتقفي على قدميك لنقرر مـــا الـــذي يجـــب أن يكون...
- لا تقرروا شيئاً أنا أريد البقاء مع أولادي.
- عليا سنتكلم بالأمر بعد خروجك وستخرجين من هنا إلى بيتنا في صور أو إلى بيت الجـــدة. لقـــد اتصلت بنا وأخبرتني عن رغبتها في ذلك، وهـــذا الأمر أتركه لك...

قالت ما لديها وخرجت من الغرفة لتنضم إلـــيهم في الخارج وإذا بعايدة ومحمد يصلان.

دخلا الغرفة ورغم برودة عليا الدائمة معهما وإعلانها في أكثر من مناسبة عن عدم رضاها على هـــذا الارتبـــاط

وعدم إحضارها أي هدية لعايدة بمناسبة الخطبة إلا أنهما كانا محمّلين بالورد والحلوى وعايدة تحاول أن تكون بمرحها الدائم وهي تقول:

- عليا يا عليا، أنت بخير. لقد ظننتك تموتين.

نهرها محمد:

- ما هذا الهراء؟ أهكذا تسلّمين عليها؟
- يا إلهي أنا أحاول إضحاكها قليلاً.

فضحكت عليا لهما وقالت:

- لا عليك يا محمد.

عند المساء عاد أيمن إلى البيت بعد أن اطمأن أنها لم تنطق بكلمة، وأمام إصراري على البقاء معها على أن يذهب الباقون للمبيت عند الجدة. بعد اتصالي بنادر لأبلغه بالأمر واعتذاره لأنه لم يستطع الحضور لكثرة الأعمال صارحتني ليلاً بما حلّ بها:

- عاد إلى البيت عند الفجر مخموراً كعادته.. أيقظني لأني كنت نائمة فأنا لم أعد أنتظر حضوره كالسابق، بل على العكس لم اعد أرحّب بقدومه معنا إلى لبنان، لأن الإجازات التي أقضيها بدونه هي الأوقات الوحيدة التي أنعم فيها بالسلام. اعترضت وأنا أقول له:
- ألا تراني نائمة؟ ماذا تريد في هذه الساعة؟

- أريد زوجتي.. أريد امرأة في فراشي إن كنت لا زلت تذكرين أنك امرأة... كان يتذمر في الفترة الأخيرة لأنني كنت أهرب من العلاقة معه، فجنّ جنونه عندما قلت إنني بت أشعر بالقرف كلما اقترب مني...
- ولِمَ تتهربين؟ ألا تحبينه؟ لقد ظننت علاقاتكما على ما يُرام وأن مشاكلكما عادية وتحدث في أي منزل.

كنت أنطق بكلماتي وأفكر بأنني على ما يبدو على حق في نظرتي إلى الجنس وأنني لست الوحيدة التي لا تجذبها العلاقة الجسدية...

- أيمن عصبي جداً وعصبيته لا تحتمل، وهي لا تتوقف عند التعنيف بالكلام.. بل هو لا يهدأ إلا عندما يكيل لي اللكمات... ولم تستطع أن تكمل.. أخرسها الدمع مجدّداً.
- ولماذا تصبرين على هذا الوضع؟ لماذا لم تقولي لي على الأقل؟ ما الذي يجبرك على الصمت؟
- وإن تكلمت ما الذي سأناله سوى الفضيحة؟ ليعلم كل الناس أنني أُضرب في بيتي.
- ما كنت ستستفيدينه هو تركه والعودة مع أولادك إلينا.

- العودة إليكم نعم، ولكن مع الأولاد! أنت تحلمين. هل تعتقدين أنني سأحظى بحضانتهم؟ ألا تعلمين أن الشرع معه والحضانة في سنهم الآن له. وحتى إن كانا لا يزالان في المهد أتظنين أنني بنفوذه في البلد ووساطة أهله سأتمكن من الوقوف في وجهه... إن تركته يا عبير سأخسر الصبيان ولا يمكنني ذلك.
- بلى يمكنك المحاربة من أجلهما ومن أجل كرامتك ومن أجل العيش بسلام.
- لقد عدت إلى الأحلام مجدداً. ثم إنه ليس بهذا السوء، فهو كريم جداً كما تعلمين، ومحب للأولاد بجنون، حتى إنني أجزم أنه يحبني أيضاً ولا يقوى على فراقي رغم كل شيء ولكن طباعه الصعبة هي عيبه الوحيد.

صمتت... ولم أرد أن أناقشها وهي متعبة وعلى سرير المرض. ولكن أيعقل أن يجد السجين عذراً لسجانه؟ أيمكن للمذبوح أن يقول إن من رفع السكين وذبحه على حق وإنه يحبه... أيحق لنا أن نعفو ونجد المبررات لظالمنا؟...

* * *

خمسة أيام مرت قبل أن تخبرني عليا بعد تفكير عميق عن رغبتها بالعودة إلى صور، ما استدعى إبلاغ أبي بالأمر لينقله بدوره إلى أيمن، لعدم قدرتها على مواجهته بقرارها.

استقبل أيمن الخبر بامتعاض قائلاً إن الأولاد قد اشتاقوا إليها كثيراً، وعليها العودة إلى منزلها ليعيد لم شمل العائلة. فأجابه أبي إنها متعبة وتحتاج إلى الراحة وطلب منه إحضار الأولاد إلى صور للبقاء مع والدتهم فرفض ذلك.

- عمي، أنت أدرى أنه لا مكان لهم في بيتكم لصغره، أما هنا وبإمكانكم جميعاً الحضور والبقاء بجانبها إلى أن تتعافى.
- يبدو أن الأمر غير واضح إلى الآن يا أيمن... نحن لا نريدها أن تعود إلى منزلك ولا أظنها تريد ذلك.
- لا أظنك جدياً فيما تقوله.
- وهل من عادتي المزاح معك؟
- عليا لا يمكنها الابتعاد عني وعن الصبيان، وسترى بنفسك.

* * *

سافر نادر إلى فرنسا لإتمام صفقة كان لا بد من حضوره شخصياً لإبرام عقودها، وتركني وحيدة لأسبوعين.. أقضي الوقت بزيارة المتاجر لشراء الملابس وزيارة الجدة وأم رنا وأحياناً أذهب إلى صور للاطمئنان عليهم وعلى عليا بالذات، التي كانت لا تزال صامدة في منزلنا ومصرة على عدم العودة إلى أيمن رغم حرمانها من رؤية الصبيين...

بعد عودته، ومن أجل إرضائي، أخبرني أنه عليّ تعلم القيادة ليكون لي سيارتي الخاصة. وعندما اعترضت لأنه لا داعي لذلك طالما يوجد سائق قادر على أخذي إلى أي مكان أريده أصر وهو يقول: لا توجد امرأة لا ترغب في تعلم القيادة. طبع قبلة على وجنتي قبل خروجه وطلب مني أن أكون جاهزة في تمام الساعة الثالثة للبدء بالدرس الأول.

طرت فرحاً وأنا أفكّر كم أنني ظالمة له، فها هو يعبّر عن حبه واهتمامه وشهامته. وهل تحلم الواحدة منا برومانسية أكثر من ذلك.

ارتديت ثيابي بعناية واهتممت بزينتي أكثر من العادة وكأنني على موعد غرامي... انتظرت بقلة صبر الوقت الذي حدّده لي، وعند الثالثة دق قلبي بعنف مع رنين الهاتف لأتلقّى صوته:

- عبير، هل أنت جاهزة.

بفرح الأطفال أجبته:

- نعم... في انتظارك.

فضحك وهو يرد:

- انتظاري! هههههه هل ظننتني سأعلمك القيـــادة بنفسي؟
- ولكن... ومن غيرك؟
- يا عزيزتي هل تعتقدين أنني أملك الوقت لأضـــيعه في أمر بسيط كهذا؟ ألم تسمعي من قبل بشركات تعليم القيادة؟... أردت أن أذكرك فقـــط كـــي تكوني جاهزة لأن من سيرسلونه لتـــولي مهمـــة تعليمك سيصل خلال دقائق...

وقبل أن أرد عليه أضاف:

- عذراً عبير يجب أن أقفـــل الآن فلـــدي مواعيـــد مهمة... أراك في الليل.

وعاد في الليل ليجدني في السرير أتظاهر بـــالنوم فلـــم يقترب مني

* * *

اتصلت بأهلي في صور لأطمئن على عليـــا الصـــامدة على حدود الألم تحترق من لوعة الشوق لفلـــذتي كبـــدها وتكابر عاقدة العزم على الهروب من الجحيم الذي تعيشـــه

منذ سنوات... عليا التي احتاجت لهذه التجربة القاسية لتقر وتعترف أن اعتراضها على ارتباط عايدة ومحمد كان من ضمن أسبابه الغيرة من حبهما والاحترام ومراعاة مشاعر كل منهما للآخر؛ تلك الأمور التي افتقدها مع أيمن وحاولت أن تعوضها بالمال الذي كان يغدقه عليها ولم تفلح...

أخبرني عيسى أن الوضع على ما هو عليه رغم مرور شهر على خروجها من المستشفى، وأن أيمن أرسل أخاه ليخبرهم بأن الطلاق يقابله الحرمان من الصبيين اللذين سيستقران معه في السعودية...

-29-

كانت تقف في غرفته تتذمر من الفوضى التي تراهـــا أمامها، وهو يضحك ويقول إنها لا تنتـــهي مـــن كيـــل الانتقادات له كلما دخلت منزله...

سألته: لماذا لم تأتِ المرأة التي تنظف المكـــان بشـــكل دوري؟ وبدل أن يجيبها نظر إليها وأخبرها عن أمر لم يخطـــر ببالها، وهما على مشارف عطلة عيد الميلاد ورأس السنة، بأنه يفكر بالسفر إلى إحدى الدول الأوروبية لقضاء الأعياد هناك.

بدهشة بدت واضحة على وجهها سألته:

- ماذا؟ ومع من؟
- مع... لقد عرضت الأمر عليّ وقالت إنها ســـتتدبر أمر تأشيرة الدخول و... ما الأمر؟ مـــا بـــكِ؟ لَمَ تنظرين إليّ هكذا؟ وضحك بصوت عالٍ وأضاف:
- لماذا أشعر أنك ســـتموتين في هـــذه اللحظـــة... اطمئني لن أسافر.. ولم أعطها موافقتي... هو مجرد اقتراح من قبلها.

- وكيف تفكر في السفر معها أساساً وأنت تعلم أنها ترغب فيك... هذا الاقتراح هو لإعادة العلاقة معك ألا تدري؟ أم أن الأمر يعجبك؟
- هي الآن، ومنذ مدة، مجرد صديقة لا أكثر.. وأنت تعرفين...
- وخلال السفر ستكون صديقة! لا أظن ذلك...

اقترب منها وأسكتها بقبلة على شفتيها لترمي بقطعة الملابس التي كانت في يدها على الأرض وليرمي بها على سريره...

* * *

عاكستها الظروف لتمنعها من رؤيته ثلاثة أسابيع، مرت عليها كدهر، تواصلهما فيها اقتصر على الهاتف والمحادثات اليومية التي لا تنتهي... كان يعلم، رغم البعد، بأخبارها وأخبار أولادها أيضاً وعائلتها... كان يشاركها مشاكلها ناصحاً وباحثاً معها عن سبل لحلها... وبدورها كانت تلم بكل ما يحدث معه. كان يأخذ رأيها في كل أموره... التفاصيل اليومية تبدأ مع ما سيرتديه كل صباح، فهي على علم بجميع ما تحتويه خزانته من ملابس كانت تقوم بنفسها بترتيبها له مع كل زيارة، فلا تنهض من سريرها إلا بعد أن تطمئن على أناقته بصورة يرسلها إليها

ليبدأ نهارها ولتشرق شمسها من عينيه.

حبها له كان يزداد كل يوم ويقوى ويشتد وهي تشعر به عاشقاً متيماً.

سألها في إحدى محادثاتهما الليلية عن وضعهما سوياً والى أين هما سائران؟ لترد عليه بسؤال افتراضي عما كان سيحدث لو لم تكن مقيدة بسجن الزوجية وأماً... ليخبرها بأنه كان سيرمي بنفسه عندها.

- وماذا عن فارق العمر؟

كانت تسأل رغم علمها بأن الأمر غير ظاهر بتاتاً، وبأنها جميلة بشهادة كل من يراها ولا يمكن لأحد تحديد عمر لها...

- الأمر لا يهمني.

وعادت لتسأل عن أمر آخر، إذ يصعب على الأهل في مجتمعاتنا الضيقة والرجعية حد النخاع في داخلها وإن كانت تدّعي العكس أن تتقبله:

- وماذا لو كنت مطلقة؟ هل سيرضى أهلك بي؟ بامرأة تكبرك ومطلقة وأم؟
- ومن قال إنهم لا يرضون... أهلي أناس طيبون ولا يهمهم سوى سعادتي... ثم إنني لست بطفل وأمر إقناعهم مشكلتي وأنا من يحلها...
- أنت تعلم مدى رغبتي في البقاء معك ولكن...

عند ذلك توقفا عن الحديث، عن أحلام كان يعلـــم كلاهما صعوبة تحقيقها... ليبدأ الشوق برســـم كلماتـــه بينهما.

-30-

وضع عليا الصامدة بدأ بالانحدار، ومقاومتها بـالتعثّر بشوقها إلى الصبيين... ونحن حائرون لا ندري ما الـذي علينا فعله؟ هل نرمي بها إلى النار مجدداً بأيدينا كي تبقى مع ولديها؟ أم نمنعها بقوة عاطفتنا كي تربح حياتها... وهل يحق لنا اتخاذ القرار عنها... هل يمكن أن يكون هنالك بوادر خير وأمل أن تتحسن أخلاق زوجها... وإلى أن تتحسـن ما الذي سيحدث؟ وكيف ستكون أيامها؟ لقد كشفت كـل الأوراق ولم يعد الطابق مستوراً كما يقولون... لم تعد تمثل دور الزوجة السعيدة وتفاخر بما تملك لتعمي أعيننـا عمـا تعانيه، وكي لا يشمت بها الجيران والأصدقاء ومن حولها... وماذا عن أمي التي عاد الشعور بالذنب ليتلبّسها هي الـتي دفعتها للزواج منه واقفة بوجه أبـي الذي عارض الأمـر بشدة ليستسلم أمام إصرارهما معاً.

القرار الذي لم يتجرأ أي منا على اتخاذه أعلنته عليـا بنفسها عندما أخبرتنا بأنها ستعود إليه وبأنها ستتصل به بعد

قليل ليأتي ويأخذها...

لم يعارضها أحد و لم يبدِ أحد من أهلي رأيه بالأمر في انتظار ما سيحدث.

وما حدث لم يكن بالحسبان...

أيمن كان قد سافر إلى السعودية مـــع الصـــبيين دون إعلامها أو إعلام أي من أفراد العائلة... الخبر كان له وقـــع كبير على أعصابها التالفة فانهارت على الأرض... وهي التي لم تستعد عافيتها بعد مما حلّ بها.

حملت نفسي وأتيت إلى صور لأبقى بجانبها وحاولت إقناعها بشتى الطرق بالقدوم إلى بيت الجدة كي تخرج قليلاً من مأساتها فرفضت...

* * *

وكأن الحزن يأبى أن يغادرنا وكأن الثياب الســـود قد وُجِدت كـــي لا ترتـــدي أمـــي ســـواها لأعـــوام وأعوام...

دون أي إنذار، دون أي إشـــارة، ودون أي وداع... كان الموت في انتظار أبـــي... فغادرنا.

هرعت إلى صور عندما علمت بالخبر... بثياب النـــوم كالمجنونة ركضت صاعدة الدرجات، اثنتين وثلاثاً معاً وأنا أصرخ باكية لا... لا...

لم يكن على فمي سوى تلك الكلمـــة... أبـــواب الجيران كانت كلها مفتوحة في ذلك الفجر الأليم وصوت القرآن يملأ المبنى... أمي في الصالون تنتحب والنسوة من حولها... عليا المنزوية في غرفتها طوال الوقـــت، علـــى حالها، وجدتها في السرير جالسة تضغط بركبتيها علـــى صدرها واضعة رأسها في حجرها تبكيه بصمت... عايدة في انهيار هي الأخرى وعيسى الذي حضر من بـــيروت مثلي، على وقع الخبر، الصدمة مرسومة على ملامحه وهو جالس في بيت أم محمد الذي فتح أبوابه للمعـــزين مـــن الرجال...

السكتة القلبية التي عانى منها أسكتت كل فرح كـــان يمكن أن يتسلّل إلينا وأماتته إلى الأبد.

بقيت في صور عشرة أيام حضرت خلالها رنا وأمهـــا لتقديم واجب العزاء... وأتى نادر لمرة واحدة سريعة وكأنه غريب عنا، وكأن المصاب لا يعنيه وكأنني لست زوجتـــه ومن توفي هو والدي... قدم المواساة بكلمـــات مقتضـــبة واضعاً مبلغاً من المال في يديّ جازماً أنني ســـأحتاج إليـــه وانصرف...

ما زلت أكتب قصتنا، أروي لمن سيقرأ كيف التقينا وحدث ما حدث بيننا.

أنا الآن في المنتصف، منتصف البوح، منتصف الرواية، منتصف الحب ومنتصف نسيانك... لم أعد أراك كلك، فهل بدأت تتلاشى؟ كلما زدت في الكتابة زاد وجهك بعداً وغرابة... فهل كنت أحتاج لشاشة وأزرار أضغط عليها بأصابعي طوال الوقت لأحرر نفسي منك... لأضيع في ذكريات كثيرة تستحضرني، تقفز أمامي صارخة: اكتبيني.

لم أطمح لأكثر من رمي حمل مشاعري فإذ بي ألقي عن كاهل العشق همك... أتحرر درجة درجة من حبك وهوسي ومرضي بك... نعم مريضة أنا بك، مدمنة عينيك ولكنني في طريقي لأتعافى، كلما انتقلت لصفحة بيضاء جديدة كلما ابتعدت بالمسافة ما بين قلبي وقلبك...

فادعُ لي بالشفاء، بالخروج من مصحة الكلمات امرأة جديدة قادرة على شطب الحزن من قيود هويتها، على زرع الأمل في نفسها، على فتح ذراعيها للحياة...

-31-

هاتفته لتقول إنها ستمر عليه في الاستديو الخاص به، والذي كان عبارة عن غرفة كبيرة بديكورات ثابتة مختلفة وأخرى يمكن تغييرها حسب الحاجة، مع مكتب مرفق.

دخلت إليه لتجده برفقته رجلين يتفقان معه على موعد لجلسة تصوير خاصة في معرض يملكانه.

جلست بصمت تراقبه وهو يقوم بتسجيل الملاحظات والتفاصيل على الكمبيوتر قبل أن يودعهما ويقفل باب المكتب خلفهما ويحتضنها:

- اشتقت إليك... لا تغيبي عني كثيراً.
- أنا أيضاً... ولكنك تعلم...

علا رنين الهاتف الأرضي فتوقفا عن بث أشواقهما أحدهما للآخر، فانشغل عنها بالحديث. وبينما هي تدور حول المكتب لتصل إليه بدأت رسائل (الواتس أب) بالوصول إلى هاتفه المحمول... انتابها الفضول فألقت نظرة

على الشاشة لتجد أن الرسائل من امرأة ممن يعرفهن وكان قد أخبرها مرة عنها وعن مدى سخافتها وسطحيتها وعدم قدرته على الانسجام فكرياً معها. بحركة لا إرادية التقطت الهاتف وفتحته لتجد بأن المحادثات مستمرة فيما بينه وبينها... أخذت ترجع إلى الوراء لترى أنهما كانا على موعد ولأكثر من مرة... جنت واشتعلت الغيرة في قلبها مانعة عقلها من تدبر الأمر... أم أنها وجدتها إهانة لمشاعرها تجاهه... أم تراها أدركت متأخرة أنها مجرد امرأة كباقي النساء في حياته ولكل منهن وقتها... أفكار كثيرة تنازعتها وهي تحمل الهاتف جامدة تنظر إليه فتنبّه وسألها:

- ما بك؟
- لا شيء.
- أهذا هاتفي الذي في يدك!
- أجل هاتفك وقد رأيت ما فيه.

وبعصبية رمت بالهاتف بكل قوتها على المكتب وأمسكت بحقيبتها خارجة من دون أن تلتفت إليه...

مشت في الشارع كالعمياء بسبب دموعها وما كادت تصل إلى السيارة حتى رن هاتفها:

- ما هذا الذي قمت به؟ كان يتكلم بغضب وكأنها من أخطأت بحقه.

- لقد قرأت كل شيء... كل شيء.. لا تنكر الأمر أنت تخرج معها.
- ومن قال إنني سأنكره؟ هي مجرد صديقة.
- صديقة وتأتي لزيارتك في البيت!!
- وما الضرر في ذلك... أنسيت أنني شاب وأحتاج للتسلية من وقت إلى آخر.

ويا الله ما هذا الذي يبوح به... أقفلت الخط في وجهه كي لا تسمع المزيد، فعاد للاتصال بها لترد عليه ويتشاجرا مجدداً، وهو يحاول تبرير فعلته بعذر أقبح من الذنب الذي اقترفه، وليقول بانفعال إنها ليست زوجته لتحاسبه ولتقفل الخط في وجهه للمرة الثانية... ليعود بعد دقائق إلى الاتصال بها وليزداد انفعالها فتقول إنها لم تعد تريده وإنها كانت تتمنى أن تكون في علاقة مريحة بدلاً من هذه العلاقة المتعبة معه، وإنها قد استنزفت كل صبر لديها لاحتمال أفعاله... وأخبرته قبل أن تنتهي أن لا يعاود الاتصال بها لأنها قد وصلت لعملها ولا يمكنها الرد عليه...

عند المساء جلست في سريرها الكبير وحيدة تفكر به وبحالها معه... بغيرتها المجنونة عليه وتسأل نفسها هل أخطأت بما قالته؟... هل ستتحمّل قطع العلاقة؟ هل بإمكان قلبها أن يستسلم أمام أوامر العقل عندما يصدر قراراته

ويبرمها... ما الذي حدث؟ ليتها لم تنظر إلى هاتفه... ليتها تصرفت بعقلانية أكثر... ليتها صمتت و لم تعاتب إلى أن تعرف مدى العلاقة بينهما... ألم تكن تلك المرأة ترسل إليه وتدعوه بالهارب؟ ألا يدل ذلك على عدم اهتمامه بها؟... ليتها وليتها... ولكن ما نفع لومنا لأنفسنا إن كنا لا نستطيع العودة بالزمن إلى الوراء لتجنب ما يؤلمنا وما نقوله ويؤلم غيرنا...

أتراها جرحت مشاعره؟ أيحق له أن يكون في علاقة معها ويقضي الوقت مع غيرها... في الحقيقة لم تجد أي كلام حب في أحاديثهما التي قرأتها... ولكنها أكثر من تعرف أن بوحه بمشاعره لا يتم بسهولة... وهو، كما قال، شاب وأي شاب لا يخرج مع الصديقات إن كانت حقاً صديقة؟ ولكن أي صديقة هي تلك التي تأتي إليه في بيته إن لم تكن راغبة بتطوير العلاقة معه؟ وهل يحق لها التنزه والسفر مع زوجها وأولادها من حين إلى آخر ولا يحق له الأمر نفسه؟ ولكنها تقوم بما تقوم به مجبرة بينما هو بإرادته... واه ما أصعب الحيرة عندما تمزق صدورنا وتعلو لتخترق الرأس وتدور وتدور فيه باحثة عن جواب لا وجود له...

ما أصعب أن يحيلك الحب مفتشاً، تحرّياً سرّياً صغيراً وأنت تلاحق أدق تفاصيل محبوبك وأكثرها بساطة وكأن أمور العالم تقف عندها... ويا لهواها وهي تذكر كم مرة

ومرة سرّحت شعرها بفرشاته بقوة قبل رحيلها كي تعلــق بعض الشعيرات بها لتراقب في حضورها التــالي الوضــع ولتفرح كطفلة عندما تجدها على حالها ما يؤكد أن لا امرأة أخرى قامت باستعمالها...

-32-

إنه العام 2000.

عام تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي. بدأ الأمر في الحادي والعشرين من أيار ببلدة الغندورية مع انسحاب قوات العدو فجأة وزحف الأهالي إليها وهم يرفعون أعلام المقاومة فرحين لأن أقدامهم ستطأ الأراضي المحتلة منذ أكثر من عشرين عاماً... الزحف البشري انطلق من هنالك ليصل إلى جميع القرى المتاخمة للشريط الحدودي وليُعلن يوم الخامس والعشرون يوم التحرير عيداً وطنياً ما زلنا نحتفل به في لبنان كل عام.

تلقيت الأخبار وأنا قابعة في مستشفى الجامعة الأميركية بسبب الولادة المتعسرة التي مررت بها لأهب للعالم ابني البكر (خالد)، اسم أطلقته عليه بإصرار وأنا أفكر بالقائد العربي الذي هزم الروم في معركة اليرموك خالد بن الوليد... أخبار الجنوب والفرحة التي عمت الأهالي فيه أثرت في نفسيتي وجعلتني اشعر بالفخر وأنا أفكر بمقاومتنا

الشعبية التي أنهكت المحتل ليرى في انسحابه خيراً له... كنت استعيد في ذاكرتي أمجاد العرب الغابرة حالمة بعودتها...

* * *

لم تفارقني أمي طوال فكرة مكوثي في المستشفى التي امتدت أسبوعاً... نامت على الكنبة في الغرفة بجانبي... سهرت الليل تتفقد حرارتي وتقرأ الصلوات فوق رأسي... لم أشعر بحنانها كما شعرت تلك الأيام... رغم علمي بأن عليا أحق بالعناية مني وأن حالتها النفسية الصعبة تحتاج إلى المتابعة على أيدي أخصائيين علّها تجد الراحة... رغم علمي أن غياب أبي أرخى على عائلتي بظلاله السوداء المرهقة...

أرادت أم رنا الاحتفاء بولادة خالد بالزينة والمضافة للتباهي أمام عائلتهم ومعارفهم الكثر، ورفضت الأمر لأنني كنت لا أزال في حداد على أبي ولا رغبة لي أو مقدرة على استقبال أحد، وعلى الأحاديث المنمّقة والمجاملات السخيفة. أخبرت رنا بذلك لتقوم بنقله إلى والدها بأسلوبها الخاص، رنا التي رغم انشغالها الدائم بعد عملها في شركة لتصميم الديكورات الداخلية، أبت إلا أن تمر عليّ يومياً في المستشفى عارضة خدماتها ومحبتها ولطفها الذي لا يضاهيه لطف.

وإن كنت ستسألني عن نادر فماذا عساي أخبرك؟ لقد كان خارج البلد و لم يستطع الحضور كما قال للبقاء بجانبي، وأخبرني على الهاتف بأن مكتبه هنا سيتولى أمر المستشفى وأن باستطاعتي استعمال بطاقات الائتمان التي أملكها كما يحلو لي... هذا ما شغل باله. لم يكلف نفسه عناء التفكير إن كنت أحتاج لدعمه المعنوي لا المادي، إن كنت أحتاج لحضنه لا لماله، إن كان عليه أن يكون أول من يحمل طفله بين يديه...

* * *

الاتصال اليتيم الذي تم ما بين عليا وابنيها أحيا في داخلها بعض الأمل عند سماعها أصواتهما وهما يقولان لها كم اشتاقا إليها قبل أن يأتي أحدهم ليقفل الخط مانعاً إياهما من إكمال المخابرة... محاولات أم محمد عبر الأقرباء الذين تعرفت على أيمن من خلالهم قبل أن تأتي به كعريس باءت بالفشل وكذلك محاولات محمد للاتصال بعائلة أيمن كمحامٍ... ورغبته في رفع الدعوى ضد أيمن كانت مرفوضة من قبل عليا لعلمها بطباعه وبأن أمراً كهذا من شأنه أن يعقد الأمور لا أن يحلها... كانت لا تزال ضمنياً خائفة منه وفي الوقت ذاته تأمل بالرجوع إليه.

* * *

إيمان التي زارتني في بيروت للاطمئنان بعد الولادة يرافقها ابنها الصغير ذو الأعوام الخمسة كانت قد تغيرت؛ حجابها القديم المحتشم وملابسها الشرعية الطويلة التي لا تظهر أياً من مفاتنها استبدلت بهما الجينز الضيق والبلوزة الأضيق والمكياج الفاقع. رؤيتها على هذه الحالة صدمتني وأول سؤال تبادر إلى ذهني لألقيه عليها كان:

- أيعلم والدك أنك تخرجين هكذا؟!
- لا يهمني.
- ماذا!!!!
- لم أعد أهتم لأحد وإن كان لا يعجبه شكلي فسأنتقل للسكن بمفردي. ثم إن مرضه يشغل باله أكثر من أي شيء آخر؛ ألم تعلمي أنه يقوم بغسيل للكلى مرتين في الأسبوع وكما تدرين فإن أخي خليل قد سافر منذ عامين والباقون في المدارس... لقد بدأت أشعر يا عبير أنني المسؤولة عن البيت حالياً وخصوصاً أن أمي لا رأي لها كالعادة...
- كيف؟!!
- أنا من يقوم بالإشراف على الفرن ومحاسبة العمال، ورغم ضآلة ما بات ينتجه حالياً إلا أنه كافٍ لإعالة العائلة وتأمين ما يحتاجونه. أما عن نفسي فعملي يكفيني وزيادة وأنا سعيدة به...

- عملك يكفيك! وسعيدة!! ألم تخبريني سابقاً عـــن قله ما تكسبينه والمضايقات والتحرشـــات الـــتي تتعرضين لها من قبل أصحاب المحلات التي عملت فيها.
- الوضع الآن مختلف وسأسر لك بأمر الحاج الذي أعمل لديه حالياً. إنه رجل كريم جـــداً وشـــهم ويرعاني أحســـن رعايـــة ولا أظـــنني ســـأتركه كالباقين...
- وما هو مقابل هذه الشهامة كلها؟

كنت أسأل والشكوك تملأني لأني كنت أعلم أن جمال إيمان لا يمكنه أن يكون دافعاً للشهامة بل للإغواء.

- لقاء عقد زواج مؤقت بيني وبينه.
- يا إلهي يا إيمان! ما الذي تقولينه؟ أتريدين إخباري أنك تقيمين عقد متعة مع رجل مسن لقاء ما يؤمنه لك...
- وما الضرر في ذلك؟ هل لـــديك بـــديل عنـــه؟ أخبريني؟ ثم إنه ليس العقد الأول الذي أقوم به... عبير، الأمر شرعي وحلال وحتى إن كُشِف فـــلا يمكن لأحد لومي.
- شرعي وحلال... بيع نفسك لقاء المال شـــرعي وحلال؟ أهذا هو مفهومك للدين؟ ألا تعلمين أن

من شروط الزواج الإشهار؟ وها أنت تقولينـــها بنفسك عقد زواج مؤقت... عدا عن أنه ســـري فهو مؤقت لفترة محددة وبالتالي ما الذي يحـــدث بعدها؟ فسخ العقد؟ تجديد العقد؟ وهـــل أنـــت للإيجار مثلاً؟ أكاد أجن من طريقة تفكيرك...

- صدقيني إنه شرعي وحلال وهو موجود في كـــل المذاهب وإن كان لدى الشيعة يُدعى بعقد المتعـــة فهو ذاته عند السنة ولكنه عقد عرفي... تتكلمين يا عبير وكأنني الوحيدة في العالم التي تقوم بذاك... أنا في الحقيقة لا أغضب ربـــــي ومقتنعـــة بمـــا أفعله... فهل ستحرّمين ما حلّله الله!!
- أنا لا أحرّم ما حلّله الله ولكن مـــا أعرفـــه أن الله حلل هذا العقد في أيـــام الغـــزوات... في أيـــام الحروب ضد الكفار وبشـــروط محـــددة ولـــيس بالطريقة التي يحدث بها الآن. أنت قلت بنفســـك إنه ليس العقد الأول لك... هل تريدين إقنـــاعي أنك مثلاً تلتزمين بأيام العـــدة المفروضـــة بعـــد الطلاق؟ هل تقومين بذلك... لا أظن أن الله قـــد حلّل الدعارة على أن تكون شرعية: نعم ما تفعلينه دعارة باسم الدين، ولن أقول غير ذلـــك ولـــن أجاملك وأبرر لك تصـــرفك... لا، لا يمكـــنني

خداعك... الله قال في كتابه الكـــريم في ســـورة البقرة ﴿... **لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا...**﴾[1] كما أنه لا إشهار في هذا الزواج...

- ولكن الإشهار ليس من شروط الزواج... وقـــد قال الله أيضاً في سورة النساء ﴿... **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَـــةً وَلاَ جُنَـــاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[2].
- حسناً وماذا ستفعلين إن حملت منه؟ هل سيعترف بالطفل؟ هل تعترف به المحاكم الشرعية ودوائـــر النفوس الرسمية؟ هل بإمكانك إثبات هذا الـــزواج لأحد؟ استيقظي يا إيمان... مـــا الـــذي تفعلينـــه بنفسك.
- لا عليك، أنا في أتم الصحة والـــوعي ولا يمكـــن لأحد أن يستغفلني وأنا أعلم ما أقوم به...
- أنت حرة ولكنني لا أرضى لك بإهانـــة نفســـك وجسدك بهذه الطريقة... أتعلمين أمـــراً؟ لقـــد حدّثت نادر عنك وطلبت منه تأمين عمل لـــك وأخبرته عن براعتك في اللغة الإنكليزية، رغم عدم

---

(1) سورة البقرة: الآية (235).

(2) سورة النساء: الآية (24).

دخولك للجامعة، ولقد وعدني بتعيينك في إحدى شركاته...

- آه حقاً... ولكنني لا أريد الابتعاد عن صـــور... هل تظنين أن بمقدوري تحمل كلفـــة الســـكن في بيروت مع طفل صغير والابتعاد عن أهلي هنـــا... عبير وكأنك قد نسيت ما هو الفقر وما هي العازة وما هو الذل الذي يشعر به الإنسان عندما تضطره الظروف لطلب المعونة من أحد... على الأقل أنا الآن آخذ كما أعطي ولا منّة لأحد عليّ...

* * *

محاولات عايدة ومحمد لإخراج عليا من جو الكآبـــة الذي يلازمها أتت بعد جهد بنتيجة، عندما قررنـــا جميعـــاً الذهاب لزيارة القرى المحررة وعلى رأسها بلدة الخيام مسقط رأس محمد، والتي لم يطأها خلال فترة الاحتلال مع أمه إلا نادراً.

بدأت الرحلة في الساعة الثامنة صباحاً.. انطلقنا مـــن صور بسيارة محمد بعد أن تركت خالد بعهدة أمي، مررنـــا على بلدات عدة قبل وصولنا إلى بلدة (الخيام) وصـــعودنا لرؤية معتقلها الذي يقع على تلة تشرف علـــى مرتفعـــات الجولان من جهة وعلى شمال فلسطين من الجهة الأخرى...

ذلك المعتقل المكون من خمسة مبانٍ يضم كل منها عشرين غرفة لا تتعدى مساحتها الثلاثة أمتار مربعة والتي شـــهدت على عمليات التعذيب من قبل المحتل لأبنـــاء الجنـــوب... المعتقل الذي هجره المحتلون في الثالث والعشرين من أيـــار لتهرع الأهالي إليه وتطلق سراح 142 مقاوماً كانوا لا يزالون فيه... بدأت جولتنا بداخله لنمر بغرف السجن الانفـــرادي والتي كانت لا تتعدى مساحتها التسعين ســـم2 ولنـــرى زواريه المعتمة والمليئة بالرطوبة... لنشاهد مكـــان ســـجن سهى بشارة المناضلة الجنوبية التي أسرها الاحتلال أعوامـــاً عدة.. ولندخل إلى غرف التعذيب التي كانـــت الأســـلاك الكهربائية لا تزال متدلية منها لتشهد علـــى مـــا حـــدث بداخلها من غياب للضمير ولأي مفاهيم إنسانية... ومـــن حضور للوحشية بكل مظاهرها المرعبة.

الزيارة التي كانت للاستجمام أصابتنا بـــالألم جميعـــاً فزيارة معتقل الخيام لا يمكنها أن تمر مرور الكرام في ذاكرة أي لبناني أو عربـــي خصوصا وأنت تستمع إلى المقـــاومين الأبطال المحررين وهم يقومون بتزويدنا بالمعلومـــات الـــتي نجهلها ويشرحون لنا عما عانوه من تعليق علـــى الأعمـــدة ورمي بالمياه الساخنة تليها الباردة... من جلد حتى الصباح وتجويع وتنكيل بهم.

-33-

هي مجرد أيام تلك التي انفصلا فيها ليعـود الوئـام ولتعود للحياة ألوانها... أيام كئيبة دون حبـه وخاليـة من اهتمامها به... أيام تمنّت ألا تعود لتبعـدها عنـه... تعاتبا، تصارحا... والنتيجة كانت أنهما لا يقويـا علـى الفراق.

مرت عليه في طريقها إلى عملها، تحادثا قليلاً قبـل أن يقفل باب مكتبه ويشدها ليلثم بشوق عنقها قائلا إنها جرعة حب يحتاج إليها... ودعته لارتباطها بموعد على أن يلتقيا في وقت لاحق.

التفكير جدياً بالتحرر كان قد بدأ يطفو على السـطح فارضاً عليها النجاة من الغرق. أخذت لأيام تعيد حساباتها: الأولاد من أولوياتها ولا يمكنها الابتعاد عنهم وهم في سـن حرجة يحتاجون لاهتمامها ومتابعتها... وماذا عن رأيهـم ونظرتهم لما سيحدث... ابنها خالد الآن شاب في الرابعـة عشرة من عمره... أيحق لها تحطـيم عـزة نفسـه أمـام

الآخرين... أمام أصدقائه على الأقل... ماذا سيقول النـــاس لابنتها عنها...

وماذا عن أمها؟ أتحتمل مزيداً من الصدمات! أيحق لها أن تزيد من خيبات أملها؟ وزوجها الموجود معظم الوقـــت خارج البلد والحاضر الغائب عندما يقرر العودة ليبدو ضيفاً ثقيل الظل في منزله، أتراه سيستقبل الخبر بالترحاب وهـــو الذي رفض الطلاق بعد الانهيار العصبـــي الذي انتابها منذ سنوات لتأتي النتيجة بالسماح لها بالعمل لشغل نفسها وملء الفراغ في حياتها ولتقوم بتأسيس الشركة التي هي الآن تحت إدارتها. وماذا عن نظرة المجتمع إليها... ستنهشها الألســـنة وهي تقول إنها قد تركت زوجها وأولادها وعائلتها للحاق بعشيقها... أَوَليست هذه الكلمة التي ستطلق عليها وأســـوأ منها بكثير ستوصف بها...

هذه باختصار سيئات ما سيحدث وضعتها في كفـــة وجلست لتعد الحسنات في الكفة الأخرى: هنالك حريتها، صدقها مع نفسها وعدم اضطرارها لخلق الأكاذيب كي تحيا لحظات الحب المحرّم التي تعيشها... هنالك وجودها الـــدائم مع من تحب والمستقبل الجميل الذي ينتظرهـــا... ولكـــن مهلاً، أي مستقبل سيكون جميلاً وأولادها لا ينامون تحـــت سقفها؟ وإن مرض أحدهم ولم تكن بجانبه أيمكنها تحمّـــل الأمر؟ أحقاً ستكون حياتها حرة والإحساس بالذنب لخيبـــة

الأمل التي ستلحق بعائلتها ستزداد وهي تواجه نظرات اللوم كلما التقت بهم...

كانت تريد استمرار الشعور بالأمان لباقي حياتها لا لمجرد لحظات تقضيها بين ذراعيه. كانت تريد لمسات الحنان، رقة النظرات، جمال الدخول في متاهات الحب والشوق... كانت تريد لكل ذلك أن يبقى، أن تعلن للعالم عن حبها. ولكن ما الحل؟

ذات مرة وهما جالسان داخل سيارتها التي كانت تلقاه فيها لدقائق لمجرد السلام عليه أمام مكتبه بسبب ظروف عمل كل منهما، عادا للتطرق للأمر فأخبرته عن تفكيرها الجدي بالتحرر وعن هواجسها ليسألها مباشرة:

- هل بإمكانك العيش من دون الأولاد.
- لا... ولكن إن كان هنالك حل لحضانتهم مناصفة ما بيني وبينه ربما قد أتحمّل ذلك؟ وأنت هل بإمكانك تحمل ما سأعانيه من مشاكل... هل بإمكانك الوقوف معي ودعمي خلال هذه الفترة؟

صمت قليلاً وسرح بفكره، كانت يده ترتجف وبان التوتر على وجهه وهو يقول:

- إن كنت تريدين التحرر فأريد أن يكون الأمر عن اقتناع منك، لا بسببي. أريد أن يكون قرارك بمعزل عني.

لم تعجبها كلماته لا بل صدمتها رغم حديثهما في السابق عن الأمر وشعورها بخوفه من النتيجة وبعدم قدرتها على تحمّل عذاب الابتعاد عن أولادها... إلا أنها لم تبادر إلى عتابه بل قالت بكل ثقة:

- نعم ولتعلم أنني في حال الانفصال عنه فإن ذلك سيكون لراحتي ولا دخل لك بالأمر...

ودعته، خرج من سيارتها فانطلقت... استمرت تقود أكثر من ساعة دون هدف، تفكر بما قاله. لقد توقعت أن يفرح لتفكيرها، أن يشجعها عليه، أن يقول إنه سيكون معها في مشاكلها الآتية وإنه لن يتركها أبداً... ولكنه ببساطه خذلها.

عادت إلى منزلها لتستقبلها ابنتها متذمرة بسبب تأخرها بعد أن كانت قد وعدتها بالخروج للتسوّق معاً... عادت إلى روتين حياتها. جالت في محلات الألبسة تنتقي الثياب لها ولأصغر أولادها الذي أتم العاشرة. أما خالد فلم يعد بإمكانها التحكم في ما سيرتديه لاعتزازه بنفسه وبرأيه الخاص وذوقه الغريب كأي مراهق في عمره.

عادت لحياتها بعد أن شعرت بالجبن وعدم القدرة على اتخاذ قرار حاسم وتحمل نتائجه لوحدها... عادت وهي على يقين أن علاقتها به لا بد أن تنتهي ولا أمل من الاستمرار بها... ولكنها ستنتظر منه أن يقوم بخطوة كهذه فهي لن تقوى على الابتعاد عنه بإرادتها.

-34-

بدأ عيسى عامه الجامعي الثالث وهو يسكن مع الجدة في بيروت ويحلم بماري الجميلة ابنة الخال الذي وعد بالمجيء مع عائلته لتمضية عيدي الميلاد ورأس السنة في لبنان. عيسى الذي أحبته أكثر من فتاة في الجامعة لوسامة طلته وشخصيته الجميلة المحبة كان قلبه قد تعلّق بماري منذ أن رآها بفستان السهرة الأبيض القصير في حفلة خطبتي إلى نادر قبلها بعامين.

عايدة كانت في عامها الأخير تقضي وقتها ما بين الجامعة، ومكتب المحاماة الذي يقوم محمد بالتدرج عنده، والمذاكرة.

أما عليا فالوضع كان على ما هو عليه: أيمن في السعودية مع ولديه رافضاً فكرة الطلاق وفي الوقت ذاته لا يسمح لها بمحادثتهما و لم يأتِ بهما خلال العطلة الصيفية إلى لبنان كي لا تراهما وكي يزيد من انتقامه منها لأنها سمحت لنفسها بكشف شخصيته أمامنا وأمام الجميع وتمادت

وأعلنت عن عزمها الطلاق منــــه. أرادت أن تـــذهب إلى السعودية لرؤية الأولاد ولكننا نصحناها بعدم ذلك. طلبت من نادر التدخل والتواصل معه علّ حديثهما يوصـــلنا إلى نتيجة إلا أنه رد على اتصاله باقتضاب قائلاً إنه موضـــوع خاص به وببيته ولا يسمح لأي أحد بالتطرق إليه ليعلن لي نادر: "أرأيت لقد حاولت، ولكنه لا يرضى حـــتى بفـــتح الموضوع للنقاش فيه ثم إنني لا أعرفه بما فيه الكفاية لأحكم عليه أو لأدخل نفسي في حياته... أرجوك يا عبير لديّ مـــا يكفيني من مشاكل في عملي ولا أحتاج لمزيد مـــن وجـــع الرأس".

مشاكل عائلتي بالنسبة إليه كانت عبارة عـــن وجـــع للرأس لا يريدها ولا رغبة لديه بمعاونتي على حلها... ولِـــمَ العتب إن كان ابنه بالكاد يراه ولا يفكر حـــتى بحملـــه أو الاهتمام به كباقي الآباء... كل ما قام بعملـــه أن أخـــبرني بفخر أنه الآن بصدد فتح حساب آخر في البنـــك باســـم خالد، ويا لفرحتي بذلك... يا لفرحتي بهذه العائلة المثاليـــة التي حلمت بها طوال عمري وتمنيت وصبرت إلى أن التقيته لتأسيسها.

* * *

استقبل عيسى الخال جورج في المطار بعد أن قـــال لي على الهاتف وهو في طريقه إليهم:

- أرأيتِ يا عبير الجدة طلبت مني اصـــطحابهم إلى المنزل لأنها أرسلت السائق إلى صور.

فأجبته بتهكّم:

- رأيت يا عيسى رأيت... كم أنت حزين لذلك... أيها المحتال أكاد أجزم أنك من بـــدل المهمـــات وأرسل السائق إلى صور لإحضار أمي وعليا بدلاً منك كي تأتي إلى المطار...

ضحك بصوت عالٍ قبل أن يقول:

- لا أحد يفهمني مثلك يا عـــبير... أراك في بيـــت الجدة.
- لا، لن تراني اليوم. سأدعهم للراحة وأحضر إليهم غداً. يكفيهم أمك ووجه عليا الكئيب فلا داعـــي لصراخ خالد أيضاً.
- كما تريدين.

* * *

على مائدة الغداء تجمعوا بحضور الجدة التي كانت تشع بالقوة كلما وجدت أنها، رغم الصعاب التي مـــرت بهـــا لسنوات، استطاعت جمع أولادها وأولادهم أمامها علـــى

طاولة واحدة وفي منزل واحد... الحلم الذي كان مستحيلاً خلال الحرب، بقدرة الرب، كما كانت تردّد قد تحقّق.

نظرات عيسى إلى ماري لم تكن خافية على أحد لأنه ببساطة لم يستطع مداراتها. أما هي فلم تكن تعاني الوله الذي يعانيه. كانت تستقبل نظراته بالدهشة وبابتسامة خفيفة وبنظرات ذات معنى بينها وبين أختها. هذا الحال الذي استمر طوال فترة الإجازة رغم محاولاته المستميتة لكسب حبها أو على الأقل إعجابها به.

بعد الغداء جلس الخال على انفراد مع والدتي لتقص عليه وفاة أبي المفاجئة اثر سكته قلبية وكل ما حل بعليا وليعرض التدخل بالأمر قائلاً:

- إن كان هذا المعتوه يريد المال لقاء الطلاق والولدين فسندفع له. لماذا لم تفكري بأمر كهذا يا مريم؟
- لأن المال لا ينقصه. ما ينقصه هو الشهامة والكرامة التي لا يعرف أي معنى لهما.
- فلنحاول، لا ضرر من ذلك.
- سأترك الأمر لك.
- هذا عين العقل سأتصل به...

* * *

أيكون المال العصا السحرية لحل المشاكل، والفـــانوس الذي يحقق المعجزات بلحظات... المال، آفة هذا العالم ويده التي تبارك... عيبه ومرضه والدواء لكل متعب... اخبرنـــا عليا بذلك ولكنها ضحكت قائلة إن أيمن رغم شرهه لجمع المال إلا أنها خير من يعرفه وما حدث بالنسبة إليـــه إهانـــة لشخصه ولن يهدأ إلا بعودتها، ليرد لها الإهانة بالمئات...

تغيرت عليا كثيراً خلال السنة التي حاولنـــا خلالهـــا التدخل لحل مشاكلها... باتت مثل شبحٍ بهالات سود تحيط بعينيها ونحول تخطى عتبة الرشاقة التي كانت تمتاز بهـــا، إلى حالة مرضية، وهي تردد طوال الوقت أن لا شهية لها للأكل أو حتى للحياة.

عليا التي عاشت مع أيمن حياة استهتار في ظاهرهـــا ولا مبالاة تجاه ولديها اللذين كانا يقضيان الوقت مع الخـــدم لم تعد هي ذاتها، بل عادت أختي التي أعرفها والتي تربيت معها تحت سقف واحد. المرأة التي لا تهمها المظاهر الفارغـــة ولا السيارات الحديثة ولا الهواتف التي كانت تملكها بالجملة، عليا الأم وفقط الأم لأن لا شيء يكسر الواحدة منا كأطفالها، ولا شيء يظهر معدنها إلا حرمانها منهم وبعدها عنهم...

اتصل الخال بأيمن الذي أخبره أنه سيحضر إلى لبنـــان خلال أيام لإتمام بعض الأعمال فاتفقا على اللقاء في مكتبـــه حال وصوله.

وقف أيمن عند دخول الخال إلى مكتبه مرحباً به:

- أهلاً بالخال، اشتقت إليك.
- أهلاً أيمن، وأنا أيضاً رغم عتبـــي الكبير عليك.

قال جملته وهو يهم بالجلوس في صالون المكتب.

فأطلق أيمن تنهيدة طويلة وهو يقول:

- ها قد دخلنا بالعتب مباشرة؟ ألن تسمع ما عندي أنا أيضاً أم تريد أن تسمع فقط لعليا.
- لا لن يكون ذلك... لقد علمت بما يكفي عـــن الموضوع واستطعت تكوين فكرة كاملـــة عـــن الوضع؟

أشعل الخال السيجار الذي ناوله إيـــاه أيمـــن وعـــاد ليكمل:

برأيك هل هنالك ما يبرر ضرب امرأة بهذه الوحشـــية ما يجعلها تفقد جنينها...

فانتفض أيمن ليرد:

- لم أكن بكامل وعيي وقتها صدقني، وقلت مـــراراً إنني نادم وأريد الفرصة لفتح صـــفحة جديـــدة معها...
- ولكن الصفحة الجديدة فُتحت مرات عدة على ما أظن سابقاً و لم تأتِ بنتيجة...
- كان هذا في السابق... أنا لا أريـــد أن أخســـر

عائلتي، ولن أطلقها أبداً ولن ترى الصبيين إن أصرت على موقفها...

توقفا عن الكلام للحظات بعد أن أتت السكرتيرة بالقهوة لهما ليكمل الخال ويقول:

- لعلمك يا أيمن رغم كل ما حدث بينكما، كانت عليا على أتم الاستعداد للعودة فقط من أجل الصبيين ولكنها حين أرادت إعلامك بالأمر وجدتك قد رحلت بهما إلى السعودية... ما جعلها تصر مجدداً على الطلاق.
- والآن... ما هو المطلوب مني؟ أن أذعن لرغبتها.
- أيمن ألا يقول القرآن الكريم ﴿... **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾[1].

احتد أيمن وهو يجيبه:

- مهلاً... أنت تحدثني عن القرآن وكأنني غير عالم بديني.

وبهدوء تام أجابه الخال:

- لو كنت عالم بدينك لعلمت أن الرحمة أساسه، وأن الله في القرآن الذي يفترض أنك تتبعه يقول ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي**

(1) سورة البقرة: الآية 229.

ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[2]... أين أنت من كل هذا يا أيمن... قلْ لي.

- ولكنك مسيحي والطلاق عندكم لا وجود له فلماذا تريدني أن أقوم بأمر أنت ودينك لا تؤمنان به؟

- ومن قال إن الطلاق في ديننا غير موجود... نعم نحن ننظر للزواج على أنه ارتباط أبدي ولكن الطلاق جائز في حالات محددة ومعينة وإن كنت لا تدري فمن ضمنها التعنيف يا أيمن...

نظر أيمن إلى السقف وهو يقول بوجه عابس:

- من الآخر... أنا أحب عليا ولن أطلقها.

هنا بدأت رباطة جأش الخال بخيانته فانفعل قائلاً:

- تحبها وتضربها... تحبها وتهينها... تحبها وتحرمها من الصبيين... أنا الذي أقول لك الآن من الآخر: كم تريد لتطليقها؟

---

(1) سورة الروم: الآية 21.

(2) سورة الحجرات: الآية 13.

جنّ جنون أيمن لسماعه بعرض الخال وأجابه واقفـــاً وكأنه يريد إنهاء الحديث:

- لا أسمح لك بذلك... لا أسمح لك بإهانتي بهـــذه الطريقة. ولو لم تكن خال عليا لطردتك فوراً من مكتبـــي... ماذا تظنني؟ أهذا رأيك فيّ؟

أشار عليه الخال للجلوس مجدداً وهو يردد:

- حسناً إن لم تكن كما أظنك فاثبت الأمـــر لي... تصرّف كرجل... كن صالحاً لمرة في علاقتـــك بعليا... دعني أَرَ الفعل لا القول.
- سترى...

* * *

أخبرتني أمي عن جهود الخال في حل مشـــكلة عليـــا وعن الاتفاق القائم الآن بعد أن جلس مطولاً مع كليهما... سيعود التواصل على الأقل هاتفياً خلال الفترة القادمة إلى أن يحل الصيف ويأتي بالصبيين ليمكثا معها في بيت الجدة. وفي نهاية العطلة، وقبل أن يعود بهما إلى السعودية، ستكون عليا قد اتخذت قرارها إما بالعودة معهم وإما بالطلاق. وهنا عليه أن يحقق لها رغبتها من دون مشاكل ومن دون حرمانها من ولديها.

هتفت فرحة وأنا أسمع بذلك:

اتفاق رائع... ولربما يكون قد عاد إلى عقله وامتنع عن الشرب... لا تعلمين يا أمي فلربما كان تمسّكه بها بادرة خير... شكراً لله الذي أرسل الخال إلينا الآن... بالمناسبة أين الجميع.

- آه عيسى مع الفتيات في السينما، وجورج وزوجته في الخارج، وجدتك كما تعلمين هذا وقت قيلولتها.

-35-

جلست آخر الليل وراء مكتبها في المنزل الكبير الذي تسكنه، المليء بالمفروشات والثريات والفارغ من العاطفة. جلست تنظر إلى خرائط مشروعها القادم إلا أنها لم ترَ سوى وجهه أمامها فاستبدلت بها ورقة بيضاء ودون أن تشعر وجدت نفسها تكتب إليه:

أغار من ماضٍ لم أعشه معك، ومن مستقبل لا مكان لي فيه. أغار من حاضرك، من امرأة لامست ولو بالخيال نبضك، وأغار من نفسي عليك، ومن الغيرة لأنها تنطق باسمك.

أنت، لو تعلم كم أريدك، يا رجل أسكنته مدني وأيامي. أريد لعيني التعبد أمام رمشك، لجسدي أن يتعمّد بعرق جسدك، أريد التطهر بلمسات يديك، والإشهار بأن الحب خُلِق لأجلك، والتيه في دهاليزك صلاة وسمو وتنسك... أريد وأريدك ولكنني لست لك، وإن حلمت أنك لي فليست كل الأحلام وجدت لتتحقق.

بعد أن انتهت قامت بتصويرها لترسلها إليه قبل أن تكمل بعبارة (تصبح على خير) التي لم تكن تنام قبل أن تقولها له.

في صباح اليوم التالي استيقظت على شعر مترجم لشاعرة من جمهورية الدومينيكان تُدعى مارتا ريفيرا يقول:

"لا تقع في حب امرأة تقرأ، امرأة تحس بمشاعرها أكثر من اللازم... امرأة تكتب.

لا تقع في حب امرأة تفكر، امرأة تعرف ما تعرفه، تعرف كيف تطير، امرأة واثقة بنفسها.

لا تقع في حب امرأة تضحك أو تبكي وهي تمارس الحب، امرأة تعرف كيف تحول لحمها إلى روح، وأهم من ذلك، لا تقع في حب امرأة تحب الشعر (فهؤلاء أخطر النساء)، امرأة تقف أمام رسمة ساعة، ولا تعرف العيش من دون الموسيقى.

لا تقع في حب امرأة مهتمة بالسياسة ومتمردة.

امرأة تحس بالرعب عندما يغيب العدل.

لا تقع في حب امرأة لا تحب مشاهدة التلفاز ولا امرأة فائقة الجمال، بغض النظر عن ملامح وجهها أو جسدها.

امرأة مندفعة، مليئة بالبهجة، شفافة، غير خاضعة، عديمة التوقير.

لا ترغب بالوقوع في حب امرأة كهذه، لأنك، وبغض النظر عن بقائها معك أم لا، أو حبها لك أم لا، فمنها، من هذه المرأة، لا أحد يرجع".

قرأت ما أرسله مراراً... سألته عن مصدره ليجيبها أنه قد وجده على موقع للتواصل الاجتماعي وأرادها أن تراه.

ابتسمت، أحبت دائماً طريقته بالتعبير عن مشاعره، والتي تتجاوز كلمة أحبك وأريدك، وكل العبارات المتداولة التي لم يعد يعلم السامع إن كان من يقولها يشعر بها، أو أصبحت مجرد روتين يومي يتولاه اللسان بعيداً عن أي عاطفة حقيقية. كم من امرأة تقول لزوجها أحبك وهي لا تحبه بل تحب ماله أو مركزه الاجتماعي أو... وكم من رجل يداري الخيانة بكلمة أحبك وبالهدايا... كم ترى كل يوم أمامها على مواقع التواصل من صور وعبارات لأناس تعلم علم اليقين مدى نفورهم وابتعادهم العاطفي بعضهم عن بعض. إن الصورة التي تُعرض لجميع الناس هي لزوم المظهر الاجتماعي وكلمة (أحبك) التي تُقال في العلن تداري خلفها في كثير من الأحيان (أنا لا أطيقك ولكنك الحاكم).

-36-

حل صيف العام 2001.

عليا على أحر من الجمر في بيت الجدة تنتظر حضور الصبيين إليها بعد أن ذهب كل من عيسى ومحمد لإحضارهما من منزل أيمن.

كانت تائهة تنتظر وصول النجدة إليها... خلعت الأسود الذي لم يفارقها منذ وفاة والدي وارتدت ثوباً زهري اللون محاولة قدر المستطاع إخفاء شحوب وجهها بأدوات الزينة. وما بين الصالون والشرفة المطلة على الشارع كانت تزرع المكان ذهاباً وإياباً لا تقوى على الجلوس في مكانها. ما إن رأت السيارة قادمة للنزول إلى الموقف الخاص بالبناية حتى هرعت تفتح باب البيت، تركض على الدرج متناسية المصعد الكهربائي لتتجاوز الطوابق الخمس بدقائق وتصل إليهما لاهثة فاتحة ذراعيها على وسعهما وهي تقبل وجهيهما وتقول لهما معاً:

- يا حبيبي... يا عمري...

تخبرهما عن شوقها وألمها لبعدهما عنها. ليبكي ابنـــها الصغير بقوة، وليحاول أدهم ابنها البكر التماسك قبـــل أن يضم دموعه إلى دموعهما.

صعدوا ليجدوا الجميع بانتظارهم: الجدة وأمي وأنا الحامل من جديد في شهري الخامس مع خالد الجـــالس بجانبــي، وعايدة وأم محمد، التي بـــات حضـــورها إلى بيروت مع أمي دائماً، منذ وفاة والدي الـــذي زاد مـــن تقاربهما.

اقترحت الجدة أن تبقى أمي معهم في بيروت. فرحبت عليا بالأمر وهي تقول:

- أجل إنها فكرة جميلة. تعلمين يا أمي كم يحبـــك الصبيان؟
- وعايدة سنتركها وحدها.
- عايدة خلال شهر ستعلن نتائجها وستتخرج.
- وماذا في ذلك؟

لترد عايدة ضاحكة:

- أمي... أنا سأتخرج أي إننا (مشـــيرة إلى محمـــد بيدها) نحن الاثنان سنتزوج. ألا تجدين بأننا قـــد انتظرنا بما فيه الكفاية تحقيقاً لرغبة أبـــي رحمه الله. في آخر الصيف سنتزوج.

هنا قالت أم محمد وهي تطلق الزغاريد:

- وأخيراً يا محمد سأراك عريساً مع أجمل عـــروس. وبالتأكيد ستسكنان معي أليس كذلك؟

لتجيبها عايدة بعد أن قامت لتقبّلها:

- لا مانع عندي يا حماتي.

هنا تدخلت الجدة مبدية اقتراحاً آخر:

- إن كان الأمر كذلك فلِمَ لا تستقرين يا مريم هنا معي بشكل دائم. تعلمين حاجتي إليك. وبالتـــالي فليسكن محمد وعايدة في البيت بعد إعادة تجديده (ملتفتة إليّ) فمن جهـــة ســـيكونان في منزلهمـــا الخاص، ومن جهة أخرى هما بمواجهة بيتك يا أم محمد أي أنهما معك طوال الوقت.

ردت أمي قبل الباقين:

- اقتراح جيد وهديتي لكما هي تجديد البيت وفرشه من جديد.

هنا تدخّلت بعد أن كنت قد فهمت إشارة الجـــدة لي:

- التجديد سيكون على يـــدي، فلطالمـــا رسمـــت الديكورات لذلك المنزل الصـــغير و لم أتوقـــع أن تسمح لي الظروف يوماً لجعلـــه علـــى الشـــكل الحديث الذي أرغب فيه. وأظن أنه علينا أن نبـــدأ من الآن كي ينتهي العمل قبل موعد الولادة.

أم محمد كانت في حيرة من أمرها ومحمد بـــدا عليـــه الخجل وهو يقول للجدة:

- جدتي... أنا من عليه تأمين المنزل لنا، وأســـتطيع ذلك. الحمد لله فالحال جيد و...
- قبل أن تكمل يا محمد ألم تنادِني بجدتي.
- نعم.
- إذاً فأنت حفيدي كعايدة والجميع وابني أيضـــاً، ووالدتك أخت لابنتي. نحن يا ولدي عائلة واحدة ومالنا واحد ولا فرق بيننا وقد أثبتت الظـــروف والمواقف ذلك... وبالمناسبة فإن حفـــل العـــرس سيكون هديتي لكما وأنت كل ما عليك فعله هو التفكير بافتتاح مكتب خاص بك بعد أن أنهيـــت تدرجك.
- سيكون ذلك فأنا بصدد تأسيس شركة للمحاماة مع شابين زميلين لي... وانطلـــق يحـــدثها عـــن طموحه وأحلامه...

* * *

عيسى الذي كان على تواصل مع ماري، عبر البريـــد الإلكتروني، أصيب بالصدمة وخيبة الأمل عندما أخبرته عن حبيبها الأميركي الذي يدرس معها في الجامعة ذاتها.

الحديث بينهما لم يكن يتجاوز الحدود ولكنه كان يأمل بان تعتاد على وجوده في حياتها فتحبه وتتعلق به.

أخبرني بكل ذلك وهو يتناول الغداء معي في منزلي. يأكل بيد ويداعب خالد الذي يلعب بجانبه بالأخرى. كان يحبه كثيراً وكنت ارتاح لقربه منه علّه يكون تعويضاً عن الأب الحاضر الغائب.

خالد الذي لم يكد يكمل عامه الأول حتى وجدت نفسي حاملاً من جديد بريما التي كانت تتحرك في أحشائي في تلك اللحظة لأقول لعيسى:

- انظر (وأنا أشير إلى بطني)... إنها تميل الآن نحو الشمال ألا ترى؟

كان دهشاً وهو يراقبني ويقول:

- ألا تتألمين من ذلك؟
- أبداً... بل أفرح وأطمئن بأنها بخير.
- هل بدأت بالتحضير لتجديد المنزل.
- نعم سأريك الخريطة التي أعددتها... هنالك حائط علينا هدمه وسأجعل المطبخ مفتوحاً على الصالون و...
- حسناً أنا لا أفهم في ذلك... المهم النتيجة.
- خلال شهرين أو ثلاثة سيكون المنزل جاهزاً وخلال هذه الفترة سأقوم، بعد أخذ رأيهما

بالموديلات والألوان، باختيار الأثاث المناسب.

- جيد.

قالها وهو يتأهب للعب مع خالد الذي رماه بالطابة وهرب منتظراً منه أن يلحق به...

* * *

فرحة عليا بالصبيين كانت لا توصف. كانت للمرة الأولى تمارس الأمومة الحقة معهما، تعد لهما الطعام بنفسها، تشرف على حمامهما، تأخذهما للتنزه، تتبادل الأحاديث معهما تسألهما عن المدرسة والأصدقاء... كانت تريد أن تعرف كل ما فاتها من تفاصيل عاشاها بدونها. و لم تنسَ أن تسأل بتردد إن كان أيمن يحسن معاملتهما ليجيبها أدهم:

- نعم كالعادة لم يتغير أي شيء. هو في عمله حتى المساء، وعند حضوره يجلس معنا لتناول العشاء قبل ذهابنا للنوم.

- هل يأتي على ذكري أمامكما.

صمت أدهم و لم يرد، فعادت وكررت السؤال بطريقة أخرى:

- ماذا يقول لكما عني؟

أجابها الصغير:

- ماما هو يقول إنك تركت المنزل لأنك لا تحبيننا،

وأنك لا تريدين أن تكوني معنا.

دمعت عيناها وهي تردد في سرها:

- كنت أعتقد ذلك. وعادت لتؤكد بصوت مرتفع:

- لا يا حبيبي أنا لا أحب أي شيء في الدنيا سواكما، ولا أريد غير البقاء معكما، ولكن الحياة مع والدكما لم تعد على ما يرام والأفضل لنا جميعاً هو الفراق...

عاد أدهم يقول:

- أنا أعلم يا أمي... أعلم كل شيء... لقد رأيت ما فعله بك قبل أن يأخذك إلى المستشفى عندما كنت حاملاً لقد كنت صاحياً...

ولم يكمل كلامه بل أشار بصمت إلى أخيه، وكأنه يريد أن يفهمها أن هذا الحديث بينهما فقط ولا ينبغي للصغير أن يعلم به. دهشت لوعيه وقدرته على كتم الأمر والطريقة التي كان يحادثها بها. ابنها الصغير الآن بات رجلاً أمامها.

* * *

عرس محمد وعايدة أقيم آخر الصيف في منتزه القلعة في منطقة الحوش التي هي امتداد لمدينة صور. كان عرساً

حضره معظم أهالي المدينة وأهل محمد الذين أتوا من الخيام للمشاركة في الفرحة الكبيرة، وكذلك الجدة رغم التعب والمرض والكرسي المتحرك أرادت أن تكون أول المهنئين ما دفعني لأن أقول لها بعتب:

- لقد حضرت إلى صور من أجلهما وأنا التي أقيم عرسي في بيروت اعتذرت عن حضوره.

ضحكت وهي تجيبني لعلمها بأن عتبي أبيض لا حقد فيه.

- تعلمين حساسية محمد يا عبير، وعزة نفسه التي أحبها جداً. لم أرد أن أكسر بخاطره وخاطر والدته.
- معك حق.

قلتها لها وأنا ألتفت للبحث عن خالد الذي كان قبل قليل يقفز بجانبي ويصفق بيديه فرحاً لأجده قد أصبح محمولاً على كتفيّ عيسى الذي كان يدور به بين المعازمين ليعرفهم على ابن أخته الصغير الذي يعشقه. أشرت إليه ليأتي به وحين حضر قلت له:

- لا تنسَ ولدي عليا، ألا ترى كيف يجلسان كالغرباء اهتم بهما بمعرفتك.
- آه... لم أنتبه للأمر.
- دعْ لي خالد واذهبْ إليهما.
- حالاً... وهو يغمز لي: يا حنونة أنت...

التفت لأفتش عن عليا فوجدتها قد اتخذت إحدى الزوايا بعيداً عن صوت الموسيقى العالي، والهاتف على أذنها، فعلمت أنها تحادث أيمن الذي كان لا يكف عن الاتصال بها تارة بحجة الاطمئنان على الصبيين وتارة أخرى بحجة السؤال إن كانت تحتاج للمال أو لأي شيء آخر... وكما علمت منها فهو قد أقلع عن شرب الكحول ويقوم بالتردد بشكل دوري على طبيب نفسي لمساعدته على التغيير والبدء بحياة جديدة...

كانت ليلة جميلة أردنا خلالها رمي الأحزان جانباً والتمتع بلحظة فرح نحتاج إليها. كانت ليلة حاولت أمي بجهد فيها أن تكبح الدمع الذي تلألأ في عينيها وهي دون شك تفكر بغياب عماد وغياب أبي وبكلامه معها عن الموت والحياة الذي لم تنسه قط والذي أعطاها القوة لتفرح بعايدة.

وماذا عن نادر؟ لا بد أنك ستسألني عنه.

نادر في الإمارات، كان مشغولاً جداً و لم يتمكن من الحضور إلا في اليوم التالي للعرس، واعتبر أن أم رنا ورنا وبقية عائلته التي كانت مدعوة يمثلونه وبإمكانهم تعويض غيابه.

لم أعاتبه، فقد اعتدت على غيابه وعلى العيش بمفردي.

* * *

حل الشتاء.

سافر الصبيان إلى السعودية لتعود عليا إلى قوقعتها رافضة الحديث مع أي شخص ورافضة حتى الخروج من غرفتها.

بعد أن كنا قد توقعنا جميعاً عودهما معهما وخصوصاً بعد أن رأينا اهتمام أيمن بها خلال الصيف ومحاولاته المستميتة لتغيير نفسه. سألتها ما الأمر؟ لتجيبني أنها لا تزال بحاجة لبعض الوقت وأنها قد أخبرت أيمن برغبتها هذه و لم يمانع، بل على العكس، قال إنه مستعد لانتظارها حتى آخر العمر على ألا تفكر في الطلاق منه...

أمي التي استقرت في بيت الجدة كانت دائمة الانتقاد لعيسى الذي كان يتأخر بالسهر خارج المنزل، ويقول إن الجميع يفعلون ذلك وأنه لم يعد طفلاً لتحدد له حركاته.

كنا في شهر تشرين الأول عندما اتصلت بهم لأعلمهم أنني بدأت اشعر بأعراض الولادة.

هاتفت أمي أم رنا والتقينا في المستشفى بعد أن حضر عيسى إلى منزلي واصطحبني بسيارته.

تم الأمر بسلام رغم خوفي بسبب ما عانيته سابقاً من نزيف وهبوط في الضغط... وأتت إلى العالم ريما التي كان نادر قد اختار لها الاسم تيمناً بأخته التي يحبها جداً (أم رنا) و لم أعارضه.

في اليوم التالي كانت غرفتي تمتلئ بالبالونات والزينة والورود التي أرسلتها أم رنا قبل أن تحضر وتقول:

- حسناً يا عبير، نحن الآن لسنا في حداد، وأتمنى أن لا نكون كذلك في أي وقت... والبنت تحمل اسمي لذا لا يمكنك منعي من إعداد ما يليق بالتهنئة بها.

فضحكت لمحبتها التي كانت لا تبديها إلا نادراً.

- لك ما تريدين... أنا تحت أمرك.

لدهشتي طار نادر فرحاً بالمولودة الجديدة. لم أظن يوماً أنه سيرحب بولادة أنثى. تصرفه معي تلك الأيام أعاد المودة التي كانت في قلبي له وعدت إلى التفكير بأنني كنت ظالمة بحقه وأن عمله يفرض عليه الغياب الدائم والانشغال عن عائلته.

* * *

ولكن، صدقني يا (...) المظاهر خادعة فلا تلتفت إليها، ولا تصدقها. فأنت لا تعلم ما وراءها... لا تعلم حين تشاهد الابتسامة حجم الآلام التي نحاول مداراتها... ووراء المادة هنالك فراغ القلوب وفقرها وذلها في لحظات تسولها عاطفةً هي في أمس الحاجة إليها...

ذات يوم حدث لي ما حدث... مرهقاً كان نهاري وأنا أحاول جهدي العناية بطفلين بعيداً عن أيدي الخدم

وإعداد طعام العشاء لنادر الذي أردته مميزاً بعـد قـرار اتخذته مع نفسي بفتح صفحة جديدة معه علني أحظـى باهتمامه، مشاعره وحنانه كما حلمت حـين التقيتـه. صفحة تفتح مجدداً... ولكن لا بأس من المحاولـة ومـن تكرارها... الآن وقد بات لديّ طفلان هما الـدنيا بمـا فيها... سأفتح بدل الصفحة كتاباً وبدل الكتاب كتبـاً وبدل الكتب مجلداتٍ وكل ما أنشـده الأمـان وفقـط الأمان.

مر الوقت سريعاً وأنا أقوم بما عليّ لأحضّـر المائـدة والشموع والطعام ورغم الإرهاق الذي كنت أعانيه مـن سهري الطويل بجانب ريما دخلت غرفتي لتجربـة الثيـاب الداخلية التي قمت سراً بشرائها لمفاجأته بهـا... أسـلوب جديد قررت المضي به لعل هذا ما ينتظره مـني. ألم يقـل يوماً: أنت يا عبير بريئة لدرجة تشعرني بالملل، أخاف أحياناً الاقتراب منك كي لا أخدش حياءك. وذلك عندما حاولت بطريقة غير مباشرة العتب عليه لكون علاقتنـا بـاردة لا مشاعر فيها... ارتديت وأكثرت من المكياج على وجهـي لعل هذا ما يحبه... لعل هذا ما سيجذبه إليّ كامرأة... لعل هذا ما سيجعلني أشعر بجمال العلاقة الجسـدية وأرغـب فيها... لعل الأمور تحدث بطريقة أخرى.

انتظرته حتى وقت متأخر من الليل... وليتني لم أفعل.

الاستهزاء الذي قابلني به لا يُغتفر... ضحكته التي علا رنينها... كلماته الساخرة حتى اللحظة أسمع دويها في أذنيّ فأكاد أصرخ... ركضت إلى الغرفة أنظر لنفسي في المـرآة فلا أرى سوى امرأة جميلة ومثيرة بما يكفي، كما أسمع من تلميحات يحاول الرجال منذ أيام الجامعة إيصالها إليّ ولا أعيرها أي اهتمام...

سالت دموعي رغماً عني وبكيت بحرقة... دخلت لأستحم وأمسح الألوان التي اختلطت على وجهي... وخرجت لأنام في غرفة ريما احتمي بالبراءة الساكنة ملامحها، وأتمنى لو أعود طفلة وطفلتي صديقة لي... مشاعري في تلك الليلة لا أنساها ولم أستطع البوح بها لأحد. فماذا تفعل المرأة عندما تجرح أحاسيسها؟ عندما تنزل الكلمات كالصفعات على وجهها؟... يتحدثون عن العنف المادي، عن الضرب والطرد في منتصف الليل... لم أعانِ مثلهن لأخرج وأطلق الصوت وأقول: أريد أن أرتاح، امنحوني الحرية... ما عانيته كان أبشع من ذلك، ما مرّ عليّ لسنوات كان عنفاً بارداً بالنظرات واللامبالاة. كان سوطاً أُجلد به كلما عاد نادر إلى لبنان.

استيقظ صباح اليوم التالي وجاء ليعتذر مبرراً الوضع بأنه شرب أكثر من المعتاد مع العميل الذي استضافه على العشاء، وبأن آخر ما توقعه هو رؤيتي كما كنت، وبأنه

للحظة ظن نفسه مخطئاً في البيت؛ إذ بدوت بثيـــاب النـــوم الداخلية الحمر كمهرج أو كامرأة داخل حفلة تنكـــر مـــا أضحكه فلم يتمالك نفسه وهو يعدني أن تكـــون الليلـــة تعويضاً عن السابقة فسوف نسهر سوياً حتى الصباح، وأنه لو كان يعلم عن حاجتي لثياب داخلية مثيرة، تختلف عمـــا أرتدي، لجلب لي معه من باريس أجملها وأغلاها... تكلـــم رجل الأعمال فأقحم المال في حديثه، جارحاً وطاعنـــاً في كرامتي كامرأة في صميمها. سكتت... مت لحظتها وكأني قد عشت معه من قبل!.. قبّلني على وجنتي ورحل.

في الليل عاد لأتظاهر بالنوم في غرفة ريما، فلم يشأ أن يوقظني كما أخبرني لاحقاً.

-37-

وهما يتكلمان عن إغراء المرأة وعن مـــدى جاذبيـــة الأنثى، أخبرها أنها مكتملة الأنوثة ولديها كل ما يحلم به أي رجل. سألته إن كان يرغب برؤيتها يوماً ما بثيـــاب النـــوم المثيرة، وإن كانت زوجته قد ارتدت له الثيـــاب الداخليـــة المميزة، فأجابها بما باح به سابقاً لها أن زوجته لم تكن ترضيه جسدياً ولكنه لم يخنها يوماً، وأنها كانت تهـــتم بزينتـــها... فاهتمام المرأة بنفسها يعكس اهتمامها برجلها ومحبتها له.

عيد العشاق كان قريباً فاتفقا على الاحتفال به سوياً، فهو العيد الأول الذي يمر وهما على علاقة محددة بخـــلاف العام الذي سبقه عندما كانا ما بين نعم وكـــلا، وصـــداقة وحب...

أتت إليه تحمل في يدها كيساً كبيراً خبـــأت بداخلـــه وسادة من المخمل الأحمر والرمادي، كتبت عليها عبـــارات الحب والشوق، وعلبة صغيرة لقلم جميل اختارته بعناية لـــه. كانت تحب محاصرته بهدايا تلتصق به، كالمحفظة أو القلم أو

خازن الطاقة أو النظارة الشمسية، راغبة أن يكون لها أثـــر دائم معه حتى داخل بيته، كالمفتاح الذي علقته على الـــبراد وغيره من حاجيات صغيرة نشرتها في غرفة نومه.

اقترب منها، شكرها بقبلة قبل أن يقول:

- ولكني لم أجلب لك أي هدية.
- لا يهم وهل طلبت منك هدية؟
- أحقاً لا يهمك الأمر ولا تريدين هدية مني.
- حقاً لا يهمني ولا أريد شيئاً سواك.

ضحك قائلاً:

- أيتها القنوعة، تعالي لتأخذي هديتك.

التقط عن الطاولة علبة صغيرة لم تكن قد انتبهت لهـــا عند حضورها... علبة مجوهرات حمراء على شكل قلب.

وهو يناولها إياها لتراها كانت تعترض:

- ولِمَ ذلك حقاً لم أكن أريد...
- افتحيها...

فتحت العلبة لترى فيها عقداً من الذهب. كان رائعـــاً وجميلاً جداً. أعجبها على الفور... رفعت رأسها لتنظر إليه فوجدته يراقبها باهتمام منتظراً رد فعلها.

- إنه جميل جداً.
- أعجبك؟
- كثيراً.

- حقاً أعجبك؟
- نعم إنه رائع.
- جيد لقد بقيت لأكثر من ساعتين في المحل لأنتقيه لك...
- لم تقل لي.
- أردت أن أفاجئك به.

وحمل العقد ليضعه حول عنقها.

- وأنا أيضاً سأفاجئك بأمر.
- ما هو.
- ستراني في قميص نوم اشتريته خصيصاً لك.

تركته في الصالون، ودخلت الغرفة وخلعت بنطلـــون الجينز الذي كانت ترتديه والبلوزة وجاكيت الجلد السوداء فإذا بالبرد ينخز عظامها، وكيف لا ودرجة الحرارة متدنيـــة جداً ولا تدفئة مركزية في بيتـــه... فكّـــرت بـــالتراجع... ولكنها كانت قد وعدت نفسها بالاهتمام بـــه. ارتـــدت قميص النوم الشيفون الأسود الذي يتخلله بعض الـــدانتيل وخرجت مرتجفة.

- ما رأيك؟
- جميل... ولكن ما بك؟ أتشعرين بالبرد؟
- في الحقيقية أجل وجداً جداً.

ضحك وفتح لها ذراعيه قائلاً:

- تعالي إذن لأدفئك.

رمى بالمساند الموجودة على الكنبة ليزيد من عرضها وشدها إليه لتتمدد بجانبه. قبّلها ثم ابتعد.

- إلى أين؟
- لحظة سآتي ببطانية من الغرفة.

لحظات وعاد يحملها، رماها عليهما معاً بعد أن خلع ثيابه، وعاد ليقبّلها من رأسها نزولاً إلى قدميها، ماراً بكل جزء من جسدها، لتسترخي في حضنه شاعرة بالدفء رغم المطر المنهمر بغزارة في الخارج.

بعدها بأيام سألته:

- بصراحة هل أعجبك؟
- نعم كان جميلاً ومغرياً ولكن.
- ولكن... أكمل.
- أحب أن أراك بألوان زاهية تعكس جمال جسدك الأسمر... أحب اللون الأبيض عليك فهو يليق كثيراً ببشرتك.

-38-

للخيانة رائحة لا يخطئها أنف... رائحة كريهة كالعفن... وملمس يقشعر له البدن... لزجة لزوجة الدهون التي يرميها اللحام يومياً لتقتات عليها القطط والكلاب الشاردة... للخيانة وجه مشوه ينفر منه كل من يراه... للخيانة لون أسود قاتم كلون العزاء والليل وما يستره من جرائم... للخيانة طعم مر كمرارة الحنظل... للخيانة في بلادنا عنوان واحد وهو (أنا حر... أنا رجل).

نادر يخونني... معلومة صعقتني كسلك الكهرباء. وقفت في مكتبه في البيت ارتجف بقلب ينبض بقوة لا أصدق ما أراه أمامي على الحاسوب الخاص به والذي لم أفكر في السابق بإلقاء نظرة عليه ولو خاطفة للثقة العمياء التي أوليته إياها. وعلى ما يبدو كان الجهل يغمرني من رأسي إلى أخمص قدمي بالرجل كرجل، بغريزته حين تتحرك حاكمة له، مشيرة إليه ليتبعها إلى آخر مدى.

وقفت حائرة... كيف لم أفكر من قبل أنه لا يمكن أن

أكون كافية له كامرأة، بالبرودة التي تتخلل علاقتنا وقلتها، وسفره الدائم وندرة المشاعر والمغازلات بيننا... كانت الحقيقة أمامي بكل وضوحها. رجل مثله أراد أن يبني عائلة مع زوجة جميلة ومتعلمة لا تجارب لها ولا مطالب... زوجة تفهم كيف تتصرف وتحدث ولديها إلمام كافٍ بأصول الأتيكيت لزوم التشريفات التي عليه أن يقيمها من حين لآخر... زوجة تنجب له الأبناء ولا تعترض على غيابه وسفره الدائم... ولقد كنت أنا هذه المرأة.

لو لم يركض خالد ليجلس على كرسي المكتب وألحق به كي لا يمزق الأوراق المتناثرة عليه لما رأيت شاشة الحاسوب وبريده الإلكتروني الذي كان يضج بالرسائل المتبادلة مع نساء متعددات وبحجوزات الفنادق في البلدان التي كان يزورها بشكل دائم... نادر لديه حياته الخاصة خارج لبنان التي يحياها بطولها وعرضها غارفاً من الملذات بكل قوته.

لم أعاتب، لم أفتح فمي للملام، لم أقل شيئاً لأحد... فهنالك مواقف لا تحتويها أي كلمة، والمشاعر الجريحة لا يشفيها الاعتذار، والحب لا يُستجدى بل يُمنح طواعية دون طلب، والوفاء عنوان النقاء، والنقاء يكون بالطبع لا بالتطبّع. أغلقت باب مكتبه وأغلقت قلبي معه.

* * *

فكرت لأيام وأيام... إلى أين المفر وفي بيتي وتحت جناحي طفلان... لم يكن المال عائقاً أمامي ولكن ما السبب الذي سأعلنه للباقين. نادر رجل مثالي لا يبخل على بيته بأي شيء ويعاملني بكل احترام، وإن أعلنت رغبتي بالطلاق بسبب خيانته فسيقولون إنه رجل، ولكل رجل نزواته التي علينا غفرانها والتغاضي عنها. وسيأتي معتذراً وسأضطر لمسامحته كي يعيش الأولاد بسلام بين أم وأب، وكي لا أكرر تجربة عليا. وعندها سيعود الحال إلى ما كان ولن أكسب شيئاً سوى الفضيحة.

* * *

كان الوقت صيفاً وكنا على وشك أن نحظى بطفل جديد في العائلة، هو طفل محمد وعايدة، وفي انتظار انتهاء عيسى من امتحانات عامه الثالث في الجامعة لتفرح أمي بالنتيجة، وتذهب لقضاء نهارها بجانب قبر كل من والدي وعماد تزف إليهما الأخبار السارة.

أما عليا فقد لحقت بولديها بعد شهر من مغادرتهما إلى السعودية، واحتفالاً بعودتها قام أيمن بأخذها في رحلة استجمام لأسبوعين في أوروبا، معلناً للجميع أنه شهر عسلهما الثاني.

كان كل شيء يسير كما أتوقع حتى وجدت نفسي

حاملاً للمرة الثالثة... رغم برودة العلاقة ونفوري المستجد منه منذ علمت بحياته السرية... حاملاً بطفل لا أريده و لم أرغب به... فقد كان يكفيني طفلان لتقييدي و لم أكن بحاجة لثالث... زادت المسببات لسجني الأبدي وزاد كرهي له وكرهي لنفسي...

مرت شهور الحمل وأنا أزداد نحولاً بدلاً من العكس إلى أن وجدت نفسي في الشهر الثامن هيكلاً عظمياً مع بطن منتفخ... ما اضطر الطبيب لإعلان حالة الطوارئ وإدخالي المستشفى لإجراء عملية قيصرية ووضع الطفل في الحاضنة.

أيام عصيبة بكيت فيها إلى أن تورمت عيناي دون سبب... كنت أنظر إلى الطفل وأبكي، أتأمل خالد وريما ويزداد بكائي... أتأمل نفسي فأرى الحزن يرتدي امرأة لا قدرة لها على الحياة.

ما الذي حلّ بي وأين تبخّرت أحلامي وطموحاتي بان أكون مصممة الديكور الأولى في البلد. أين أنا الآن وما الذي جنيته من زواجي بنادر؟ هل وجدت الحب؟ هل ارتحت؟ هل نمت ليلة في حضنه بأمان؟ لم أجنِ شيئاً سوى مجموعة من الأطفال... لا، لا يحق لي قول ذلك لأنهم الدنيا وكل ما فيها... وما بين الشعور بوجع الروح والإحساس بالذنب تجاه الأفكار الغريبة التي كانت تنتابني... كدت أُجن.

-39-

داخل مكتبه وبحضور صديقة له كانت قد تعرفت إليها في وقت سابق، دار الحوار متشعباً في مواضيع عدة، إلى أن استقر على مجموعة الصور الجديدة الذي قام بالتقاطها مؤخراً لغروب الشمس ما دفع بصديقته للتعليق على رومانسيته الزائدة وهي تغمز مازحة لتقوم بدورها بالتعليق معها على الأمر ذاته. كانتا تضحكان ببراءة و لم تظن أي منهما أن الأمر قد يضايقه إلى أن التفتت صديقته إليه وقالت:

- على ما يبدو الأمر يزعجك.

وبدلاً من أن تصمت إثر الملاحظة التي أبدتها المرأة ووجهه الصامت... عادت لتكمل حديثها قبل أن تقف وتودعهما إثر مكالمة عاجلة أتتها من موقع العمل. بعدها بدقائق اتصل بها صارخاً في وجهها بقوة جعلتها تظن أنه سيخرق الهاتف ويصفعها وهو يلومها على سخريتها منه التي لا تُغتفر، لترد بدهشة أنها لم تسخر منه يوماً ولا تفكر

بذلك... لم يعطها الفرصة للكلام بل استمر على غضبه... وأصرت على التبرير فلم يسمعها.

أتت إليه مجدّداً لترى ما به ولتفهم الذنب الذي اقترفته بحقه فوجدت الشرر يتطاير من عينيه. حاولت تهدئته بالكلام فلم تفلح محاولاتها كلها فصمتت، فإذا به يلومها لصمتها فانتابتها الحيرة في أمره:

- ما الذي يجب عليّ قوله لأرضيك... حسناً أنا مخطئة بالطريقة التي تهكّمت فيها على عملك وأتفهّم حساسية الأمر ولكنه خطأ غير مقصود... كنا نمزح.
- وهل أنا موضوع للمزاح.
- لا، لست موضوعاً للمزاح ولا أرضى أن تكون كذلك، ولكن ما حدث قد حدث.
- وهل أنت سعيدة الآن؟ لو كانت امرأة غيرك من قالت ما قلتِه لكنت أسمعتها من الكلام ما لا تعرفينه ولا يمكنك تخيّله... لكنني صمتت لأنك أنت... أنت التي من المفترض أن تكون معي، أن تدافع عني إذا ما تعرض أحدهم لي بكلمة. أن تقف بصفي، أن تشعرني بالولاء التام لي... أنت في المقابل ماذا فعلت؟ وعند أول موقف ما الذي رأيته منك؟ أجيبيني...

كان يصرخ في وجهها وينعتها بصفات لا تُصدّق أنها تسمعها منه وهي تحدّق إليه وتلوم نفسها وتكاد تختنق من الدمع الذي تجمع في عينيها والغصة التي أمسكت بحلقها فلم تستطع النطق بأي كلمة... ليزداد غضبه وهو يقول:

- أجيبي ولا تصمتي هكذا. قولي لي لماذا فعلت ذلك؟ هل ترضين أن أسخر منك أمام أحد؟ هل ترضين... هل تقبلين أن أساير شخصاً يحاول السخرية منك؟ بأن أزيد بالحديث معه...

انهمرت دموعها وهي تحاول أن تجيب لتقول إنهما لم يسخرا منه بل كان الأمر مزاحاً ثقيل الظل بدون أي نية سيئة من قبلهما... ورغم ذلك فهي تقر أنها قد أخطأت بما فعلته وبأنها نادمة... وبأنها...

هدأ ظاهرياً رغم الغضب الذي استمر بالاشتعال في صدره. طلب طعاماً للغداء وأخبرها أنها ستأكل معه. لم تكن جائعة ولكنها لم تستطع معارضته... كان الشعور بالذنب تجاهه يشل قدرتها على التفكير... كانت تتألم لألمه الذي لم تقصده وتجلّد نفسها بنفسها لما قامت به ويزداد الوضع سوءاً وهي ترى احمرار عينيه والدمع الذي تلألأ فيهما... لا، لا يمكنها تحمّل الأمر. كيف سمحت لنفسها أن تكون عديمة المسؤولية إلى هذا الحد؟... أتى صبي التوصيلات بالغداء فجلسا على الطاولة المجاورة للمكتب

الخشبـــي التي تتسع لستة أشخاص، هي على الرأس وهـــو على شمالها يتناولان الغداء بصمت، وبين حين وآخر يقـــوم بإطعامها بيده كمحاولة للاعتذار عما بدر من فورة طبـــع منه، وتأكيداً على حاجته إليها وانتمائها له.

بعد قليل، وبعد أن انتهيا من الطعام، وهي تقوم بوداعه اقتربت منه بتردّد لتقبّله فشدّها بقوة إليه لتنهار في حضـــنه وتلتصق أكثر به... فك أزرار قميصها وانحدر بشفتيه ليقبل عنقها وأعلى صدرها... ولم يتمالكا نفســـيهما... تركهـــا للحظة أحكم فيها إقفال باب المكتب كي لا يقاطعهما أحد وعاد ليضمها بشوق وكأنه لم يلقها منذ عام، وهي بدورها ترد له المشاعر بأكثر منها... وعلى أرض الغرفة الباركيـــه الخشبـــي غابا عن العالم الخارجي ودخـــلا في دهاليزهمـــا السرية التي لم يكونا قادرين على مقاومة السير فيها...

-40-

حل صيف العام 2003 وأنا على الحال ذاتـــه. أزداد نحولاً يوماً بعد يوم وأزداد انطواءً وكآبةً وشـــروداً مـــا استرعى انتباه الجميع لتبدأ الملاحظات والتساؤلات حول وضعي.

كان الاقتراح أن أدخل المستشفى لإجراء فحوصـــات طبية شاملة لمعرفة ما بـــي... وكما كنت أتوقع جـــاءت النتائج سلبية. وازدادت الحيرة لديهم:

- ما بك يا عبير؟
- ما الذي يضايقك؟
- أنت تعيشين حياة مرفّهة سعيدة مع زوج يحبـــك وأولاد رائعين.
- ما الذي ينقصك؟
- هل أنت حزينة لأن نادر منعك من إقامة مشروع خاص بك؟ ولكنه محق؛ فالأولاد في أعمار صغيرة وبحاجة إلى رعايتك... والمستقبل أمامـــك... لا

يمكنك تركهم والذهاب للعمل وأنت غير مضطرة إلى ذلك...

كان يرددون الأسئلة ويجيبون عليها، فلا داعي إذن للنقاش... لا شيء سوى الصمت لأقدمه لهم ولا أملك سواه.

أسير في المتنزّهات... والمطاعم والأسواق هنا وفي الخارج.. أجر ورائي حاشية من الخدم وثلاثة أطفال... ثلاثة قيود من البراءة والطفولة الهشة، مخلوقات صغيرة شاء القدر أن أكون والدهم وأن ينتظروني لأطعمهم وأغمرهم بالحنان كما يجب... أمارس دوري كأم بلا وعي كامرأة تسير على الكهرباء يتحكّم بها (ريموت كونترول). أنظر إلى نفسي في المرآة فلا أعرفها... ويزداد الوضع معي سوءاً وبؤساً.

انتشلني صوت رنا من السرحان الدائم وهي تحادثني في المقهى، الذي كنا نرتاده دائماً في شارع الحمرا. كانت تخبرني بحماس عن وسيم عريسها الذي ارتبطت به بعد معرفة قصيرة، وعن طبيعة عمله في شركة الهندسة، وعن استعدادات الزواج التي تقوم بها، وخلافها مع والدها لأنها لا تريد أن تقيم عرساً كبيراً بل مجرد عشاء عائلي على أن يسافرا بعدها لقضاء شهر العسل قبل الاستقرار معه في الإمارات والعمل في الشركة ذاتها.

- هابيي عبير... أين أنت وكأنني أحدث الكرسـي الذي تجلسين عليه... ما بك؟
- لا شيء.
- عبير... أنا رنا وحتى إن كنت زوجة خالي العزيز ولكننا صديقتان وبإمكانك قول كل ما يضايقك لي... وبتردد سألتني وهي ترفع فنجـان القهـوة لترتشف منه وكأنها تريد إخفاء تعـابير وجههـا وهي تقول:
- هل يسيء معاملتك؟... هل هو جيـد أمامنـا و...
- لا، لا يا رنا.. أقسم لك إنه إنسان محترم جداً في تعامله معي ومع الآخرين، ولكن...
- ولكن ماذا... أخبريني.
- لا يمكنني شرح الأمر لك...
- يبدو أن الوضع أعقد مما أظن.
- لا يوجد أي تعقيد... هي حياة نعيشها والسلام.
- منطق اليأس... لم أعهدك هكذا. أين حيويتـك وأحلامك ومشاريعك؟
- تعلمين أنه لم يرضَ أن أقوم بأي عمل في الوقـت الحالي.
- معه حق.

- نعم معه حق، الأولاد بحاجة إليّ.
- حسناً... من الآخر ما المشكلة بينكما.
- المشكلة أنه لا مشكلة بيننا... نحن لا نختلف، أو على الأصح، لا نتحادث ولا نلتقي وقتاً كافياً لنختلف فيه.
- لماذا لا تتركين الأولاد برعاية أمك أو أمي وتسافرين معه وحدكما... وأكملت غامزة... شهر عسل جديد.
- لا أريد.
- لماذا؟
- اقترحت عليه الأمر بعد ولادة خالد ورفضه قائلاً إنه مشغول جدا وإنني أفكر كالمراهقين... في الحقيقة، حاولت بعدها التلميح، ولكنه لم يعرني أي اهتمام، فلم أعاود الكرة وحاليا لا أريد شيئاً منه... رنا... أتظنين فارق العمر له تأثير؟ أهذا ما حاولت قوله لي و لم أسمعك...
- فارق العمر لا تأثير سلبي له إن كان هنالك انسجام وتفاهم بين الطرفين... ولكن ما حاولت إعلامك به في السابق هو أن البرودة طبع مستفحل في عائلة أمي؟ ألا ترينها يا عبير كيف تعاملني وكيف تنظر إلى الأمور من الناحية المادية فقط؟

هل حدثتك يوماً عن أبـــي... كل ما تعرفينه أنه ميت، ولكن لم أقل لك يوماً كيف كانت حياقمما معاً... كان الوضع أشبه بالجحيم... أبـــي كـــان مثلك إنساناً حالماً بالمثاليات وبالحب الذي انتظره طويلاً ويريد بشدة المحافظة عليه... كان يـــؤمن بالبساطة وبأن الجمال ينبع من الداخل... كان لا يحب المظاهر والتفاخر بما يملك... كان يأخـــذني في نزهات طويلة على الدراجة الهوائية ويسير بـــي على شاطئ البحر... كان إنساناً رائعاً، ولكنها لم تحبه لسبب وحيد هي أنها لا تعرف أن تحب تماماً كخالي. هم عائلة غريبـــة يؤمنـــون أن العاطفـــة ضعف، وأن القوي هو من يستحق الحياة فقـــط، وأن المال الحامي الوحيـــد للكرامـــة... لـــديهم مفاهيمهم الغريبة التي لا تستطيع امـــرأة مثلـــك العيش في كنفها...

- لقد فهمت الآن... لقد قمت بتلخيص ما أعيشه وأعانيه دون أن أقوله لـــك... ليـــتني اســـتمعت لكلامك قبل الارتباط به... ولكن هـــل كنـــت سأقتنع به؟ لا أظن يا رنا فالإنسان لا تعلمه سوى التجربة ولا تصقله سوى الهموم التي تهب كالرياح العاصفة على قلبه...

- وما الحل؟ كيف سأتركك في كـــل مـــا تعانيـــه وحدك... وكما تعلمين سأسافر ولـــن أكـــون بقربك... وما يحدث بداخلك لن يفهمه إلا مـــن عايشه أو مر به..
- لا عليك، سأعيش...

-41-

كالعادة كانا يتحادثان آخر الليل عن تفاصيل يومهما وعن أولادها عندما سألها فجأة:

- ... وأنا؟ من أكون؟ ألا ترين أنك أنانية.
- أنا...
- تريدين كل شيء، تريدين المال والعمل والنجـــاح والعائلة والأولاد وفوقهم الحبيب... وأين أنـــا... ألا يفترض أن يكون لي حياتي الخاصة أيضاً.
- بالطبع... عليك أن تبني مستقبلك.
- وما الحل؟
- لا أدري... بإمكان المرء أن يتحكّم في كل شيء إلا بمشاعره.
- حسناً... وهل سأظل رهناً لشيء لا أعرفه.
- قلت لك سابقاً وأكرر إذا مـــا أردت أن تنـــهي العلاقة فالقرار لك... المنطق يقول إن هذه العلاقة لا بد لها من نهاية... وسيأتي يوم وتنهيها لتقـــوم

بناء حياتك مع شريكة مناسبة لك...

- وإن لم أنهها.
- بالنسبة إليّ لا أستطيع الابتعاد عنك، لذا فالقرار لك وليس لي... لا يمكنني اتخاذه.
- وإذا كنت أنا أيضاً غير قادر على اتخاذه؟ ما الحل حينها... أنا مرتاح معك من كل النواحي الفكرية والجسدية وتعلمين بذلك، وهذا الأمر مشكلة لأن وجودك يمنعني من الاقتراب من أخرى... أنت تقفين بيني وبين النساء كالحاجز...
- لا أدري... دعنا لا نفكر الآن في هذا الأمر.. دعنا نعش كل يوم بيومه... كل ما أريد قوله لك إنني أحبك وأحبك ولا أريد أن أفكر في الغد ولا أريد في هذه اللحظة بالذات أن أخسرك... حدثني عن الكاميرا الجديدة التي قمت بشرائها ما هي مواصفاتها؟
- إنها رائعة... كاميرا (...) كاميرا احترافية بامتياز بدقة 20 ميجابيكسل وتصوير الفيديو بأعلى درجة وضوح P1080... وشاشتها الخلفية Lcd مقاس 23. بوصة...
- إن قلت إنها رائعة فهي إذاً رائعة... أنا لا أفهم كثيراً بتلك الأشياء... ما تبهرني هي الصور التي

تقوم بالتقاطها... ما الذي ينتابك حينها؟ ما الذي تشعر به وأنت توقف الزمن عند لحظة معينة لتخلدها بعملك...

- أنا عاشق للكاميرا... بيني وبينها حالة من الهيام... من الجنون والهذيان والسعادة المطلقة... أشعر، وهي بين يدي، أنني قد ملكت الكون للحظات... تلك اللحظات التي التقي فيها بنفسي... وكما تعلمين بعيداً عن متطلبات العمل، أقوم بتصوير الطبيعة التي تأسرني بجمالها والوجوه والأماكن... لأعبر عن أفكاري ورؤيتي في هذه الحياة من خلالها...

* * *

بعدها بأيام عاد اللوم ليطرق الباب بسبب انشغالها طوال النهار بعملاء كان عليها الاهتمام بهم، والغداء معهم، ومناقشة العمل السائر بينها وبينهم... لم تهمله عن قصد و لم تكن سعيدة بالظروف التي أبعدتها طوال النهار عن التواصل معه، فغيابها دائماً ما تكون مجبرة عليه... ولكنه استقبلها باللوم على إهمالها له لساعات دون أي كلمة وإجابته بالتبرير الذي لم يقنعه. وما زاد من الأمر اضطرارها لتركه في منتصف الحديث بسبب ألم المعدة الذي ألمّ بابنتها فجأة

واسترعى انتباهها، وجعلها تعلمه بأنها ستكلمه فيما بعد لانشغالها في الوقت الحاضر، ليخبرها غاضبا بأنه على ما يبدو قد انتهى وقته...

* * *

عتب آخر واجهها به بعدها بأيام وإن كان بطريقة ساخرة عندما سألها فجأة أثناء الحديث:

- هل كسبت منه جيداً؟ هل وجدت سعره مناسباً؟
- ماذا! عمّ تتكلم؟
- عن العقد ألم تبيعيه؟
- أبيعه! ولماذا سأبيعه؟ أنا حتى لم أعرف ثمنه لأنك رفضت أن تطلعني عليه... ما الذي تقصده بكلامك
- لا أقصد شيئاً...
- آه... الآن فهمت؟ أتقول ذلك لأنني لم أضعه منذ أيام؟

وضاحكة أكملت:

- أتراقب عنقي يا رجل في الصور التي أرسلها لك... ألا تعرف كم يعني لي هذا العقد... إنه الهدية الأجمل التي تلقيتها في حياتي وأغلى ما أملك من حلي.. فقط لأنه منك.

* * *

كان التوتر بينهما موجوداً والحال كبركان على وشك أن ينفجر... فالحب حين يكون في ازدياد يصبح مرهقاً لكلا الطرفين خصوصاً والنهاية واضحة المعالم والأمل مفقود والمستقبل لا وجود فيه لبقعه ضوء قد تنير الدرب...

في تلك الأيام كانت قد وصلت معه إلى حالة من الجنون المرهق... تحبه وتشتاق إليه وتزداد تعلقاً به كل يوم أكثر، وهو يبادلها الشعور لدرجة أنه حين عانى من التهابات منعه على إثرها الطبيب من ممارسة الحب لشهر كامل... لم يستطع الصمود عندما التقاها. ورغم اعتراضها ورفضها التام للعلاقة كي لا يؤثر ذلك على علاجه بدأ بنزع ثيابها عنها بإصرار وهو يردد (وهل سنلتزم بما يقوله الطبيب) لتجيبه بعد أن استسلمت لقُبله (لا لن نلتزم) وليغرقا معاً على سريره.

(ما روته عبير)

-42-

سافرت رنا الوحيدة التي استطاعت فهم ما أعانيه لأعود إلى العزلة مجدداً... إلى أن فكّرت مرة بالتوجه إلى مدينتي صور والشكوى لعايدة علني أجد حلاًّ لديها... قدت السيارة مسرعة نحو هدفي... وما إن وصلت حتى صعدت الدرجات راكضة وكأنني أريد العودة إلى الطفولة، إلى الأحلام التي بعثرتها الليالي علني أقوم بتعديلها وبتعنيف نفسي في فترة مراهقتها والقول لها إن الواقع الذي ينتظرنا مختلف جداً عما نتخيله لذا فلا يجب علينا التعلق بأي أمر، بأي حلم... وصلت إلى بيتنا القديم في الطابق الثالث من المبنى أي بيت عايدة حالياً وما إن هممت بقرع الجرس حتى سمعت صوتها هي ومحمد يعلو بالغناء باللغة الإنكليزية لطفلهما الصغير الذي لم يتجاوز الشهرين كانا يرددان معاً أغنية (بارني) البرنامج التلفزيوني الخاص بالأطفال (I love you، you love me، we are happy family...).

لم أملك القدرة، أمام ما سمعت، على تشويه سعادتهما بأحزاني فعدت من حيث أتيت بعد أن قمت بجولة بالسيارة في شوارع المدينة التي أعشق والتي لا يمكنني الابتعاد عنها... وحدها القادرة على امتصاص غضبي وفورة طبعي ومشاعري المرهقة... ووحده بحرها القادر على إعادة الهدوء إلى نفسي...

* * *

في ذلك الصيف تخرج عيسى حاملاً شهادة علمية جامعية، وشهادة أخرى في الرجولة، أدهشتني لعلمي بحبه للمظاهر وللمال والحياة المترفة... أدهشتني حقاً وجعلتني أفتخر به عندما أعلن لنا في الحفل العائلي الصغير الذي أقامته الجدة على شرف نجاحه بوجودنا جميعاً باستثناء نادر، بالطبع، المشغول دائماً والذي حضره أيضاً كل من عليا وأيمن ووالديهما، بأنه سيبحث عن عمل بنفسه كباقي الشباب في عمره ولا يريد تدخلاً من أحد ولا واسطة منا أو من أي مخلوق آخر... قالها لنا (أريد لأبي أن يفخر بي وهو في العالم الآخر... أريده أن يعلم أن عيسى الطائش الآن رجل وقادر على تحمل المسؤولية...). أمام كلماته لم أتمالك نفسي فحضنته باكية والسعادة تملأني لأنني لست وحيدة في هذا العالم فأنا أعيش ضمن عائلة وأخ رجل بكل معنى الكلمة...

ولكن رحلة البحث عما أراده لم تكن بالسهولة التي توقّعها؛ فقد قام بتقديم أوراقه لأكثر من شركة ولأكثر من بنك خاص، ولكن الأمر كان يقتضي التدخل من طرف في العائلة للتوسط لدى طرف سياسي، ليقوم هذا الأخير بالتدخل لدى إدارة المصرف لتعيينه، وهذا ما كان يرفضه... لا امتحانات... لا اعتبار للكفاءة... أنت قوي على قدر الواسطة التي تقوم بحمايتك... إلا إذا كان لدى أحد معارفك رصيد هائل من المال هنا بإمكانه فرض كلمته لتعيينك... بكل الأحوال فأنت رغم النجاح ورغم الشهادة التي تحملها ورغم الكفاءة التي تتمتع بها... أنت لا شيء دون الدعم المالي أو السياسي... وأهلاً بك في لبنان، هذا هو الحال في بلادنا... ولا داعي لأشرح لك أكثر لأنك عالم بهذا الأمر...

مرّت شهور والحال على ما هو عليه وعيسى من مكان إلى آخر باحثاً عن عمل... إلى أن حل شباط العام 2005 وحل عيد العشاق الذي لا احتفل به في العادة لأنني لم أجد يوماً من يعايدني في هذه المناسبة أو يبوح لي بالكلام الجميل أو يهديني وردة حمراء قائلاً (أحبك)...

لا أدري ما الذي انتابني وقتها؟ ربما لعلمي أن عيسى سيقوم باصطحاب خالد بنفسه من المدرسة للغداء معي ومع الأولاد. قمت بإحضار قالب حلوى على شكل قلب

أحمر وأعددت المائدة وأنا أفكر: لِمَ لا فعيد الحب هو للإخوة أيضاً وللأبناء ولجميع من يرحب بالحب وينتظره...

2005/2/14 تاريخ غيّر وجه لبنان وجعلنا نقطع الطريق من مكان إلى آخر... تاريخ لا يمكن لأي لبناني أن ينساه أو يتناساه... عيد العشاق الذي كنت سأحتفل به للمرة الأولى تحوّل بلحظات إلى مذبحة... ارتدى الأحمر ولكن بالدم... انفجار هائل هزّ المدينة... لنسأل أنفسنا: بيروت... ما الذي حل بك؟... انفجار صدمنا وشل حواسنا ومنعنا من التعبير... وقفت أتابع ما حدث على التلفزيون والدموع تنهمر من عينيّ دون إرادة مني... لقد استشهد الرئيس الحريري... كدت أقع على الأرض لو لم يسندني عيسى المصدوم مثلي ويجلسني على الكنبة، والأولاد من حولنا لا يفهمون شيئاً. أحضرت لي الخادمة كوباً من الماء وعيسى كان يناولني المناديل الواحد تلو الآخر وهو يقول:

- ولكنك يا عبير ألستِ أنتِ من كنت تنتقدين سياسته وتلومينني لدفاعي عنه...

لأجيبه باكية:

- وإن يكن فهو سياسي والطبيعي أن لا يتفق الجميع على ما يقوم به، ولكنه رجل وطني وضع مهمة

بناء لبنان على كتفيه وسار بها... لا يمكن لأحـــد إنكار ذلك... أنا لا أصدق... ما الذي حدث... من فعلها؟

ليرد عيسى:

- وكأنك لا تعلمين... أنسيتِ محاولة اغتيال حمادة قبل فترة... أنسيتِ أن الحريري كـــان معارضـــاً للتمديد للحود... أنسيت استقالته منـــذ أربعـــة أشهر...
- أنا لا أصدق... انظر يا عيسى.. إنها مجزرة بكـــل معنى الكلمة...

الذهول الذي سيطر علينا كان عاماً في كل البلـــد... الحريري الذي اختلف على سياسته اللبنانيون اجتمعوا لحظة اغتياله على محبته وعلى أنه إنسان وطني بامتياز؛ علّم الآلاف من الشباب من جميع الطوائف في لبنان وخارجـــه؛ وقـــدّم المساعدات لمن احتاجها وآمن بحق الشعب اللبناني بمقاومـــة الإسرائيلي وتحرير الأراضي المحتلة؛ وردّد دائماً عبارة (ما في حدا أكبر من بلده).. فكيف لا يخرج لبنان عن صمته بعد وفاته؟ وكيف لا يسير اللبنانيون كباراً وصـــغاراً ونســـاءً ورجالاً في تشييعه إلى مرقده الأخير؟ وكيـــف لا تنـــتظم معارضة تعلي الصوت للمرة الأولى بوجه السوري الحـــاكم بالبلد بأمره؟...

الحريري استشهد .بمتفجرة علمنا بعدها أنها كانت تزن حوالي 1800 كلغ من التي أن تي (TNT) خلال مرور موكبه بالقرب من فندق السان جورج ومعه الوزير باسل فليحان وتسعة عشر شخصاً آخر من مرافقيه وممن كانوا في الشارع وقتها...

مقتل الحريري بتلك الطريقة الوحشية، والتي بدا أنها كانت منظمة على أكمل وجه ومخططاً لها بدقّة، كان السبب بخلق حالة في البلد سميت بانتفاضة الاستقلال أو ثورة الأرز نتج عنها الانقسام ما بين الموالين للنظام السوري وأتباعه في لبنان الذين تجمعوا في ساحة الشهداءِ في 8 آذار ليطلق عليهم فيما بعد (قوى 8 آذار) وما بين المعارضة التي حركت المياه الراكدة وتحت تأثير الضغط الشعبي الذي قادته في 14 آذار في الساحة نفسها ليكون لهم أيضاً تسميتهم (قوى 14 آذار). قدّم الرئيس عمر كرامي استقالة حكومته وتم إخراج السوريين من البلد إذ انسحبت قواته العسكرية في 27 نيسان بعد تمركزها فيه لثلاثين عاماً، كما استقال مسؤولو الأمن وأنشئت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان للبت في موضوع اغتياله وكانت الدعوة لعودة ميشال عون من المنفى ولإطلاق سراح قائد القوات اللبنانية سمير جعجع... وجرت لاحقاً انتخابات نيابية فازت على أثرها ليستمر مسلسل التفجيرات والاغتيالات؛ إذ تمت تصفية كل

من سمير قصير الصحفي المعارض للنظام السوري في انفجار استهدف سيارته في منطقة الأشرفية، وبعدها بأقل من شهر اغتيل جورج حاوي الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني بتفجير سيارته أيضاً بالقرب من منزله في وطى المصيطبة... وكذلك محاولات الاغتيال الفاشلة لكل من وزير الدفاع الياس المر والصحافية مي شدياق والتي أصيبت بجروح بالغة في قدمها اليسرى ويدها...

وضع البلد غير المستقر، والذي كان يشهد تحولات مصيرية، جعل عيسى الباحث عن مستقبله مستسلماً لناحية عدم إيجاده العمل المناسب، خصوصاً بعد رفضه العرض الذي قدمه له نادر للعمل عنده، فأراد الهجرة إلى الخارج للفرار من بلد عاد ليعيش على حافة الهاوية، لا أمن ولا أمان فيه، ولا غد واضح المعالم...

في صور وداخل مطعم كان يدعى (...) قبل أن تقوم القوى الإرهابية فيما بعد بتفجيره هو وعدة مطاعم في المنطقة لأنها كانت تقدم الكحول لروّادها... كنا مع عايدة ومحمد نتناول طعام الغداء في هدوء ونستمع للموسيقى في جلسة مصغرة لوداعه... عيسى الذي قرر السفر إلى أفريقيا والعمل كمحاسب في إحدى الشركات... عندما بدأت الأخبار ترد إلينا من تطبيقات الهواتف لنشاهد الأحداث بعدها بدقائق على التلفزيون... انفجار آخر في منطقة

المكلس شرق بيروت والضحية كانت الصحافي جبران تويني... الذي أطلق القسم الشهير في 14 آذار طالباً من الحضور ترديده معه ليعلو صوت المحتشدين وهم يصرخون (نقسم بالله العظيم، مسلمين ومسيحيين، أن نبقى موحدين، إلى أبد الآبدين، دفاعاً عن لبنان العظيم...) ودفاعاً عن لبنانه العظيم ولبناننا العظيم قُتِل على أيدي قوى الظلام الغاشمة التي أرادت خنق أي صوت معارض... خبر استشهاد جبران تويني الذي هزّ كياننا ومنعنا من تكملة الغداء... موته الذي أحزننا وجعل عيسى المناصر لقوى 14 آذار يصرخ من الغضب وهو يدق بيده بقوة على الطاولة... هذا الأمر لم يكن له الأثر ذاته على جميع من في الجنوب، فقد سمعنا لاحقاً بأن هنالك من رحب بتصفيته، وأن هنالك من وزع الحلوى احتفالاً بمقتله...

عار وكل العار أن نشمت بالموت، أن نفرح بالاغتيال، أن نعتقد ونؤمن أنه لا حق لأحد أن يكون معارضا... وكيف سنبني بلداً حراً ديمقراطياً إن كانت صدورنا لا تتسع للجميع؟ وعقولنا لا تتقبل الآخر ولا تحترم رأيه؟.. إن كنا سنعيش بمبدأ السيد والعبيد التابعين له... إن كانت قياداتنا هي المرجعية العليا لنا وكأننا مجرد أغنام وكأن لا عقول لدينا؟ وكأن الله قد خلقنا لنخضع ونطأطئ الرأس ونرحب بمقتل كل من يخالفنا...

ما حدث في ذلك اليوم في 2005/12/12 جعل عيسى يثبت على رأيه أكثر رغم معارضة والدتي لسفره... فلوعة مقتل عماد لا تزال حاضرة في وجدانها، والسفر للعمل في أفريقيا ارتبط بذاكرتها بالغياب والموت... حاولت كثيراً ثني عيسى عن قراره وكذلك الجدة ولكنه كان مصراً طالباً منهما النظر بأحوال البلد وصعوبة العيش والاستقرار فيه... وبالدموع الحارقة قمنا بوداعه في بيت الجدة رافضين الحضور إلى المطار للبقاء حتى اللحظات الأخيرة معه... لأننا بداخلنا لا نريد أن نعيد صورة وداع عماد... لا نريد أن نعيش ما عشناه منذ سنوات...

وسافر عيسى... أخي وسندي وصديقي الوحيد... سافر مثل رنا باحثاً عن أحلامه وحياته ومستقبله... سافر لأخسر كل من أستطيع التفاهم معهم أو البوح أمامهم بما في صدري... فعدت مجدداً للهروب من الواقع بالحبوب المهدئة التي وصفها لي طبيبي النفسي وبالنوم... عدت لقضاء الوقت في المولات... انتقل من محل إلى آخر ومن مطعم إلى آخر إلى أن يحين المساء فأعود منهكة لأرمي بما اشتريته على أرض الغرفة وأهرع لأستحم واضعة نفسي في السرير منتظرة مفعول الدواء لأغرق في النوم حتى منتصف اليوم التالي... والسؤال الذي كان يشغلني طوال الوقت هو: لماذا أعيش؟ حتى أطفالي، هنالك من يهتم بهم ولا أرى أنهم

بحاجة إليّ؟ لماذا أعيش؟ وهل أنا مجرد عدد زائد على هـــذه الأرض لا أهمية له أو لمشاعره... طموحه قد أُعدم وأحلامه منسية... إن اشتكى اتُّهم بالدلع وإن صمت عانى من هــــمٍّ يأكله من الداخل... لماذا أعيش؟...

-43-

لقد جننا بما فيه الكفاية... بهذه الكلمات حدّثها وهما جالسان في صالون منزله بعد أن انتهيا من لحظات العشـــق والشغف والشوق والعاطفة القاتلة لكليهما...

قال جملته وأكمل كيف أنهما اقتربا من افتضاح أمرهما لأكثر من مرة وإن حدث ذلك فهو سيكون غير قادر على حمايتها وغير قادر على الدفاع عنها في مواجهة مجتمع لـــن يرحمها ولن يرى تبريراً لعلاقتهما ولـــن يصـــفها ســـوى بالآثمة... وبأنهما يعلمان جيداً أن لا مستقبل لهذه العلاقـــة التي عليها أن تنتهي يوماً...

كان يكلمها مشيحاً بوجهه عنها... وبقلب خـــافق بعنف استمعت إليه وهو يتلو قراراته مقتنعة بما يقوله... نعم لقد عشنا الجنون بما فيه الكفاية.. طأطأت رأسها بحزن وهي تنظر إلى أرض الغرفة وتتذكر كيف مارسا الحب في الشتاء على السجادة التي كانت هنا، ترفع نظرها فتأخذها الذكرى لأيام كانت تلتصق به على الكنبة التي أمامها، تدير برأســـها

وتتذكر كيف أخذها مرة من السرير إلى الحمام مصراً على أن يكونا تحت المياه الساخنة... وتتذكر كيف لحق بها في إحدى المرات إلى صور بعد أن أخبرته أنها ستقضي العطلة مع أولادها في البيت الذي اشترته مؤخراً في المدينة... وكيف جلس في المقهى الذي كانت تشرب القهوة فيه برفقة ابنتها يتبادلان النظرات عن بعد كمراهقين... وتعود بالذكرى إلى الجنون الذي كان يحل بهما عندما تمر به في مكتبه وكيف انهارا معاً على الأرض في إحدى المرات بعد أول لمسة وأول قبلة... وها هو الآن يعلن الفراق وهي تسمع أصواتاً أخرى تسكن رأسها: همساتهما، كلامهما، سؤاله في كل مرة إن كانت سعيدة معه، وقوله إنه لا يريد من هذه الحياة سوى راحتها... أهكذا يهديها الراحة، ما الذي حل به؟ وهل يحق لها لومه وهي التي أخبرته سابقاً أن أمر علاقتهما بيده ووحده من بإمكانه أن ينهيها، وها هو قد قرر ذلك فلِمَ الدهشة إذاً؟ لم كل هذا الضيق الذي تشعر به؟ وبماذا يمكن أن تجيبه...

نظرت إلى عينيه صامتة، تاركة الحديث لعينيها وهي تخبره:

حسناً، دعنا ننسَ دعنا نتهْ في ازدحام الحياة. دع الأيام تسير بنا... لتقذفنا من مرفأ إلى آخر... دع الأحلام جانباً وتعالَ نعشْ واقعنا... نعش الحقيقة التي تجبرنا على الفراق...

أليس هذا ما تريده؟ أليس هذا ما تتمناه؟ أليست هذه الخاتمة التي كنا نتوقعها... ولكني لم أظنها قريبة إلى هذا الحد... ألا يجب أن ننتظر بعد... هل سأتحمّل أيامي بدونك... هل بإمكاني أن أكون غريبة عنك... أنا التي كنت ألتصق بك قبل دقائق كيف سأنفيك من جسدي... كيف سأخرجك من مساماتي... أنا التي أتنفس عشقك ولا يبدأ نهاري سوى بك ولا ينتهي إلا بالسلام على عينيك... اخبرني كيف سأحيا بدونك...

بمشاعر جريحة وافقته على قراره... أبت عليها عزة نفسها أن تناقشه فيه... أو أن تعترض عليه... إن كان يريد الابتعاد عنها فليعلم أنها تريد ذلك أيضاً... وقفت مودعة وعلى الباب قبّلها طالباً منها أن تبقى على تواصل معه وأن لا تكف عن محادثته... على أن لا يلتقيا جسدياً بعد الآن... أجابته بإشارة من رأسها وهي تفكر بحاله... إنه كالسابق يريدها ولا يريدها... سيلقاها وستكون مجرد صديقة، والرغبات تعصف به وبها والعذاب ثالثهما، والصمت حاضر بكل قسوته كزجاج هش فيما بينهما، منتظرا من أحدهما كسره بالبوح بحقيقة مشاعره...

ودعته وبيد مرتجفة أمسكت بمفتاح سيارتها تضغط عليه بعنف لفتحها عن بعد... كانت تسير مسرعة تريد أن ترتمي بداخلها لتطلق الدموع التي حبستها أمامه... كي لا

يرى ما حل بها وكم هي ضعيفة بدونه...

لم تنم ليلتها وهي تفكر بحالهما... تستعيد ذكرياتها معه وكيف سألته مرة:

أيحزنك فراقنا... وماذا عن الشوق؟ كيف ستتعامل معه... فأجابها وقتها أن لا تهتم لأمره...

الصور كانت تمر أمامها وهي تتقلّب في فراشها... تغمض عينيها بقسوة علها تنام... علّ طرق الحديد في رأسها يتوقّف... ولكنها لم تستطع عدم التفكير بما قاله قبل رحيلها... يريدها أن تبقى على تواصل معه... ولكن لا... لم يعد بإمكانها احتمال برودته عندما يقرر أن ينأى عن حضنها ليعاملها كصديقة فقط... انتظرت حتى الصباح وأخبرته أنها ستلتزم بقراره ولكنها في المقابل لن تحادثه ولن تلقاه كصديقة... وإن كان مصراً على الفراق فليكن قاطعاً من كل النواحي ولا رجوع عنه... كتبت له وهي تدعو الله أن يلهمها القوة لتعالج شوقها إليه كما كان ينوي أن يعالج شوقه...

(ما روته عبير له...)

-44-

علمونا في المدرسة أن الحرب نزاع بين طرفين يقومان خلالها، في سبيل السيطرة على منطقة ما وعلى مواردهـــا، باستخدام كل ما لديهم من أسلحة وعتاد وبشر للوصـــول إلى أهدافهما أي إلى النصر... ولكن ما هو النصر؟ وكيف ننتصر إن كان لا بد من الخسائر البشرية، ولن أقول المادية، فكل ما هو مادي يمكن تعويضه ولكن من يعـــوض لـــلأم الثكلى موت أبنائها ومن يعوض للأيتام غياب الوالـــدين... من يعوض غياب الأحباب ورحيلهم... وأين نحن من لعبة الحرب هذه...

أسر عناصر من حزب الله جنديين إسرائيليين ليقـــوم الأعداء بشن الحرب على لبنان في 2006/7/12... كنت في زيارة إلى عايدة في صور برفقة أمي عندما بـــدأ الطـــيران الإسرائيلي بقصف الجسور فامتنعنا من العودة إلى بـــيروت خوفا مما قد يحدث على الطريق... ليلة قضيتها في رعـــب وكل تفكيري كان بأولادي الذين تركتهم في البيت مـــع

الخدم لأقوم بزيارة اعتقدتها خاطفة... اتصلت على الفور بأم رنا التي أتت مسرعة لأخذهم للمبيت عندها... أما الجدة فبقيت مع الممرضة الخاصة بها في البيت وحيدة، عينها على التلفزيون لمعرفة الأخبار والهاتف لا يفارق يدها تتصل بنا طوال الوقت... اتصل عيسى أيضاً وبدا بلوم نفسه لتركنا وحدنا دون رجل في البيت كما قال... ونادر كالعادة راسلني مؤنباً لي لتركي الأولاد بمفردهم وكأن قرار الحرب كان بيدي ولم أكن أعلم بذلك... أما عليا وأيمن فكانا في أمان في السعودية...

ليلة لا تنسى نمنا فيها في بيت أم محمد لكونها كانت وحيدة ولضيق بيت عايدة ومحمد لوجود طفل معهما... ليلة قضيتها في الحديث مع إيمان التي أبت إلا أن تسهر معي مستعيدة الأيام الخوالي عندما كنا نسكن سوياً في المبنى ولا نفترق إلا نادراً... إيمان التي باتت غريبة عني وعن نفسها والتي توقفت عن الاتصال بي بعد آخر حديث دار بيننا عن أسلوب حياتها الذي اعترضت عليه أخبرتني بأن سبب أسر الجنديين هو وعد السيد نصر الله بتحرير سمير القنطار الذي مر على سجنه ثلاثون عاماً وبالتالي كان على الحزب أسرهما لتتم المبادلة... كانت تتحدث بثقة وكأن الأمر مجرد حرب يوم واحد وغداً سيتم تبادل الأسرى وسأعود إلى بيروت...

الانحدار النفسي الذي كنت أعاني منه منعني في تلك الفترة من متابعة الأحداث السياسية فجلست استمع إليها وكأنني لا أعرف شيئاً عن بلدي وعما يدور فيه...

حسب إعلام حزب الله سميت العملية بعملية (الوعد الصادق) بينما أطلقت عليها الحكومة العدوة اسم عملية (الثواب العادل) وتوالت الأسماء لتعرف بحرب تموز وحرب لبنان الثانية وغيرها...

وما أهمية التسمية؟ المهم ما حدث خلالها... تحت القصف ومعي أمي عدت إلى بيروت في اليوم التالي لأكون بجانب صغاري... خوفي عليهم في ذلك اليوم كان كبيراً جداً وكأنني كنت قد نسيت أو تناسيت محبتهم وكم أنهم أغلى ما أملك... أوصلت أمي إلى بيت الجدّة ومسرعة ذهبت لإحضارهم... واتصلت بنادر لأخبره بأنني بأمان إلاّ أنه لم يكن مرتاحا للوضع في البلد خصوصاً بعد إعلان الحزب عن قصف البارجة البحرية قبالة شاطئ صور ومقتل العديد من الجنود الإسرائيليين فيها... فطلب مني تحضير أنفسنا للسفر إلى الخارج ولكني رفضت ترك أمي والجدة وعائلتي لوحدهم فتشاجرنا ليقفل الخط في وجهي...

توالت أيام الحرب... وكان هنالك انقسام عربي بشأنها ما بين الرفض الرسمي للحكومات التي وصفت ما حدث بالمغامرة غير المسؤولة والتأييد الشعبي لكل مقاوم

ضد الصهاينة المحتلين... ونحن نحيا تحت نيران القصــــف... هُجِّر حوالى نصف مليون نازح من بيوتهم في اتجاه صــــيدا والجبل وبيروت وسوريا أيضاً... وكالعادة كان التكـــاتف الوطني لمساعدة كل من هو بحاجة للمساعدة... كمـــا تم إجلاء الرعايا الأجانب... كنا في حالة حرب لم نعهدها منذ عشر سنوات... عادت بكل ثقلها علينا...

بعد إصرار أمي على محمد أتى بعائلته إلى بيروت وفي الحقيقة لم يكن إصرارها هو من دفعه لذلك كمـــا تـــدّعي وتقول، ولكن قصف العدو للمبنى الذي يضم بداخله مركزا للدفاع المدني وملجأ اختبأ فيه العشرات من أبنـــاء القـــرى النازحة من النيران في صور... القصف الـــذي اســـتهدفه مباشرة ليؤدي إلى مجزرة جديدة من مجازر الحرب الإسرائيلية والتي كان من ضحاياها صديقاه الأخوان شمس الدين... هنا لم يعد بإمكانه تحمّل المزيد من الصـــدمات وصـــور مـــن استشهدوا في مجزرة قانا في العام 1996 كانت لا تزال ماثلة أمامه... وصلوا إلى بيت الجدة في بيروت هم والدموع التي لم تكن تتوقف عن الانهمار من أعينهم... ضمني إليه لحظة حضوري إلى بيت الجدة قائلاً: "لو تعلمـــين مـــن مـــات يا عبير؟" لأجيبه باكية: "لقد علمت... أجل علمت...".

وخلافاً للسابق لم يكن التأييد مطلقاً في لبنان للمقاومة ولحقها في اتخاذ قرار الحرب ضد المحتـــل... كـــان هنـــاك

أصوات ناقمة على الحزب وأصوات أخرى مرحبة بما يقوم به من بطولات وكيف لا والحزب قد قام بأكبر عملية إبادة لدبابات الميركافا الإسرائيلية في كمين محكم في وادي الحجير في القطاع الأوسط للجنوب اللبناني بما سمي بعملية (مقبرة الميركافا) لكونه قد دمر خلالها الكثير من الدبابات الصهيونية وقتل حوالي العشرين جنديا إسرائيلياً...

عاد نادر بعد صدور القرار 1701 عن مجلس الأمن الدولي ودخوله مرحلة التطبيق أي (وقف الأعمال العدوانية) كما نص... عاد ليدور الحوار التالي بينه وبين محمد عندما بادر بالقول:

حقا إنه نصر إلهي قام به الحزب رافعاً رأس المقاومة عالياً ورأس لبنان والعرب في مواجهة الصهيوني وقواه الغاشمة... مبارك للشهداء الجنة ومبارك لنا هذا النصر... الشهداء الذي قدموا دماءهم في سبيله في سبيل كرامتنا... كان يتكلم بحماس لا مثيل له فرحاً بوقف إطلاق النار وعاقداً العزم على التوجه بعائلته الصغيرة إلى صور بعد أن خفّ الازدحام الذي استمر لأيام نتيجة الطرقات المقطوعة وكثرة المهجرين العائدين إلى قراهم...

ليجيبه نادر وهو يقوم بإشعال سيجاره المعتاد:

- عن أي نصر إلهي تتكلم يا عديلي... أتظن حقاً أننا انتصرنا...

كلماته المليئة بالسخرية استفزته فأجاب:

- نعم انتصرنا... إن كان رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت قد قوطع خلال إلقائه لخطابه في الكنيست عندما وصف لهم ما حدث بالنصر... ليواجه بالحقيقة التي يعلمها الإسرائيليون جيداً بأنهم قد هُزِموا... إن كانوا هم من يرون انهزامهم أفلا نراه نحن...

هنا عادت الجدية لترتسم على وجه نادر وهو يجيبه:

- محمد... لا يهم ما الذي تقوله المعارضة الإسرائيلية، ما يهم هو الواقع الذي أراه أمامي... انظر لنفسك أنت تنتظر منذ أيام لتتمكن من العودة إلى منزلك دون البقاء لأكثر من سبع ساعات على الطريق الذي كنت في السابق تقطعه بأقل من ساعتين... كيف نكون انتصرنا وقد قتل لنا حوالى 1200 شهيد وجرح أكثر من 4000 شخص وفي المقابل ماذا حل بالعدو؟... كيف نكون انتصرنا وقد دمرت قرى الجنوب والضاحية وجميع الجسور... كيف نكون انتصرنا إن كنا سنحتاج لسنوات وسنوات لإعادة بناء ما كنا قد انتهينا منه... كيف سنكون انتصرنا وأنت تعلم أن لبنان بلد يقوم على الخدمات والسياحة... ما

الذي برأيك سيحل باقتصادنا الآن... أنت تنظــر للأمر من منظور عــاطفي وأنــا أراه كانســان واقعي... كرجل أعمال وأشاهد آثار هذه الحرب المدمرة علينا... أنا بالحقيقة أضم صوتي لمن يعتبرها مغامرة غير مسؤولة...

بانفعال رد عليه محمد وهو يقول:

- وأنا أضم صوتي إلى من يعتبر ما حصل أمراً فُرض علينا وبأننا كنا أمام خيارين لا ثالث لهمــا إمــا القتال بشرف وتقديم التضحيات والشهداءِ بكــل رحابة صدر، وإما التخاذل في وجه العدو... ولا وألف لا لن نركع للإسرائيلي أبــدا... ألا تــرى خوفهم منا بسبب استعداداتنا التي لم يتوقعوها ألا ترى كيف تم استهداف أكثر مــن 14 منطقــة عندهم... الم تر السيد وهو يهددهم بأننا سنصل إلى ما بعد بعد حيفا... ألا ترى كل ذلك... ثم ما الذي أخذوه من هذه الحرب... سلاح المقاومة ما زال حصيناً ولن يستطيعوا الاقتراب منه... والحال كما كان ولن يسترجعوا جنودهم إلا بشروطنا...

وبانفعال عاد نادر للقول:

- أعود وأقول لك: انظر جيداً، الحــرب انتــهت بالجهود الدبلوماسية والبلد في حالة مــن الــدمار

الشامل وأنت تتكلم عن النصر... انتهت والدمار يلف الجنوب والضاحية وقلوب أهالي الشـــهداء الذين تقول إنهم قدّموا الدماء لقاء كرامتنـــا، أي كرامة هذه التي ستقنعني بها لو كنت (لا سمح الله) فقدت أحداً من عائلتي... وأي كرامة هذه ولأجل من... أسير علينا تحريره... يوجد ألف طريقة غير الحرب لذلك... من قال لك إنني مستعد لخسارة أحد من أجل حرب عبثية لا ناقـــة لي فيهـــا ولا جمل...

وقبل أن يرد عليه محمد الذي تأهب للإجابة تـــدخلت عايدة مشيرة له للتوقف عن هذا النقاش الذي كـــان يعلـــو بوتيرته نحو مشكلة ما... فقمت أيضاً في الوقـــت نفســـه بسؤال نادر إن كان مرّ على رنا أثناء وجوده الفترة الماضية في الإمارات ليجيبني بنعم وبأنها الآن حامل، وكانت تنوي العودة لوضع طفلها في لبنان والبقاء بجانبنـــا، إلا أنـــه الآن ونظراً لما حدث في البلد فلا يظنها قادمة، بل على الأرجح ستذهب ربما (أم رنا) إليها.

-45-

مرّت الشهور كحالها منذ أعوام، كئيبة لا حياة فيها سوى الروتين اليومي الخانق... إلى أن اتصلت بي أمي في إحدى الليالي لتقول بأن وضع الجدة الصحي قد تدهور وهم في طريقهم في سيارة الإسعاف إلى مستشفى الجامعة الأميركية... ارتديت ثيابي على عجل ولحقت بهم لأجدها واقفة والدموع في عينيها، سألتها عن الجدة فأجابت أنها في غرفة العناية المركزة والوضع ليس على ما يرام... هرعت باحثة عن الدكتور المعالج لها لأستفهم منه عن الأمر، فصارحني بأنها مجرد أيام والموت في انتظارها وبأنها الآن في حالة غيبوبة تامة وتعيش على أجهزة الأوكسيجين... وأردف بأنه لم يستطع أن يعلم أمي بالحقيقة... شكرته على اهتمامه بمشاعرها، وعدت إليها وأنا أفكر كيف سأقوم بإبلاغها هذا الأمر...

كانت جالسة تغطي وجهها بيديها وما إن اقتربت منها ملامسة كتفها حتى فاجأتني بقولها:

- أنا أعلم يا عبير.. لا داعي لإخباري... لست بلهاء... هي منذ حرب تموز وحالتها الصحية في تدهور مستمر وها قد وصلنا إلى النهاية...
- إنها سنّة الحياة يا أمي.
- أجل سنّة الحياة أن يرحل كل من أحبهم وأرغب بالبقاء معهم... سنّة الحياة أن أُحرم منها لأكثر من عشرين عاماً... سنّة الحياة أن أبقى وحيدة الآن.
- من قال إنك وحيدة؟ أنا هنا وهل تركتك في يوم من الأيام؟ وإخوتي كذلك.. نحن جميعاً بجانبك.

رفعت رأسها نحوي، مسحت دموعها وقالت:

- اتصلي بخالك، يجب ن يحضر.
- وهل سيتمكن من الحضور بسرعة وهو في أميركا.
- لا عليكِ.. اتصلي به يجب أن يعرف بما يحدث.

قمت بما أمرتني به، وأخبرته باقتضاب عن الوضع. فأجابني أنه سيحضر على أول طائرة. وأبلغت ما دار بيننا لأمي.

- حسناً... لولا الحرب يا عبير السنة الماضية لكان أتى إلى لبنان كما كان مقرراً ولقام بوداعها كما يجب.

فأجبتها بآية من القرآن الذي أعلم أنها تحفظ كثيراً من آياته وتؤمن بها... «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

لتجيبني: آمين... ونعمى بالله.

* * *

أُقيم القداس في الكنيسة بحضور الخال جورج وعيسى، الذي هرع إلى لبنان حال علمه بموتها، وكل من عايدة ومحمد ووالدته وعليا وأيمن وأم رنا ونادر على غير العادة، لتكون المرة الأولى التي يقف فيها بجانبي في مصيبة من المصائب...

بعد القداس بأيام عاد كل المغتربين إلى ديارهم وأعمالهم باستثناء عيسى الذي لم يكن قادراً على ترك أمي وحيدة وهي تعاني ما تعانيه من حزن... فقدّم لي اقتراحاً وجدته في بادئ الأمر حلماً من الصعب تحقيقه، ولكنه أصرّ طالباً مني التفكير بهدوء قبل اتخاذ أي قرار...

الاقتراح كان على الشكل التالي:

البلد الآن في حالة من إعادة الإعمار والبناء من جديد، أي فرصة عمل شركات الهندسة كبيرة والربح الذي ستجنيه مضمون حسب دراسة الجدوى التي كان يجزم بنتائجها قبل القيام بها... سنقوم بتأسيس شركة محدودة المسؤولية فيما بيني وبينه وبين أمي على أن أتولى العمل فيها كمهندسة

للديكور ومديرة فنية بمعاونة فريق من المهندسين المـــدنيين، بينما يقوم هو بمتابعة الإدارة الماليـــة... ســـتكون شـــركة للمقاولات وأعمال البناء والديكور... بتمويل مادي مـــن أمي وبالتالي لن يضطر إلى السفر مجـــدداً وســـتقوم أمـــي باستثمار أموالها وما ورثته مؤخراً من الجدة وفي الوقت ذاته سأعمل في المجال الذي كنت أتمنى العمل فيه منذ سنوات...

فكّرت كثيراً ووجدت أن ما يقوله عيسى هو المطلوب وأن هذه الشركة ستعود بالمنفعة على الجميع، ليس المنفعـــة المادية فقط بل النفسية أيضاً... وكان ما كان...

عارض نادر المشروع في البداية كعادته لأنـــه كـــان رافضاً قيامي بأي عمل ولكني كنت مصرّة عليـــه إصـــراراً تحول إلى مشاحنات مستمرة بيني وبينه... وتدخل من قبـــل عيسى الذي أعلمني لاحقا أنه أخبر نادر عن زيـــاراتي إلى عيادة الطب النفسي التي كنت أخفيها عنه وأنني أعاني مـــن اكتئاب حاد وأن عملي هو فرصة للنجاة لي ولعائلتي الـــتي على وشك أن تنهار نتيجة لعناده... نادر الـــذي كانـــت علاقتي به تلك الفترة توصف بالكارثة فاجأني بباقة من الورد وبدعوة على العشاء في الخارج.

ارتديت ثوبـــي الأسود على مضض فأنا ما زلـــت في حالة حداد على جدتي وحداد على روحي الـــتي ماتـــت بداخلي منذ سنوات... وخرجنا...

الرومانسية عنده أن نقوم بتناول العشـاء في مطعـم فاخر... والرومانسية في عرفي هي أن يقـوم بضـمي إلى صدره ليلاً على الكنبة داخل منزلنا لأشعر بالأمـان... أن يحادثني دون أن يقحم الماديات في حديثه ودون أن يقاطعنا الهاتف عشرات المرات... أن يسألني عن أحوالي وكيـف قضيت نهاري... أن يسأل عما يفعله خالـد في المدرسـة وربما... أن يلاعب صغيره... أن يقول لي إنه مشتاق... أن يصرّح بكلمة حب يتيمة... أن يلاحظ الفرق عندما أقـوم بتصفيف شعري بطريقة مختلفة...

جلس مقابلاً لي يرتشف من كأس الشـراب الـذي يحمله ويعاتبني لأنني لم أطلعه على أمر تـرددي إلى عيـادة الطبيب النفسي.

- لم تسأل.
- وكيف سأسال عن أمر لا علم لي به؟ هـل أنـا منجم لأعرف أنك تعيشين على المهدئات.
- وهل أنت حاضر دائماً كي ترى وضـعي منـذ سنوات... لم تسأل ولو لمرة ما الذي يضايقني... ما الذي أشعر به... ما الذي أريده... وإن كنت بحاجة إليك بجانبـي.
- ولكنني دائماً بجانبك.
- أنت... كيف بربك؟ قـل لي. كيـف تكـون

بجانبـــي وأنت الغائب طوال الوقت... نادر هل تذكر متى التقينا كزوج وزوجة لآخر مرة؟ أنا في الحقيقية لم أعد أذكر.

- أنت الرافضة للعلاقة منذ فترة طويلة وأنا لا أرغب بك بالقوة...
- آه... وهل سألت نفسك مرة عن ســبب هــذا الرفض...
- أنت منذ زواجنا لا تحبين العلاقــة الجســدية ولا ترحبين بها... هل نسيتِ.
- نعم لا أحبها... على العموم لم أخــرج معــك لأناقش هذا الأمر... أنت صاحب الدعوة ولا بد أن لديك أسبابك.
- لقد كلمني عيسى عن موضــوع الشــركة، وفي الحقيقة أقنعني بالمشروع وإنا أراه ناجحاً ولا أمانع دخولك كشريكة فيه.
- حقاً... ما هذا التطور.
- لا ليس تطوراً... كنت أعارض عملك بســبب صغر سن الأولاد، والآن وقد دخلوا للمدرســة، فلا مانع من الأمر...
- هل عليّ أن أشكرك لأنني أريد أبســط حقــوقي وهي تحقيق ذاتي بالعمل.

- إن كنت تحبين... أنا في انتظار الشكر... الليلة مثلاً.
- لا تنتظر مني شيئاً... أنا زوجتك أمام المجتمع وأظن أنني أقوم بواجبي على أكمل وجه... أما كأنثى فعليك أن تنسى وجودي... وإن كنت قادرة على قولها فأنا راغبة وأفكر كثيراً بالتحرر منك، إلا أن الجبن هو ما يمنعني من إعلان ما أريده.
- عبير لأكون واضحاً معك منذ الآن... بإمكاني انتظارك... ولكن لا تحاولي أو تفكري في الرحيل... الأمر ستكون عواقبه وخيمة... أتظنين أنني سأتخلى عن أولادي... إن كنت تستطيعين العيش بدونهم فلنفترقْ كل منا في طريق... ثم ما رأي أمك بأمر كهذا؟
- لا تقحم أمي في أمور تخصنا وحدنا... كما أنك تتحدث عن الأولاد وكأنك تعيش معهم وتعلم بتفاصيل أيامهم ومدارسهم وبما يفعلون طوال الوقت.
- لا يا عزيزتي، الأمر ليس كما تقولين. وأكرر وأعيد لك: أن حدث الطلاق فالأولاد سيبقون معي وسأسافر بهم إلى الخارج ولن تريهم مجدداً.

- يا إلهي، وكأنني أعيد الزمن إلى الوراء.. وارى ما فعله أيمن بعليا أمامي؟ ألم تكن أنت من توسّط لها لتستعيد أولادها و لم يعرك أيمن اهتماماً.
- وها أنت تقولينها: تعيدين الـزمن إلى الـوراء.. ولكنك مجحفة بحقي... هل ضربتك يوماً كما كان أيمن يفعل بأختك؟ هل قمت بإهانتك؟ هل قصّرت في واجباتي تجاهكم؟ ولكنك أنت امرأة غريبة الأطوار لم أرَ مثلها من قبل... لم أفهمك يوماً ولا أفهمك... لا بد أن أحادث أمك بالجنون الذي تقولينه الآن.
- لا تقحم أمي في الأمر... كيف سأفهمك ذلك.

وكان صوتها قد بدا يعلو ويداها ترتجفان من التوتر لعلمها أن ما يقوله سيزيد من حزن أمها التي ستعتبر الطلاق وسفر الأولاد معاناة لم تعد قادرة على تحمّلها أو رؤية ابنتها تعانيها... أشار إليها لتصمت لأن الناس من حولهم قد بدأوا بالالتفات إليهما.

- حسناً، دعنا نخرجْ من هنا.

والتقطت حقيبتها وقامت مسرعة للخروج... لحقها غاضباً وهو يقول:

- أنت امرأة لا تحتمل ولا طلاق وانتهى الأمر... ستعملين وسنستمر سوياً وسنربي أولادنا

معاً... ولن أسمح لك بتهديد أسرتي أو بتلويث سمعتي بقرارك هذا أو تهديد استقراري... أنا سعيد كما أنا وحياتنا لن تتغير... المشكلة لديك وفيك ولربما يحلها العمل والزمن.

* * *

قمنا بتأسيس الشركة وتسجيلها لدى أمانة السجل التجاري في بيروت والتصريح عنها لوزارة المالية وإتمام جميع الإجراءات اللازمة من تراخيص قانونية وغيرها واتخاذ مكتب لها وسط البلد... المعاملات التي قام بها مكتب عايدة ومحمد للمحاماة... وبات وقتي مليئاً بالعمل وبالنشاط... شعرت بنفسي كإنسانة لديها هدف وطموح في هذه الحياة... شعرت بكياني كامرأة عاملة منتجة ولم أعد (لا شيء)... لم أعد صفراً... لم أعد فرداً لا فائدة من وجوده... أعطاني العمل القوة والطاقة لأفرد جناحيّ وأسير في المجتمع مزهوة بما أحصده من نجاحات... وبت أنام من التعب لا من الأدوية...

ومرّت ست سنوات وتطور عمل الشركة ليشمل البلدان العربية الأمر الذي ساعدتني على تحقيقه رنا بعد أن قمنا بافتتاح فرع لها في الإمارات، البلد العربي الأنموذج للديمقراطية والاقتصاد القوي والأمن والأمان... في وطن

عربـــي شهدنا فيه الثورات التي أيّدناها بانتظـــار الحريـــة للشعوب على يديها، فإذا بالإرهاب يتسلّل كمرض معدٍ إلى داخلها.

... كما أننا نفكر حاليـــا بافتتـــاح فـــرع آخـــر في السعودية، على أن يتولى العمل فيه أدهم ابن عليـــا الكـــبير الذي يدرس الهندسة المدنية في بيروت...

بات كل شيء في حياتي على ما يُـــرام... الأولاد في مدارسهم متفوقون وأنا فخورة بهم... أمي الثكلى تبتســـم من وقت إلى آخر في اللحظات التي تنسى فيهـــا فجيعتـــها بابنها وبوالدي وجدتي... الخال جورج دعاها مرات عـــدّة لزيارتهم في أميركا ولكنها كانت ولا تزال رافضة للأمر... فالسفر لأميركا سيبعدها عن زيارة من رحلوا في منـــازلهم الأخيرة...

عليا أنجبت الابنة التي لطالما حلمت بها... عايدة محامية ناجحة... وعيسى المشاغب في انتظار اللقاء بنصفه الآخر...

كل شيء كان على ما يرام عدا القلب الســـاكن في الضلوع الذي لم ينبض لإنسان قبل أن يلتقيك... كل شيء كان على ما يرام عدا الروح التي غادرتني لتحل مكانها آلـــة نموذجية للعمل... ولكن ذلك كان قبل أن أحبك... كـــل شيء كان على ما يُرام إلا الأنثى السجينة في داخلي والـــتي أُطلق سراحها على يديك...

نعم يا (...) لقد دخلت إلى عالمي... بـــل اقتحمتـــه دون صعوبة ودون معارضة أو مقاومة مني... كيـــف؟ لا أعرف... لقد حاول قبلك الكثيرون التودّد لي ولكـــني لم أشعر بأي منهم... بل لم أكن أراهم... كنت عمياء إلى أن رأيت عينيك... كنت صماء إلى أن سمعت همسك... كنت باردة بلا إحساس إلى أن لمستني أناملك...

* * *

إلى هنا وانتهت عبير من رواية ما حدث لها قبـــل أن تلتقيه... إلى هنا وكان قد انتهى بدوره من سرد ما مرّ عليه أيضاً قبل أن يعرفها...

-46-

في داخلها نطفة منه، جزء من جسده ضلّ الطريق، أو ربما وجده، ليسكن رحمها. وحيدة تقف في المنزل تنظر إلى اختبار الحمل الذي أتت به من الصيدلية وذلك بعد مرور أيام على ميعاد دورتها الشهرية وحالة الضغط المنخفض الذي لازمتها وشهيتها لأنواع معينة من الطعام... عوارض عدة أثارت شكوكها فأرادت وضع حد لحيرتها... تحمله بين يديها شاخصة في النتيجة وهي تفكر: أيعقل؟ وهل يمكن؟ وهل من المعقول؟

ورغم القطيعة كان لا بد من إخباره فما نتج يخصهما معاً والجنين هو والده. كتبت قائلة (بإمكانك الاطمئنان على نفسك... على ما يبدو أنت قادر على إنجاب طفل) وأرسلت إليه صورة اختبار الحمل... لم يكن أمامها لترى رد فعله، هو الذي اخبرها سابقاً عن محاولاته الفاشلة مع زوجته لإنجاب طفل خلال السنة التي عاشها معها قبل طلاقهما.

كانت دهشته كبيرة مما حصل... أجابها مستفهماً عن الأمر... صحيح أنهما اعتادا بعد بدء علاقتهما على أخذ الاحتياطات اللازمة إلا أن إهمالهما للأمر في الفترة الأخيرة ومرور الوضع على سلام لأكثر من شهر جعله يخبرها مازحاً (على ما يبدو أنا غير قادر على الإنجاب) وبالتالي لم يكن من داعٍ لأي موانع خلال اللقاء...

دار الحديث بينهما وهما يحللان كيف حدث الحمل وفي أي تاريخ وما الذي تغير ليصلا لاستنتاج بان أدوية الالتهابات التي تناولها لأكثر من شهر بناء على أوامر الطبيب ربما أعطت مفعولها، ولربما الالتهابات التي كان يعاني منها هي ما منعت حدوث الحمل أثناء زواجه رغم أن أعراضها كانت بسيطة ولم تكن تستدعي أي فحوصات أو زيارة للطبيب ليتنبه لها... ربما وربما... احتمالات عدة كانت أمامهما، ولكن لم يعد لها أي أهمية فما حدث قد حدث وعليهما إيجاد حل بأسرع وقت ممكن... فمن الذي سيصدق حملها من زوجها وهو مسافر وإن كان قد حضر لأيام فهما أدرى الناس بعدم حدوث أي علاقة بينهما... زوجها بالذات كيف سيصدق أن الحمل منه... وإن كان هنالك احتمال للتصديق، رغم استحالة هذا الأمر، فهل سيسمح لها ضميرها بإنجاب طفل ووضعه على اسم غير اسم والده... هل سيسمح لها ضميرها بعدم البوح لهذا

الطفل بهوية والده الحقيقية... وهل بإمكانها العيش وتربية طفل على الأخلاق وهي قد أنجبته بنظر المجتمع والدين والناس وفق ظروف غير أخلاقية... وهل سيتفهّم أحد أمراً كهذا...

أخبرها أنه لو كانت ظروفهما مختلفة لكان رحب بالطفل، ومن سواها قادر على تربية ابن له كما يريد ويرغب بتربيته... وبأنه لكان شعر بالأمان لطفله معها... وليته لم يقل ذلك لأن كلماته رغم جمالها إلا أنها عذبتها ووضعتها أمام شعور غريب بأنها قد تخطت الحدود المسموحة لها واقتربت من الهاوية أو لعلها كانت تقف عند حدود الهاوية منذ بدء علاقتها معه، ولكنها لم تع ذلك...

بدأت رحلة البحث على الإنترنت عن حل سري للمشكلة... فوجدت أن إجهاض الجنين أصعب مما تتخيّل... قرأت عن دواء لقرحة المعدة منع من التداول إلا بوصفة طبيب مختص وفي حدود ضيقة بسبب أعراضه الجانبية التي تسبب الإجهاض وبسبب استعماله من قبل النساء لإجهاض أنفسهن فكلمته عنه ليستكمل هو الآخر رحلة البحث عن تركيبة هذا الدواء وأعراضه... سألها عن رأيها بالإجهاض داخل المستشفى على يد طبيب مختص ولكنها استبعدت الفكرة لصعوبة تطبيقها، فعلى الأقل ستتعرض لوابل من الأسئلة وسيكون عليها الكشف عن

هويتها... في النهاية اتفقا على أن يقوم بتأمين وصفة دواء المعدة من طبيب يعرفه...

انتظرا أياماً قبل أن تلقاه لأخذ الدواء منه بسبب انشغالها بورشة عمل لم يكن بإمكانها تركها ولكونها كانت عالمة أن الإجهاض الذي ستقوم به يستتبع الراحة بعده... فقررت أن تعيش لحظات السعادة لوجود جزء منه بداخلها قبل انتزاعه من أحشائها وقتله... كانت تسير والفرحة تغمرها، تنام حالمة وتسأل كيف كان سيكون شكله... أتراه صبياً أم بنتاً... تأكل وتفكر بان طفلهما يأكل معها... فما أروع أن يزرع فيك من تحب بذور الحياة، وما أروع أن ينمو بداخلك شعاع الفرح لوجود دم محبوبك معك، نطفة منه تلازمك، إنسان يخلق في رحمك اثر اتحاد عشق تملكك... الحدث أعاد العلاقة بينهما كالسابق فعادت الأحاديث اليومية والتواصل المستمر والتفاصيل التي لا غنى عنها... وسألته مرة: لو كنا نستطيع تركه ما الاسم الذي سنختاره له؟... أتراه صبياً؟... اشعر بهذا... وسألته أيضاً: هل أنت سعيد بالطفل؟ وكانت تعلم أنه كذلك... نعم كانا سعيدين به رغم علمهما أنها سعادة مؤقتة وأن هذه الحياة التي وُجِدت بسببهما بداخلها عليها أن تموت أيضاً بأيديهما لاستحالة القدرة على الحفاظ عليها

-47-

اتفقا على اللقاء لتأخذ الدواء منه والذي عانى طـــوال اليوم لتأمينه، واضطر لوضع اسم امرأة مستعار على الوصفة التي أتى بها من صديقه الطبيب ليتسنى له إحضـــاره مـــن الصيدلية...

استقبلها وكان قد أعد الغداء لكليهمـــا... تنـــاولا طعامهما بصمت فهما مقدمان على ارتكاب جـــرم... على قتل طفلهما الذي تحمله... مازحها قائلاً: "امنحيني الطفل وارحلي فأنا أريده... وبدورها كانت تحاول قدر المستطاع تخفيف وطأة الأمر على كليهما... كانت تراه كيف يعامل أولاد أخيه وكم يحبهم وكيف كان يرســـل بصورهم إليها... وها هي اليوم تقتل له حلمه لأنهـــا لا تستطيع تحقيقه له... تقف كحالها منذ عرفها حاجزاً بينه وبين بناء مستقبله واستقراره مانعة إياه من التحرر منها، والبحث عن امرأة قادرة على إكمال الطريق ويدها بيده أمام الناس ودون أي عوائق... امرأة قادرة على إعـــلان

حملها منه والمجاهرة به والتعبير بحرية عن سعادتها لوجـود ابنه بداخلها...

أخذت الدواء وهو يرشدها إلى طريقة استعماله الـتي باتت تعرفها لكثرة ما قرأت عنه على الإنترنت ولدهشـتها وجدته أيضاً قد قام بتحفيظ ملف كامل عـن الإجهـاض والأعراض التي تتبعه وعن كل أمر له علاقة بموضوعهما... جلست بجانبه يقرآن التفاصيل علـى شاشـة الكمبيـوتر فارتعش قلبها شوقاً إليه وحل التوتر فيمـا بينـهما لـدى تقاربهما من بعضهما البعض...

عادت إلى المنزل بعد ساعات قضتها في أحضـانه... ساعات قالا عنها فيما بعد إنها أمر عابر وإن الوضع جعلهما في لحظات ضعف يجب أن لا تتكرر... وأن الصداقة هي ما تبقى لهما...

عادت من اللقاء لتقوم بإنجاز المهمـة... الـدواء في حقيبتها، (سايتوتيك CYTOTEC) كان هذا اسمه، وعليهـا أن تأخذ ثماني حبات منه كل حبتين معاً خلال ساعات قليلة ليقوم بمفعوله... بدأت بتناول الجرعة الأولى واستتبعتها بعد ثلاث ساعات بالثانية وبدأ الوجع بالتسـلل لجسـدها... فأخذت الجرعة الثالثة ليصبح الألم قاتلاً... كل هذا وهي في غرفتها وحيدة تعاني من المغص القوي وتوابعه... بينما يقوم هو بمحاولة التخفيف عنها ومحادثتها طوال الوقت... استمرا

بالكلام معاً لساعات إلى أن انتصف الليل لتخبره عن تعبها الذي بات يمنعها من التواصل معه...

استيقظت صباح اليوم التالي بعد ليلة عصيبة عانت فيها كثيراً ليعودا للحديث مجدداً وهو يطمئن على وضعها...

تجربة صعبة مرت بها... تجربة رغم عذابها وقولها له قبل أخذها للدواء أنها لا بد ستقوم بسببه وشتمه لقاء ما تعانيه وما سينتابها من أوجاع إلا أنها لم تستطع... طوال فترة علاقتهما لم تقل له يوماً كلمة جارحة أو مهينة لمشاعره... لم تستطع أن تكرهه أو تحقد عليه رغم خلافاتهما وغيرتها واعتراضها على علاقات الصداقة التي يقيمها مع الأخريات... لم تستطع إلا أن تحبه وأن يزداد الحب في قلبها كلما مر الوقت وكلما عاشرته...

انتظرت أياماً قبل أن تقوم باختبار الحمل للمرة الثانية لتتأكد أن الإجهاض قد تم كما يجب، ولكن لدهشتها أتت نتيجته إيجابية... صدمها الوضع فحادثته لتخبره بما استجد... غاب لساعات وعاد ليقول إنه اتصل بالطبيب الذي كتب له وصفة الدواء مستفهما فأجابه بأن هذا الأمر وارد فالاختبار من الطبيعي أن يظهر إيجابياً خلال الأيام الأولى التي تلي الإجهاض وبالتالي للتأكد من حصوله عليها أن تقوم بصورة إيكوغرافي للرحم... عاد القلق ليسكنها وهي تفكر بان الأوجاع التي شعرت بها لا يمكن أن تترك

الجنين بداخلها... انتظرت حتى صباح اليوم التـــالي لتقـــوم بزيارة المستشفى للقيام بالصورة المطلوبة. ســـاعتان وهـــي تشرب المياه كما طلبت منـــها الممرضـــة إلى أن امـــتلأت مثانتها... بينما كان ينتظرها في بيته لمعرفة النتيجة التي أتت كما توقعت وكما قال الطبيب... الرحم نظيف ولا جنين فيه ما يعني أن الإجهاض قد تم على أكمل وجه...

استقبلها لتخبره عن رغبتها بشرب فنجان من القهـــوة معه لكونها كانت غير راغبة بتناول أي طعام... فما عاشته في الأيام الأخيرة انعكس على مزاجها وشهيتها وسيطر على تفكيرها...

جلسا متجاورين قبل أن تقوم لتتفقّد مكتبته وتســـأله عن أحد الكتب فيها... انضم إليها ليقف خلفها وليبدأ قلبها بالصراخ بداخلها... فتجاهلت الأمر...

بعد قليل من الصمت قال لها: "تعالي لأريك الثيـــاب الجديدة التي اشتريتها فدخلت إلى غرفته محاولة التصـــرف كصديقة لا أكثر مبدية إعجابها بما تراه، وإذا به فجأة يغلق الباب ويقترب منها ليقبّلها دون أي مقـــدمات لتتخطـــى العلاقة مجدداً حدود الصداقة التي أعلنا أنها عنوانهما لما تبقى من أيامهما...

انتهيا من ممارسة الحب، وكالعادة اســـتكانت بـــين ذراعيه يتحادثان في شتى المواضيع ويتناقشان بأمر علاقتهما

التي يجب أن تنتهي تارة ويعود ليقبلها علـــى جبينـــها وفي شفتيها تارة أخرى... يخبرها أنه عليهما أن لا يلتقيا بعـــد الآن وبأن الوضع لم يعد يحتمل... وتقبله على صدره قائلـــة إنها لا تسمع ما يقوله... بينما هما في كامـــل انســـجامهما وشفاههما على وشك الانصهار مجدداً إذ بالســـرير يقـــع بهما... دهشا من الأمر قبل أن يضحكا معاً لما حدث...

كانت تلك المرة الأخيرة التي دخلت فيها إلى منزله... المرة الأخيرة قبل أن يصر على أن لا يلتقيها مجدداً... المـــرة الأخيرة قبل أن يقوم بكسر كبريائها وبوضعها أمام تحـــدٍّ لم تكن تملك القوة الكافية للوقوف بوجهه...

المرة الأخيرة قبل أن تعود مجـــرد صـــديقة وبعـــدها (لا شيء)... لرفضه حتى صداقتها...

-48-

كتبت إليه وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله فقد اعتـــادت على قراراته التي غالباً ما تذهب أدراج الرياح عند أي لقـــاء بينهما...

- متى سأراك؟
- أين؟
- وأين في العادة أراك! في البيت طبعاً.
- لا، لا أريد.
- ولِمَ؟
- لا أريد وهذا الموضوع لا نقاش فيه.
- ما الأمر لماذا تحدثني بهذه الطريقة... ما بك...
- لا شيء... عذراً لدي عمل أقوم به.
- لماذا تتصرف بهذه القسوة؟
- يوماً ما ستشكرينني على هذه القسوة.
- حقاً! سأشكرك!!!
- نعم.

- لا أظن.

الحديث الذي دار بينهما كان غريباً... كان يكلمها بأسلوب بارد لم تعتد عليه منه، ولكنها صبرت وعادت بعد أيام لتسأله مجدداً.

* * *

- أريد أن أراك.
- أين؟
- في البيت
- لا أريد
- فلنلتقِ ولنكن مجرد أصدقاء إن كانت هذه هي رغبتك.
- بإمكاننا اللقاء في إحدى المقاهي.
- لا أريد
- ولِمَ؟
- لأن اللقاء في المقاهي يسبب لي التوتر والخوف وقد انتهينا من هذا الأمر منذ نقلنا لقاءاتنا إلى البيت.
- لن نلتقي في البيت.
- حتى ولو أخبرتك بعدم رغبتي في تخطي حدود الصداقة معك...

- لن نلتقي.
- ولِمَ كل هذا الإصرار.
- لان اللقاءِ في البيت سيضعني في حالة من الضعف لا أريدها.
- ولكني اشتقت إليك كثيراً و لم أعد أتحمّل. أريد أن أراك.
- ولهذا السبب بالذات لن نلتقي.
- ما الذي تقصده.
- الشوق سيعيدنا إلى نقطة الصفر إلى البدايـــة ولا أريد تكرار ما انتهينا منه.
- ولِمَ علينا احتمال كل هذا العذاب.

* * *

لم يعد الرفض مفاجئاً لها... شعرت بالجدية في كلامه ولكنها تحبه وتشتاق إليه، وبين المحبين لا يوجد رسميـــات أو أتيكيت للتعامل. أقنعت نفسها بهذا قبل أن تعـــاود الكـــرة وتطلب منه أن تراه.

- أريد أن أراك.
- مشغول.
- دعنا نلتقِ في مكان عام. لا يهمني أيـــن، ولكـــني أريد فقطَ الحديث معك.

- مشغول.
- حسناً، سأمر عليك في الأستوديو لبعض الوقت.
- لا.
- لماذا؟
- لا أريد أن أراك في هذه الفترة... الأيـــام قادمـــة وسنلتقي فيما بعد.
- إذا أنت لست بمشغول ولكنك لا تريد رؤيتي.
- لا تضغطي عليّ.
- لا أصدق ما تقوله ولا أرى ما المانع من رؤيتي.
- سأراك لاحقاً، قلت لك الأيام قادمة.

* * *

كان عيده قريباً... والشوق بداخلها لم يعد يتحمّل... على الأقل عليها معايدته في هذا اليوم ولـــو كصـــديق... شجّعت نفسها على القيام بخطوة أخرى تجاهه وأرســلت إليه:

- عيدك بعد أيام.
- نعم وإن يكن، ما المهم في ذلك.
- أريد أن أراك.
- لا، مشغول جداً.
- ولكنه عيدك أريد أن احتفل به معك.

- حقا أنا مشغول.
- ألهذه الدرجة.
- نعم

كانت تسأله بعد أن قامت باختيار قالب الحلوى الذي أرادت مفاجأته به... كانت تريد تأكيداً منه على قدرتها على رؤيته، كي تقوم بطلب إعداده من محل الحلوى... ولكن رفضه كان قاطعاً...

وأتى يوم عيده... اليوم الذي انتظرته منذ عام... أتى على غير توقعاتها وأحلامها وليالي انتظارها... استغنت عن الحلوى والزينة ولكن الهدية اشترتها وتريده أن يحصل عليها لعلها الذكرى الأخيرة فيما بينهما...

تواصلت معه وأخبرته أنها أحضرت هدية له وتركتها في سيارته في الموقف المجاور لعمله... كانت تريد أن توصلها بنفسها ليده ولكن الشعور بالقلق من لومه لها على حضورها وعدم قدرتها على تحمّل المزيد من الرفض منه منعاها... عزة نفسها أمسكت بها وأمرتها ألا تدق بابه...

اختبأت بسيارتها بالقرب من المكان في انتظار حضوره... ليصرخ قلبها بدقاته لحظة أطل بكل الهيبة التي ترافقه والوسامة التي تختال مزهوة به... سائراً بكل ثقة... ليتألم قلبها شوقاً وعشقاً له... ولتطلب من الله أن يحميه وأن يعطيه أجمل الأيام لحياته... اختبأت في انتظار أن يبادر

ويسألها أين هي... أن يقول إنه يرغب برؤيتها ولو لـــدقائق للسلام ولشكرها ولكنه لم يفعل، وكل ما استطاع القيام به هو رسالة جافة من بضع كلمات يشكرها فيها على الهدية مع صورة ليده وهو يمسك بها... يده فقط... مجـــرد يـــده وهي التي كانت في انتظار عينيه لتراهمـــا بـــدون النظـــارة الشمسية... حتى الصورة بخل بها عليها...

* * *

استيقظت يوماً على حلم كان كئيباً جداً ومزعجاً... خافت عليه... استشعرت بخطر ما يحيط بـــه... التقطـــت هاتفها فرأت أنه كان متوفراً في ساعة مبكرة جداً على غير العادة... ولكن حسناً لا يهم فهو بخير... فكّرت وعـــادت إلى النوم.

بعد حوالي الساعة عادت لتتفقده فوجدت أنه لم يعاود استعمال موقع التواصل الاجتماعي وهو الـــذي لا يغيـــب عنه... انتظرت لساعة أخرى وأخرى إلى أن اتلف الخوف أعصابها فكتبت تسأله عن مكانه وهل هو بخير...

بعدها بأكثر من ساعة أتاها الرد منه فحمدت الله و لم تكمل بحديثها معه فكل ما أرادته هو الاطمئنان عليه...

صباح اليوم التالي انطلقت بسيارتها نحوه وقبل وصولها كتبت تسأله:

- هل أتت الأيام؟
- أي أيام؟
- أنت قلت إن الأيام قادمة وسنلتقي وأنا أسألك هل أتت؟ أريد أن أراك.
- لا، لا يمكنك فأنا مشغول جداً اليوم.
- ولو لدقائق.
- لا أستطيع.
- حسناً... أعتذر على الإزعاج.

وكأن العمل كان مانعاً فيما مضى أو عائقاً للقــاء... عذر أقبح من ذنب رماه بوجهها وهي لا تفهم لِمَ كل هذه القسوة ولِمَ لمْ يعد بإمكانها حتى السلام عليه... ألم يلتقيا في السابق لمرات عدة لمجرد لحظات بسبب انشغال كل منــهما بأعماله... فما الذي تغير؟

لاحقاً أجابها أنه كان في المستشفى لإجــراء عمليــة استئصال للمرارة وبأنه الآن بخير... وجنّ ما بقي من عقل لديها وهي تردد له أنها قد شعرت بذلك وأنها كانت خائفة عليه وتلومه لأنه لم يخبرها عن العملية...

كانت المرة الوحيدة التي عذرته فيها على امتناعه عــن رؤيتها... ولكنها لم تكن المرة الأخيرة للرفض المستمر فهو المشغول دائماً. ولكن صفحة التواصل الاجتماعي أمامهــا تشير للعكس وهي تعرض صوره مع الأخريات منذ شهور

أمامها... مشغول ولا يمكنه رؤيتها ولكنه قادر على التنـــزه برفقه غيرها وعلى ارتياد السينما والمسابح وأماكن اللهو... مشغول ولكن وقته يسمح له بالتسكّع وإعلان الأمر علـــى الملأ دون مراعاة لمشاعرها... دون التفكير إن كان الأمـــر سيؤلمها... دون الاهتمام بما قد ينتابها مما تفعلــه تصــرفاته بكرامتها... مشغول ولا يلتفت، وعن قصد، لأي شـــيء يخصها ولكنه وباهتمام كامل يتابع أسخف القضايا وأكثرها تفاهة وأقلها أهمية وكأنه يعاقبها على أمر لا تعرفه... يجلـــد روحها وذنبها أنها أحبته...

واستمرت بانتظاره... بانتظار أن يرأف بحالهـــا الـــتي كانت تزداد جنوناً وحزناً وتوتراً وهي ترى أفعاله... لِمَ كل هذه القسوة؟ لِمَ هو جارح إلى هذا الحد؟ ولم تستطع البقاء على حالها، فعادت لتكلمه، لتعاتبه على ما يفعلــه بهـــا... أرادته فقط أن يرحم حالها، أن يساعدها ولو قلـــيلاً علـــى اجتياز أزمتها... أن يكون لديه اعتبار لأحاسيســـها... أن يتواصل معها ولو كصديقة... أن يكف عن معاملتها بجفاء لم تعد قادرة على تحمّله... أن لا يشعرها بأنها لا شيء أمام نفسها... حادثته ليجيبها بكلمات انغرست كـــالخنجر في قلبها وهو يقول إنه لا يريد أن يراها وإن علاقتهما انتـــهت والقرار لا رجعة فيه... وعاد ليكرر لها: انتـــهت العلاقـــة انتهت... عليك أن تفهمي... كان على أحد منا اتخاذ هذا

القرار الحاسم وقد اتخذته وانتهينا... لا حق لك بملاحقـــتي وبلومي على أي تصرف أقوم به... أنا حر في ما أفعله وبما أريده... وبمن أريد الخروج معها... وهل عليّ الخوف منك مثلاً؟ أنا لا أخاف من أحد... علاقتنا منذ البدايـــة خطـــأ ووجودنا معاً استمرار في هذا الخطأ، والوضع لا يناســـبني ويضر بمستقبلي... لقد بات الأمر يشكل مصدر إزعاج لي وخطر على حياتك... فكفى...

واهٍ... ما أرحم الدموع لأن لا صوت لهـــا إذا مـــا انهمرت من كلام جارح يأتينا من البعيد القريب الســـاكن بداخلنا... ما أروع الوحدة لقدرتها على إخفـــاء خوفنـــا وضعفنا وارتجاف مشاعرنا... على عدم اضطرارنا للتجمل بابتسامة كاذبة مكابرة كي لا نستدرج الشفقة من أحد... لعل أهم ما في المسافة أنها الحامية لكرامتنا من الانهيار تحت كاهل المشاعر أمام من نحب... ويا لهذا التيه الذي باتـــت تعيش فيه، ويا لهذا الحبيب الذي باستطاعته جرح من يحبـــه بكل برودة أعصاب ودون رفة جفن...

-49-

ماذا تفعل بالألم حين يبدأ خفيفاً في أسفل الرقبة ثم ينحدر نحو أعلى الصدر إلى أن يقوى ويشتد ويستمر لساعات... تجلس في سريرها وتفكر: ما الذي يحدث بجسدها! لقد قامت بكل ما يلزم من فحوصات مخبرية علّها تجد حلاً ولكنها كانت سلبية. طبياً هي لا تعاني من أي مرض ولكن هذا الذي تشعر به ما اسمه؟ وما هو؟ أتراه ألم الروح قد انتفض خارجاً متلبساً جسدها؟... أتراه الحزن قد توغّل وسكن مساماتها صارخاً معلناً عن وجوده بداخلها... لمعات الألم في ازدياد وأنفاسها قد بدأت بالاضطراب... هنالك ضربات قلب سريعة أيضاً... لا شك أنها ليلتها الأخيرة في هذه الحياة. فكرت ما الذي عليها فعله الآن؟ هل تقوم بجولة على غرف أولادها لوداعهم؟ هل تتصل بوالدتها؟ هل تتصل بالطبيب؟ ولكن هذا الأخير سيضحك كالعادة ويعتبر ما تعانيه مجرد أوهام تنتابها... وها هي تكاد تختنق... ولا حل أمامها... أمسكت بهاتفها، لا لن تفتح مواقع

التواصل الاجتماعي، لا تريد أن تراه... وما يحدث معها كافٍ لترأف على نفسها ولو قليلاً وتقيها صدمة المعرفة بأماكن وجوده مع أخريات... لا، لن تكتب أي كلمة وما الفائدة إن كان كل ما تخطه يُقابَل بالرد البارد والمختصر أو باللامبالاة...

بدأت بالبحث عن الأعراض التي تشعر بها فلربما تجد الراحة في حال لم تكن وحيدة بما تعانيه... وكانت المفاجأة، لقد بان الأمر وظهر بوجهها ساطعاً كالشمس، إن مرضها هذا يُدعى (متلازمة القلب المكسور) واهٍ وألف آهٍ على أعراضه وأوجاعه التي لا حل لها. استمرت بالقراءة حتى الفجر منتقلة من موضوع لآخر تستكشف المعلومات عن هذا المرض وتقارن بين ما تقرأه وما يحدث معها... يقولون إنه تم اكتشافه في أوائل التسعينيات من القرن الماضي... وإنه يحدث نتيجة لصدمة عاطفية، ومن هذا الأمر استقى اسمه لأن الصدمات العاطفية وحدها من يكسر القلب ويرهقه... ولكنهم يقولون إنه يصيب النساء في سن متقدمة وهي لا تزال شابة... كيف ذلك؟ ولكنها الأعراض ذاتها التي تحدث معها... قرأت وقرأت إلى أن أنهكها التعب فنامت لتستيقظ مجدداً خائفة من أحلامها... قامت لتغسل وجهها بالمياه الباردة فامتزجت بدموعها... والى متى سيلاحقها صوته في منامها... إلى متى ستنتفض كلماته القاسية أمامها... إلى متى

سيبقى الحبيب رغم كل ما بدر منه تجاهها... إلى متى سيلازمها هذا الحزن كظلها...

أمسكت بهاتفها وكتبت له:

(اشتقت لعينيك لمغازلتهما، للضياع فيهما، للمس رمشك، والنوم على صدرك، ومداعبة شعيراته الكثيفة وتلك الخمسة البيض التي اندست بينها تتعهدها بالمزيد... اشتقت لسريرك الذي كسرناه في المرة الأخيرة التي زرتك فيها. أما زال على حاله؟ هل قمت بإصلاحه؟ كيف تنام الآن؟

اشتقت لرائحة بيتك، لثيابك المبعثرة فيه... لوقوفي حائرة وأنا أفكر من أين سأبدأ بلملمة حاجياتك ووضعها في مكانها... اشتقت لطاولة البلاستيك التي تتربع بكل ثقة وسط صالونك الصغير... للجلوس حولها وتناول طعامي معك... اشتقت لمطبخك، لمحاولاتي الفاشلة لإشعال النار في فرن الغاز الخاص بك... لجيوش النمل المنتشرة صيفاً وهي تحاول جاهدة نقل ما تيسر من غنائم أرضك... اشتقت للاستحمام عندك، وممارسة الحب معك، والاشتياق إليك وأنا لا أزال في حضنك...)

وقبل أن ترسل إليه برسالتها توقفت لدقائق شاخصه بما تقوله له فقامت بمحوها وهي تفكر وتحادث قلبها... لا... إن كنا سنبقى على حبه فليكن الأمر بصمت؛ للحفاظ على

ما تبقى من كرامة لنا فلندارِ الوجع ونبتسم... فلنعلن الخاتمة ونتناسى كل ما بدر منه تجاهنا ويكفينا علماً أنـــه بخــــير... يجمعنا وطن واحد ونسير كل يوم تحت الســـماء ذاتهـــا... رمت بالهاتف بجانب سريرها وعادت للنوم...

صباح اليوم التالي، وقف لها الحنين بالمرصاد ما إن وقع نظرها على هاتفها... ولكن لا عليهـــا أن لا تضـــعف... أعدت فنجانا من القهوة قبل أن ترتدي ثيابها وتعلم الجميع بحاجتها للراحة في منزل صور قبل البدء بالمشروع الجديد... أرادت أن تختلي بنفسها... فأتت نحو جذورها تقود وأمامها تتراءى صور أولادها فتمسك بها بعينيها لتشـــعرها بأنهـــا ليست وحيدة وهناك من يهتم لوجودها... تقود وهي تردد بداخلها:

(أعطني القوة أيها المنطق، اسجن المشاعر، دعها تلـــزم الأعماق. اقتلها إن لزم الأمر... واقتل كل ما تبقى لي مـــن إحساس بالعشق... اجلدني بسياط العقل والعزة والتعقـــل، فأنا تائهة كطفلة في بلاد غريبة واحتاج لمـــن يرشـــدني إلى أهلي، لمن يسير بـــي إلى بر الأمان... لمن يقيني من جنـــون قلبـــي، لمن يعيد لي الاتزان...)

حين وصلت رمت بحقيبتها حال دخولهـــا للبيـــت، خلعت حذاءها والشال عن كتفها وبحركة لا شعورية مدت يدها إلى العقد فشعرت به كطوق عذاب للمرة الأولى منذ

وضعه حول عنقها في عيد العشاق فرمت به هو الآخر أرضاً وجلست على الشرفة المقابلة للبحر...

أمسكت بهاتفها الذي كانت تتجاهله منذ الصباح وكتبت له:

(في انتظارك كانت الساعات كالأعوام، والدقائق مشانق أحلام... في انتظارك مل الانتظار مني والصبر رفع راية الاستسلام وأهملني... لم يعد يجدي الملام معك، ولم يعد للعتب مكان أو للتمني... حان وقت الرحيل، إنه الندم من يفرض سيطرته الآن... فلا تلمني.

لقد احتملت منك ما لا يحتمل وداريت قسوتك واحتميت بالأمل... وأنت تمعن في لامبالاتك بمشاعري وفي تجاهلك... فاعذرني.)

كانت الكلمات الأخيرة التي خطتها إليه، والخاتمة التي لا رجوع بعد اليوم عنها... كان الوداع الذي أملاه عليها عقلها... وعلى مضض انحنى له قلبها... وكانت النهاية.

لملمت ما تبقى من حطامها وسارت نحو الشاطئ تستعيد ذكريات الطفولة، عندما كان الجلوس على صخوره كل متعتها، والنظر إلى عمق البحر ينسيها أي أمر يشغل بالها... سارت ومع كل خطوة كانت تلتفت حولها، ولسان حالها يحادث المدينة ويقول:

(ضميني يا صور، دثريني يا أمي، متعبة أتيت إليـــك، مرهقة من هذا الزمن، دعيني أسرْ في حواريـــك... ألمـــس جدرانك، أغمس قدميّ ببحرك، أنمْ تحت نور الشمس على رمالك، أرنُ في عيون أبنائك... هنا الدفء، هنـــا حنـــان الرحم، هنا الولادة وهنا بعد انتهاء الرحلة سأُدفن... منـــك ابتدأت وإليك أعود فخذيني... احميني من الحزن، مما يعتصر بقلبـــي من خذلان وألم... ساعديني يا حبيبتي، يا أمـــيرة المتوسط ولؤلؤة الشاطئ... أيتها الأبيـــة الشـــامخة انثـــري الكبرياء على قلبـــي وشاحاً يقيني من برودة المشاعر ومرارة فراق الأحبّة...)

الليلة انتهيت، الليلة قلت كل ما عنـــدي والبـــوح أتممت، الليلة أفرغت من ذاكرتي ذكراك، نفيتـــك مـــن عالمي مع آخر سطر كتبته عنك. في "زوايا النسيان" قابع أنت الآن، لا حول لك، ولكنني سأبقى أبداً بـــداخلك، سألتف كتعويذة حول عنقك، كوشاح ترغـــب بدفئـــه، تشده ليلتصق بك وكأنك تشم فيه عطر أمك... ولـــن تنسى نظراتي، ستراني في كل النساء حولـــك. ســـتلمس جسدي كلما اقتربت منهن وعنـــد وعيـــك ســـتنتفض كأرنب مذعور وتفر باحثاً عن المشاعر الحقيقيـــة الـــتي قدمتها لك... ولن تجدها... ستسمع همسي كيفما التفتت ولغيري لن ينبض قلبك.

الليلة دقت ساعتك في الـــزمن الماضـــي وعنـــك رحلت... الليلة قتلت كل ما بقي لك عندي وهداياك في حفرة عميقة دُفنت... الليلة أعلنت لكرامتي أنني منـــك تحررت... الليلة أنا امرأة الحاضر، والمستقبل لم يعد رهنـــاً

لوجودك... الليلة سأضع رأسي على وسادتي دون دموع وآلام، دون انتظـــار وأوهـــام، دون أحـــزان غـــادرتني لتحتلك.

الليلة أقسم إنني سأنام، وأنك بعد قراءة روايتي لـــن تغفو ما حييت.

(تمت)

عن المؤلفة

- من مدينة صور – لبنان.
- مجازة في الحقوق من الجامعة اللبنانية.
- مفتش أول لدى الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي.

زوايا النسيان

ناهد فرّان

ما زلت أكتب قصتنا، أروي لمن سيقرأ كيف التقينا وحدث ما حدث بيننا.

أنا الآن في المنتصف، منتصف البوح، منتصف الرواية، منتصف الحب ومنتصف نسيانك... لم أعد أراك كلك، فهل بدأت تتلاشى؟ كلما زدت في الكتابة زاد وجهك بعداً وغرابة... فهل كنت أحتاج لشاشة وأزرار أضغط عليها بأصابعي طوال الوقت لأحرر نفسي منك... لأضيع في ذكريات كثيرة تستحضرني تقفز أمامي صارخة: اكتبيني.

لم أطمح لأكثر من رمي حمل مشاعري فإذ بي ألقي عن كاهل العشق همك... أتحرر درجة درجة من حبك وهوسي ومرضي بك... نعم مريضة أنا بك، مدمنة لعينيك ولكنني في طريقي لأتعافى، كلما انتقلت لصفحة بيضاء جديدة كلما ابتعدت بالمسافة ما بين قلبي وقلبك...

فادعُ لي بالشفاء، بالخروج من مصحة الكلمات امرأة جديدة قادرة على شطب الحزن من قيود هويتها، على زرع الأمل في نفسها، على فتح ذراعيها للحياة...

• صدر لها أيضاً عن الدار:

ISBN 978-614-01-1931-4

9 786140 119314

الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com